عدد خاص بعيد العرش المجيـ



# دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
بالمملكة المغربية

## عيد العرش
## عيد الشعب

العدد: 263
رجب 1407 - مارس 1987
الثمن: 4 دراهم




# ديوان دعوة الحق

# وفاء وولاء

باقات شعرية مهداة إلى رمز الأمة المغربية،
وباني وحدتها الترابية، سليل الدوحة النبوية الشريفة
وجوهرة عقد الدولة العلوية المجيدة صاحب الجلالة
أمير المومنين الحسن الثاني أدام الله عزه وعلاه.

1381
1961



1405
1985

# دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع: 636.93 — 627.03 — 627.04 — 608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●


## تهنئة

يحتفل الشعب المغربي بحلول الذكرى السادسة والعشرين لتربع أمير المومنين سبط النبوة، جلالة الملك الحسن الثاني المفدى، على عرش أسلافه الميامين. وبهذه المناسبة العزيزة، يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تتقدم إلى المقام العالي أسماه الله بأحر التهاني، وأغلى الأماني، داعية المولى جلت قدرته أن يكلأ بحفظه وعنايته مولانا المنصور بالله، ويمده بالعون والتوفيق وأن يحقق به وعلى يديه، ما يطمح إليه شعبه المتعلق به، والوفي لعرشه، وأن يحفظه لشعبه وأمته ذخراً وملاذاً ويقر عين جلالته بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه المحبوب صاحب السمو الملكي الأمير السعيد المولى الرشيد وسائر أفراد أسرته الكريمة.

إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

دعوة الحق

# عيد العرش عيد الشعب

بقلم الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

للشعـوب طرق للتعبير عن عـواطفهـا، فهي إذا أحبت شخصاً صنعت له تاريخا من الخيال، ونسجت حوله قصصاً من البطولات إن كان قائداً، أومن الكرامات وخوارق العادات إن كان من شيوخ العلم أو الدين، وخلقت في أبنائها قناعة بصدق ذلك التـاريخ وتلك القصص، وحرمت الشك في شيء من ذلـك عن طريق ربطه بالدين أو بالشرف أو العلم أونحو ذلك.

وهكذا اختلط تاريخ عدد من الشخصيات التاريخية بشيء غير قليـل من الخيـال الشعبي، وتـاهت الحقيقـة بـالنسبـة إلى عدد منهم في متاهات ذلك الخيال، ولم يعد في إمكـان المؤرخ أن يعرف ما يـأخذ من أخبـارهم ومـا يـدع، ولم يسعـه إلا نقل الأخبـار على حـالتهـا، وسرد الحكـايـات على صورتهـا، تـاركـاً للقارئ أن يتمتع بجمال الحلم إذا لم تسعفه شواهدالحقيقة.

☆ ☆ ☆

غير أن بعض العظماء نطحت أعمالهم سماء القدرة البشرية، وسمت فوق العادة، وتخطت الممكن وما هو في حـدود الطـاقـة، لتصبح في جلالها وسموها وبهائها ضرباً من الخيـال، يحدثـك

عنه الناس فتظن بهم الظنون، وتحسب أنهم يبالغون، وتحمل كلامهم على ما حملت عليه حكايات الشعوب عن قادتها وأبنائها الذين ترجمت حبها لهم بقصص من نسج الخيال، مع أن الأمر بالنسبة لهؤلاء العظماء حقيقة لا شبهة للخيال فيها، ومثل هؤلاء إنما يكونون فلتة من فلتات التاريخ، لا يظهرون إلا على فترة من الناس، وإذا ظهروا ملأوا عصرهم والعصور التي تليه، وأثروا في مسيرة التاريخ، وتركوا بصماتهم عليه، وخلفوا الشواهد من الآثار تدل عليهم، فيكون واقع تاريخهم أجمل من خيال تاريخ غيرهم.

وإذا ظهر واحد من هؤلاء العظماء في شعب أحيا الله ذكر ذلك الشعب به، فيبقى ذكر رجال لا يحصون عدداً حياً دائماً وأبداً، ويغبطهم غيرهم بما نالوا من خلود الذكر بفضل ذلك العظيم الذي أظهره الله فيهم، وهكذا يكون ذكر ذلك العظيم ذكراً لذلك الشعب، وعيده عيداً له.

وإن الحسن الثاني لمن أعظم هؤلاء العظماء : فهو عبقري زمانه، وفريد عصره، وفلتة من فلتات الدهر؛ في سعة علمه، وتوقد ذكائه، وعمق حكمته، وبالغ حنكته، وعجيب كياسته، وبديع سياسته، ولطيف تدبيره، وبُعد تفكيره، ومضاء عزيمته، وقوة إرادته، وواسع حلمه، وفائض كرمه، وما ضرب من مثل عليا في آداب السلوك، وتقاليد الملوك، وما تحقق على يديه من الأعمال الجليلة، والمقاصد الشريفة النبيلة.

وإننا لنفخر بأننا من رعيته وفي زمانه ودولته، ونحتفل بعيد العرش ونحن نستشعر جميع هذه المعاني، ونحس بأن عيد العرش هو عيد الشعب.

أدام الله على مولانا أمير المؤمنين عزه، ووالى نصره، وأقر عينه بالأمير الأمجد طلعة الخير والسعد ولي العهد سيدي محمد، وصنوه السعيد العبقري الفريد الأمير مولاي رشيد، وسائر أفراد الأسرة الملكية الشريفة.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

# ثلاث رسائل إصلاحيّة لِثلاثة ملوك علويّين على مدى ثلاثة قرون

الأستاذ عبد الله كنون

في ذكرى عيد العرش العلوي الماجد، بعد مرور خمس وعشرين سنة على اعتلائه من طرف جلالة الملك المعظم مولانا الحسن الثاني، وهي الذكرى الفضية التي احتفلنا بها في السنة الماضية، وابتداء الذكرى الذهبية بحلول السنة السادسة والعشرين لجلوس جلالته الكريم، يطيب لي أن أسجل ملاحظة في غاية الأهمية، ربما لا ينتبه لها إلا الأقلّون من الناس، وهي أننا نعيش في ظل ملك عظيم نفاخر به الشرق والغرب، وهو من طراز ملوك عظام مروا في تاريخ المغرب، ولا يزال عهدهم مضرب المثل في تقدم المغرب ورفاهيته وازدهاره، كيوسف بن تاشفين، ويعقوب المنصور، وأبي الحسن المريني، والمنصور الذهبي وغيرهم، وهي شخصيات اقترنت حياتها بفتوحات مظفرة وتطورات حضارية وأعمال إصلاحية كبيرة.

ولما كان المثال لا يُخصّص، كما يقول العلماء، فإن في دولتنا العلوية الشريفة ملوكا آخرين يأتون في الطليعة من هذا النمط النموذجي للملوك، ومنهم بطل الاستقلال محمد الخامس ومحمد الثالث ومولاي إسماعيل، ولكن الموضوع الذي حددناه لهذا المقال، يرتبط بالإصلاح الديني والتدبير العام لشؤون الدولة الذي اهتم به الملوك الثلاثة الذين يساق إليهم الكلام، فجعلهم يكتبون رسائل يهيبون فيها بشعوبهم إلى الالتزام بشعائر الدين واتباع الصراط المستقيم وجمع الكلمة وتوحيد الصف لحماية بيضة الإسلام، والارتفاع بأمتهم إلى أعلى مقام.

وهؤلاء الملوك الثلاثة المعْنيون، هم السلطان مولاي سليمان، والسلطان مولاي الحسن الأول، وعاهلنا العظيم الحسن الثاني بارك الله في أنفاسه، ونفع البلاد والعباد بغراسه.

فأما المولى سليمان فهو ابن محمد الثالث، وتولى من سنة 1206 هـ إلى 1238 هـ، وكان عالماً جليلاً متضلعاً، بالخصوص، في علوم الحديث والتفسير والبلاغة، وله عدة مؤلفات.

ومن آثاره في باب الدعوة والانتصار للسُّنة ومحاربة البدعة، خطبته الشهيرة التي وجهها إلى عموم المواطنين، يحذرهم فيها مما أحدثه أدعياء التصوف ومُتَفقّرة الوقت، وأتباعُ الطرائق الضالة في **الدين**، من بدع ومنكرات شوهوا بها وجه الدين، وأقاموا أسْوَاقاً للضلالة سمّوها مواسم، تُنْتهكُ فيها حرمة الشريعة، وتُقترف كل جريمة شنيعة، وهم يعتقدون أنها قربات لهم، لاسيما وهم يقيمونها باسم بعض الأولياء، وحول أضرحتهم، ومما جاء في هذه الخطبة :

«فأنشدكم الله، عباد الله، هل فعل رسول الله ﷺ لعمه سيد الشهداء مؤسماً ؟ وهل فعل سيد هذه الأمة أبو بكر لسيد الأنبياء والرسل موسماً ؟ وهل تصدّى لذلك أحد من التابعين رضي الله عنهم أجمعين ؟».

ومنها في هذا الصدد قوله :

«كأني بكم تقولون في نحو هذه المواسم المذكورة وزخرفة أضرحة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع، حسبنا الاقتداء والاتباع، ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ وهذه المقالة قالها الجاحدون، ﴿**هيهات هيهات لما توعدون**﴾ وقد ردّ الله مقالهم، ووبّخهم وما أقالهم».

ثم قال بعد كلام في الذكر الشرعي وأنواع القربات التي نصّ عليها في الكتاب والسُّنة :

«ولا يتقرّب إلى مالك النواصي بالبدع والمعاصي، بل بأكل الحلال، وقيام الليالي، وآيات تتلى، وسلوك الطريقة المثلى، وحج وجهاد، ورعاية السنة في المواسم والأعياد، ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ الآية، ﴿**وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾.

الصراط المستقيم كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ وليس الصراط المستقيم كثرة الرايات، والاجتماع للبيات، وحضور النساء والأحداث، وتغيير الأحكام الشرعية بالبدع والإحداث، والتصفيق والرقص، وغير ذلك من أوصاف الرذائل والنقص ﴿**أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً**﴾ ؟».

وهي طويلة اخترنا منها هذه الفقرات الدالة على المراد. وكان لهذه الخطبة وقع في النفوس وصدىً بعيدٌ في الأوساط الطرقية، ولم يزل العلماء يستشهدون بها، ويعتمدونها في الإنكار على أتباع الطرائق المنحرفة، وإلزامهم بالرجوع إلى الجادّة ونبذ مظاهر الشعوذة والتدجيل الملصقة بالدين.. ففي سنة 1352 هـ، عند الانتفاضة الوطنية العارمة على الاستعمار وأعوانه، كان من جملة العرائض التي رُفعت إلى جلالة الملك المرحوم محمد الخامس من طرف علماء القرويين، هذه الخطبة الفذة، فصدر أمره الشريف بالكفّ من غُلواء المبتدعين، ومنع كثير من أعمال الشعوذة التي كان المستعمر يُشجعها ويناصرها.

وبالجملة فقد كانت هذه الخطبة هي الرسالة الإصلاحية التي قام بها السلطان المولى سليمان في أوائل القرن الثالث عشر، وسجّل موقفا فريدا في النصح لشعبه والمنافحة عن الدين الحنيف.

وأما السلطان المولى الحسن الأول الذي تولى من سنة 1290 هـ إلى 1311 هـ، فقد كان ملكا شهما عظيم الهمة استطاع بدهائه السياسي أن يوقف المدّ الاستعماري الدولي الذي كان يتهدّد المغرب، وبحسن تدبيره أن يَلُمّ أطراف المغرب، ويُحدث تطوراً كبيراً في المجتمع الذي رأى عليه التخلف والاتكالية، فأرسل وفودا عديدة من المتعلمين إلى أقطار أوروبا لتلقي فنون المعرفة والتقنيات التي تُعوِزُ البلاد، وكان كثير الحركة بين أنحاء المملكة حتى قيل فيه إنّ عرشه كان على سرج فرسه، فزار المناطق النائية وتفقد أحوالها، حتى بلغ أقاليم الصحراء، وربط الصلة بأهاليها وجدد العهد لولاتها، وأحدث فيها نقطاً ومراكز عسكرية لحمايتها وضمان أمنها.

والموضوع يربطنا بسياسة الإصلاح التي ضمّنها رسالته الجامعة، التي وجهها إلى الشعب على رأس القرن الرابع عشر الهجري، فلنصرف النظر إليها.

وهي رسالة عامرة استوعبت شعائر الدين وسُننه وأخلاقه، وقد استهلّها في الأول بما يؤذن أنها موجّهة للأمة الإسلامية على العُموم لا تخص بلداً بعينه، إذ جاء في طالعها :

«إلى معاشر أهل الإسلام، وأمة النبي عليه الصلاة والسلام».

وهو فيما ذكره من وصايا ونصائح، في معظم الرسالة، عمّم الخطاب بما جاءت به الشريعة الإسلامية من أحكام ومطالب، وقال بعد أن اشار إلى بعثة الرسل وخاصة خاتمهم سيدنا محمد ﷺ ونشره للدين وما قام به خلفاؤه وولاة الأمة بعدهم من السير على نهجه عبر القرون مُعقّباً على ذلك بما نصه :

«وهكذا على رأس كل مئة سنة، يبعث الله لهذه الأمة من يجدد معالم الدين، ويصقل مرآته من صدأ التعمق في بيداء المضلين، وحيث كانت هذه السنة هي آخر المئة، وتوفرت دواعي النصيحة بمفتتح رأس المئة القابلة لهذه الفئة، وتعين لذلك تنبيه الغافل وإرشاد الضالّ، عملاً بما كان عليه السلف، لتكون لهم خير خلف».

فالأمر أمر المجدد والتجديد، وهو عامّ يشمل جماعة المسلمين في كل مكان، ولا يلزم أن يكون واحداً كما عليه العلماء، قديماً وحديثاً.

وابتدأت الرسالة بالحض على التمسك بقواعد الإسلام، من شهادة وصلاة وزكاة وحج وصيام، فأعطت كل قاعدة ما تستحقه من بيان وتوضيح، وما لها من حكم وأسرار، مُستظهرة بآيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي الكريم، ثم ثنّت بهذه الوقفة :

«وقد كادت أن تترك هذه الدعائم، فلا يوجد سائل عنها ولا حائم، ونُبذت الشرائع عياناً، وارتكبت البدع إعلاناً، وصار أمرها يتزايد في كل حين، والحق لا ناصر عليه يعين، قال تعالى : ﴿ **فليحذر الذي يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾».

وتخلصت من ثم إلى الكلام على الولاة وما نيط بهم في الشرع من النظر في شؤون الناس بالنصح والإخلاص والعدل والمساواة، بعد النظر في إصلاح أنفسهم، فإنه لا ينفع الوعظ في الغير ما لم يعظ المرء نفسه، وإنما تصلح الرعية بصلاح الراعي. ومن صلاحه أن يكون مع من هم إلى نظره إخواناً، وعلى الحق أعواناً، ولا يُداهن أهل المعاصي، ويستعين على ذلك بتقريب أهل الفضل والدين واستمرت الرسالة في الحض على العدل والتحذير من الظلم وما له من العواقب السيئة، وتطرأت للكلام على أهل الذمة وما يجب على المسلمين من حمايتهم وأن ظلمهم نقض لعهد الإسلام الذي هو الذمة التي دخلوا فيها، وقالت :

«ومن المنكر الذي لا يسع التغافل عنه والتساهل في أمره، هذا الخطب النازل الوقتي الذي هو المجاهرة باستعباد الأحرار واسترقاقهم بدون وجه شرعي».

وهذا ما يتوافق مع الاتفاقية الدولية لسنة 1890 بإبطال الرق، وكان الفقيه الحاج محمد كَنون ينادي بذلك من زمن سابق، وأفاضت الرسالة بعد ذلك في وُجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر عدة مناكر بما يجب تغييره على ولاة المسلمين، وتأييد ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي يخطئها العدّ.

وهنا تختم الرسالة بالتوجه إلى عمال المملكة، فيضيق مجالُ الخطاب ولا يبقى على ما كان عليه من عموم وشمول الأمة الإسلامية والمؤمنين كافة، فتطالب العمال أن يلزموا أنفسهم وأهليهم بطاعة الله، والعمل بسنة نبيه عليه السلام وحمل الرعية التي إلى نظرهم على ذلك، وتخصُّ ولاة القرى والأرياف بأن يعملوا على حفظ الاستقرار في نواحيهم وأمن الطرقات والضرب على أيدي أهل العيث والفساد، مع الاهتمام بمشارطة فقيه في كل قرية يُعلّم أولادهم، ويُفقههم في دينهم ويقيم لهم الصلوات الخمس في أوقاتها، ويرفع الأذان الذي هو على إيمان القرية دليلٌ ولملّة الإسلام شعارٌ».

وتنتهي الرسالة بالدعاء، على المعتاد، مبرهنة بذلك عن عمق إيمان صاحبها وإخلاصه في النصح لأمته، وعطفه الكبير على شعبه، ومحبة الخير له، ولا أدل على ذلك من هذه الفقرات التي جعلها مسك ختامه، وخرج بها من عموم الخطاب لجميع المسلمين إلى عماله على رعيته خاصة، وإن كانوا داخلين فيما تطرق إليه قبل من واجبات العمال المسلمين، وزاد فعيّن عماله على البوادي والقرى، وكانت التفاتته إلى معلّمي الصبيان وما يقومون به من واجبات دينية واجتماعية، رائعةً، فهي مهمة تربوية تتعلق بمعظم السكان والمواطنين، لما نعلم من أن نحو السبعين في المائة من المواطنين هم سكان البادية.

والملاحظة العامة على الرسالة أنها تتقمّصُ الروح الدينية، علماً من مُمْليها أن الإصلاح الأساسي يقوم على الدين، وهو وإن كان يُباشر في مدة ملكه كلها أسباباً مادية ووقتية للإصلاح كابتعاث المتعلمين إلى أوروبا وإنشاء مصانع للسلاح وغيره، فإن الإصلاح الديني عنده يبقى هو العُمدة والمرجع، وهو في ذلك على حق، يؤيده

الوضع في العالم الإسلامي حالياً ومناداة الجميع بالرجوع إلى الإسلام من جديد.

أما الرسالة الثالثة، فهي قمّةُ هذه الرسائل، وناهيك أن كاتبها هو العاهل المفدّى الملك الحسن الثاني نصره الله، وهي كما سُميت بحق رسالة القرن الخامس عشر، ولا ينبغي أن تكون إلا كذلك، لأنها واكبت الصحوة الإسلامية التي أزالت الغشاوة عن العيون، وآذنتْ بانبعاث المسلمين إلى العمل الجدّي لاسترجاع مجدهم وبناء حضارتهم من جديد وتبوئهم المكان اللائق بهم في المجتمع الإنساني كقوة ثالثة تحفظ التوازن بين التوجهات المتعارضة من يمين ويسار ووسطيّة مهزوزة وغيرها؛ ولأنها تعدّل المواقف المختلفة النزعات في الإصلاح الإسلامي الذي ينادي به الكثير من الدعاة والمفكرين الإسلاميين، ولأنها تدعو إلى الوفاق بين القادة المسلمين، وتبين الأولويات التي يجب الأخذ بها قبل غيرها، وتحدد الغاية من العمل الإسلامي المشترك حتى لا يزيغ أحد عن القصد والهدف والمرْمى.

وبكلمة واحدة لأنها رسالة الحسن الثاني.

ولنا مع هذه الرسالة وقفة طويلة يضيق عنها المقام، فلنشر إلى النقط الرئيسية فيها التي تُفصح عن مضامينها وتعرب عن أهدافها.

فبادئ ذي بدء نوّه جلالته بالرسالة الإلهية التي جاء بها الرسول ﷺ المتمثلة في القرآن والسنة المبينة له، ودعا إلى حماية السنة بالخصوص من الهجوم عليها لأن حفظها موكول إلى علماء المسلمين وأمرائهم، وانطلقت الرسالة من هذه النقطة إلى الإشادة بدين الإسلام دين العلم والحرية ومحاسن الشريعة الصالحة للتطبيق في كل عصر وحين.

وتبلغ الرسالة الحسنية أوج النصح حين توجّهُ الخطاب إلى المسؤولين في حكومات البلدان الإسلامية، وتقول :

«من واجب القادة المسؤولين والزعماء البارزين في العالم الإسلامي أن يفتحوا الطريق أمام القائمين بالبعث الإسلامي والدعوة وشمولهم بالرعاية الكافية حتى يؤدوا رسالتهم أحسن أداء، فهذا الأمر من الأهمية بمكان في حياة الدعوة واستمرارها ونجاحها وإيتائها ثمراتها المرجوة».

وهو يشير بذلك إلى العراقيل التي توضع في طريق الدعاة، والتوجُّس الذي يجده بعض الحكام من الدعوة حتى إنهم ليسمحون بإنشاء الأحزاب وإصدار الصحف لأصحاب المذاهب الهدامة ويمنعون الهيئات الإسلامية من مزاولة نشاطها المشروع، وتزيد الرسالة قائلة :

«كما أن من واجب دعاة الإسلام أنفسهم أن يجتمعوا على كلمة سواء ويدعموا فيما بينهم روابط التضامن والإخاء، ويعملوا على أن تكون دعوتهم خالصة لوجه الله يسودها طابع التعاون والصفاء».

وهذه أيضاً نصيحة توزن بميزان الذهب، وهي في هذا المجال تلي التي قبلها أهمية، فالدعوة تضيع بتعرض المسؤولين لها، كما تضيع بتهور الدعاة وعدم اتباع سبيل الحكمة وما أمر الله به في قوله : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾.

فاختلاف الدعاة وتصدّي بعضهم لبعض من أكبر آفات الدعوة، فهاهم المسلمون اليوم قد وقعوا في فتنة عظيمة من تصرفات بعض الدعاة الذين يفرقون أكثر مما يجمعون، ويُضلون أكثر مما يهدون.

وتمضي الرسالة محلقة في الأجواء العالية، فتشير إلى المسؤولية التي طوّق الله بها هذه الأمة، بحمل رسالته وتبليغها للناس كافة، وقرَن خيريتها بهذه المسؤولية التي جعلتها فعلاً تتقدم الأمم وتحتلّ الصدارة بين الشعوب في العلم والمعرفة والاستقامة والصلاح لمّا نيطت بحملها واضطلعت بمهمتها في الماضي البعيد والقريب، فعلينا أن نقتفي طريق سلفنا الصالح ونتتبع خطاهم بكل صدق وإخلاص.

وتقول الرسالة في الختام :

«إنه لضمان مستقبلنا كأمة رائدة للأمم، علينا أن لا نهتم بالجانب المادّي وحده.

١) بل يجب أن نوجه حظاً كافياً من اهتمامنا إلى الحفاظ على تلاحم الأسرة المسلمة وحمايتها من عوامل التفكك والانحلال.

2) وأن نعيد للتربية الدينية والخلقية ما كان لها من الاعتبار والأهمية في تنشئة الأجيال.

3) وأن نجعل من الأم المسلمة أمّاً مثالية تعتز بأن تكون هي المربية الأولى للناشئة والأطفال، فداء لدينها وإخلاصاً لوطنها.

4) وأن نجعل من المدرسة والكلية والجامعة (إلى جانب المسجد) الملتقى المفضل والدائم للعلم والإيمان.

5) وأن نتعـــاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان،

6) وأن نزيل من طريق التضامن الإسلامي الكامل والشامل كل ما يعرضه للانتكاس والاختلال،

7) وأن نقبل على حل مشاكلنا الطارئة والمزمنة بجدية وواقعية وتخطيط بدلا من اللا مبالاة والإهمال والارتجال،

8) وستجد في تراثنا الروحي والحضاري الخالد ما يعينها على طرح هذه المشاكل طرحا واضحاً معلولا وحلها حلاً إسلامياً مرضياً مقبولاً».

إنها لرسالة عظيمة تليق بالمسؤولية العظيمة التي يتحملها الجميع من ملوك ورؤساء وعلماء وأساتذة وجنود نظاميين وأحرار، من رجال ونساء في العالم الإسلامي، عرباً وعجماً، فهل ينهض بها هؤلاء أم يكونون دون المستوى، فيحق فيهم قول الخالق عز وجل : ﴿**إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز**﴾.

ولكنا نستبشر بالخير، ولا نيأس من روح الله، لاسيما وهذه الرسالة دليل على الاهتمام الرسمي بالأمر، والناس، كما يقولون، على دين ملوكهم، فالله يأخذ بيد المسلمين ويوفقهم لما فيه خيرهم ورضا الله عنهم. ولمولانا الملك طول العمر ومزيد التوفيق، وكل عام وجلالته بخير.

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

فمن واجب القادة المسؤولين والزعماء البارزين في العالم الإسلامي أن يفتحوا الطريق أمام القائمين بالبعث الإسلامي والدعوة الإسلامية، وأن يشملوهم بالرعاية الكافية، حتى يؤدوا رسالتهم أحسن أداء. كما أن من واجب دعاة الإسلام أنفسهم أن يجتمعوا على كلمة سواء، ويدعموا فيما بينهم روابط التضامن والإخاء، وأن يعملوا على أن تكون دعوتهم خالصة لوجه الله يسودها طابع التعاون والصفاء.

## عيد العرش

# أملٌ وعمل

الأستاذ أحمد ابن سودة
مستشار صاحب الجلالة

﴿وذكّر فإنّ الذّكرى تنفعُ المؤمنين﴾.
صدق الله العظيم

مليـــك البـــلاد عليـــك الأمـــل
يعلقـــه الشعب بعـــد العمـــل
فحقـــق لـــه فيـــك مـــا يرتجي
يحقّـــق لـــك الله كـــلّ أمـــل

في 18 نـونبر سنـة 1933... بهـذا النّشيـد ارتفعت الأصوات إلى السّماء، وتجاوبت معه الأصداء، وانسجمت ألحـانـه مع أنين النّواعير، وخرير المياه، وزقزقات العصافير، وساد جوٌّ من الرهبة والخشوع، حتّى كأنّ الأرض ارتفعت إلى السماء، أو السماء عانقتِ الأرض.

فكـان ذلك أول احتفال بعيد العرش تنظمه «كتلة العمل الوطني» «بجنان السبيل» بمدينة فاس.

ومن واجب الجيل الذي خصه الله، تبارك وتعالى، بحضور ميلاد الحركة الوطنية، وقيض له مواكبتها والمشاركة في أحداثها، أن يسجل ذكرياته عن تلك الحركة المباركة بصدق وأمانة، ويخطّ على الورق ما علق منها بذاكرته، مهما كان، في نظره، صغيرا، أو غير ذي شأن.

فكما أن الأجيال الصاعدة مَدينة لهذا الجيل المتميز، بكل ما بذله عنها من تضحيات، وما عاناه من محن السجن والنفي والتعذيب في سبيل الحرية والاستقلال، فإن ذلك الجيل الرائد الذي أسميه «بالجيل الجسر» بين عهدين، مدين، هو الآخر، للأجيال الطالعة بجمع تلك الأحداث الباهرة

التي التحمت فيها القمة بالقاعدة التحاما عضويا وروحيا، أدى إلى الفوز بنعمة الحرية والاستقلال، وتسجيلها بدقة وتفصيل، حتى تكون لهم مصدر اعتزاز وافتخار، وموعظة واعتبار.

### نــــــداء

وأغتنم هذه الفرصة الكريمة لأتوجه من هذا المنبر الإسلامي العتيد، (دعوة الحق) الرائدة، إلى جميع أعضاء ذلك الجيل الأحياء القادرين على الكتابة أو الإملاء، وأناشدهم أن يؤدوا واجبهم نحو تاريخ وطنهم، ونحو أبنائهم وأحفادهم الذين يجهلون، أو يكادون، تفاصيل تلك الأحداث، أو لا يدركون، حق الإدراك، أهميتها وفاعليتها في تشكيل مغرب اليوم، الأمر الذي، بدونه، لن تكون لهم صورة حقيقية عن أنفسهم، ولا عن الخليفة التاريخية والسيكولوجية لحاضرهم ومستقبلهم.

### جيل الثقافة السمعية البصرية

وسواء أحببنا أم كرهنا، فإن الأجيال القادمة التي تولد اليوم وتترعرع في بيئة انتشرت فيها الثقافة الإعلامية السمعية البصرية، ستطالب بالتاريخ لتلك الفترة المخاضية الحية بالكلمة، والصورة، والصوت.

ومهما تفوق الجهاز الإعلامي، فلا بد له من مادة تاريخية خام لتصنيعها برامج وكتبا، وأشرطة تلفزيونية وإذاعية، وإذا لم تكن هناك مادة خام تتسم بالواقعية والصدق والحياد، فإن الجهاز الإعلامي سيسقط في مستنقع الغموض الناتج عن الحكي السمعي المروي عن شاهدي عيان رحلوا دون تحر أو تدقيق.

وحتى لا تصدق عليَّ قولة الإمام «البوصيري»، رضي الله عنه، في بردته :

«أمرتــك الخير، لكن مـــا ائتمرت بــه
ومــا استقمت، فمــا قــولي لــك استقم ؟»

فإنني سأحاول هنا تسجيل بعض ذكرياتي **عن أول احتفال بعيد العرش المجيد**، بمدينة فاس وعن المراحل التي سبقته.

### كتلة العمل الوطني

كان أول ما انطبع في ذهني كفتى يافع يدرس بجامعة (القرويين)، تسمية سحرية غامضة المدلول، ولكنها قوية المفعول، هي (كتلة العمل الوطني).. وبدأت أفهم معنى هذه التسمية رويدا رويداً...

فبعد أن توقفت المقاومة المسلحة في أغلب مناطق المغرب، كان على القيادة الفكرية والروحية للبلاد أن تجتمع سرا لوضع الخطوط العريضة لمخطط جديد لمقاومة الاحتلال، تتناسب ومستجدات العصر والأوضاع داخل البلاد، وفي المحافل الدولية.

فكانت (كتلة العمل الوطني) التي بدأت بتنظيم القوى الحية والفاعلة في البلاد، وتوعيتها، وتعبئتها، وتجنيدها للكفاح الوطني، والعصيان المدني، حين تزف ساعة القيام، داخل الحواضر الكبرى، بدءا (بفاس).

وتأتي أهمية (فاس) هنا، لا من كونها العاصمة الثقافية والروحية للبلاد، فقط، بل لوجود (جامعة القرويين) بها. هذه الجامعة التي كانت قبلة الطبقة الواعية من جميع أنحاء المملكة، كانت أصلح بوتقة لصهر المشاعر الوطنية، وتوحيدها لدى جميع الطبقات والعناصر المغربية، مهما اختلفت مناطق سكناها، وعاداتها، ولهجاتها، لإذابة الفروق بينها، وقطع الطريق على الدس الاستعماري الرهيب، الذي كان يبيت لبلادنا التفرقة والشتات، ليضمن لوجوده البقاء الأبدي.

واتخذت (كتلة العمل الوطني) مدينة (فاس) حقلاً لتجربتها التي أثبتت الأحداث والنتائج، فيما بعد، صلاحيتها وفعاليتها، فعممت في جميع أنحاء المملكة، بما فيها المنطقة الشمالية التي كانت تدعى يومئذ (بالمنطقة الخليفية)، وكانت تحت حماية (إسبانيا).

فكان أول ما أنجزته (كتلة العمل الوطني) هو تنظيم (جامعة القرويين) في عدة خلايا، وعلى رأسها خلية ارتباط وتنسيق مع (كتلة العمل الوطني).

ونظراً لأن (القرويين) كانت مركز الإشعاع الديني، والفكري، والوطني، ولأنها كانت تضم طلبة من جميع أنحاء

المغرب، كانوا جميعاً منخرطين في هذه الخلايا، فقد كانت شبيهة ببرلمان مغربي، تم انتقاء أعضائه وانتخابهم بطريقة الاختيار الطبيعي أو (البقاء للأصلح)، بحيث لم يكن يلتحق (بالقرويين) من أطراف المملكة إلا المتفوقون في مناطقهم أو مدنهم وقراهم.

وفي هذا البرلمان التلقائي، كان هؤلاء يتدارسون قضايا البلاد، ويتتبعون ما كان يقع في دول المشرق التي كانت قد سبقتنا إلى محنة الاستعمار من أحداث، ومن تنظيمات وطنية لمقاومة الاحتلالين : الإنجليزي والفرنسي.

وتأتي أهمية (فاس) و (جامعة القرويين)، كذلك، من أن هؤلاء الطلبة كانوا ينتشرون في جميع أنحاء المملكة، أيام العطل، فيكونون رُسلاً، ودعاة، يبشرون بالرسالة الوطنية التي وعوها، واستوعبوها في جامعتهم العتيدة، بين إخوانهم وأصدقائهم، في مدنهم وقراهم، ممّن لم يسعفهم الحظ بالانتماء إلى (القرويين).

## تجمعات وطنية مقنعة

وكانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية لاتسمح بالتجمعات إلا في مناسبات بعيدة عن السياسة، كالتجمعات الدينية. فكنا نظهر قوة التنظيمات الوطنية إما بمناسبة عيد المولد النبوي، أو ذكرى الهجرة، حيث كانت تأتي أعداد المجلات المشرقية الممتازة، مليئة بالمقالات الطنانة، والقصائد الرائعة لفحول الكتاب والشعراء، وكلها كانت تثير فينا الحمية الوطنية، وتذكرنا بروح الجهاد الإسلامية العالية التي أدرك بها المسلمون ما أدركوه من شأو بعيد.

كما كانت (الكتلة) تستغل حفلات التأبين، لإذكاء الحماس الوطني ونشر الوعي، مثل حفل تأبين الشاعر العلامة (مولاي أحمد البلغيثي)، والعلامة المصلح (السيد عبد الرحمان ابن القرشي)، وأمير الشعراء (أحمد شوقي).

وكذلك الاحتفال بالذكرى الألفية للشاعر العربي العظيم (أبي الطيب المتنبي).

ولم تكن سلطات الحماية تجد سبيلاً لمنع هذه التظاهرات ذات الصبغة الدينية، والإنسانية، والثقافية، وكانت (الكتلة) لا تقصد وراء تلك الاحتفالات إلا نشر الوعي وتعميقه، وإظهار قدرتها على التنظيم والتوجيه.

## أول احتفال بعيد العرش

واهتدت (كتلة العمل الوطني)، كذلك، إلى خلق مناسبة عظيمة، لإشاعة الوعي الوطني بين جميع طبقات الشعب على مرأى ومسمع من السلطات الاستعمارية، **وهي الاحتفال بعيد العرش**.

وجرى أول احتفال بهذه الذكرى الغالية في (فاس) سنة 1933، إن لم تخني الذاكرة.

وظل ذلك الاحتفال من الصور الحماسية الرائعة التي ما تزال عالقة بذهني، والتي تدل على ذكاء رجال التخطيط في (كتلة العمل الوطني).

فقد جاءنا ذات يوم ضابط الاتصال والتنسيق بين الخلايا، و (الكتلة)، وأخبرنا بأن (جريدة عمل الشعب) ستقيم حفلة بمقهى (النابة) بـ (جنان السبيل)، وأن الطلبة مدعوون لحضورها.

وأية أمنية كانت عند الطلبة، في ذلك الوقت، أغلى من الحصول على مجلة (الرسالة) المصرية، والذهاب إلى (جنان السبيل) وشرب مرطب، والاستماع إلى أغاني الشرق الجميلة ؟.

وذهبنا إلى (جنان السبيل)، ففوجئنا بأن المقهى كان غاصاً بالقادة الوطنيين، الذين كانت تحيط بهم هالات نورانية من الإعجاب والتقديس، وكذلك بطلبة (القرويين)، و (كوليج مولاي إدريس).

وكان من بين القادة الحاضرين الأستاذ الشهيد الشاعر (محمد القري). وكانت الحاجة ماسة إلى شعار ما، أو نشيد يردده الحاضرون يعبر عن الشعور الجماعي، ويقوي أواصر الانتماء الوطني بينهم، ويبرز المطلب الأعلى للأمة، في كلمات بسيطة واضحة. فتوجه الحاضرون إلى الشاعر (القري)، وطلبوا منه نظم نشيد للمناسبة، فقال في شبه ارتجال :

مليك البلاد عليك الأمل

يعلقه الشعب بعد العمل

فحقق لـــه فيـــك مـــا يرتجي
يحقق لـــك اللـــه كـل أمـل

ولحن المجاهد (مولاي علي الإدريسي) رحمه الله، النشيد بنفس السرعة التي نظمه بها الشاعر، وكأن عزيمة الجماهير الحاضرة تقمصتها. ولم تمض إلا لحظات حتى ارتفعت به الأصوات إلى السماء، وتجاوبت معه الأرجاء، وانسجمت ألحانه مع أنين النواعير، وخرير المياه، وزقزقات العصافير، وساد جو من الرهبة والخشوع، حتى كأن الأرض ارتفعت إلى السماء، أو السماء عانقت الأرض...

**فكان ذلك أول احتفال بعيد العرش، تنظمه (كتلة العمل الوطني)، وأول نشيد يغنى بهذه المناسبة الخالدة.**

وبهتت السلطات الاستعمارية، ووقفت مشدوهة أمام هذا الحدث الضخم الجديد الذي تفتقت عنه عبقرية الوطنيين، بالاتفاق مع ملكهم، وقائدهم، (محمد الخامس) رضي الله عنه. فلم تكن قد عملت له حساباً، ولا هيأت لإحباطه أسباباً.

فهل ستمنع الشعب من الاحتفال بعيد عرش ملكه ؟ وهي التي تدعي أنها باسمه تحكم، وباسمه تدير ؟.

أم هل تترك الحبل على غاربه للوطنيين، ينفردون به، ويصولون ويجولون كما يشاؤون ؟.

كلا. إنها أدهى من ذلك.

فقد عمدت في السنة التالية إلى استصدار ظهير به، وإعلانه عيداً رسمياً، لتفرغه من محتواه، ولتجرده من معانيه الجهادية السامية التي أرادتها له الحركة الوطنية.

ولكن عبقرية الملك كانت أعظم، وتنظيم الحركة الوطنية كان أسلم. وأصبح الاحتفال بعيد العرش منارة يهتدى بها، ومناسبة لإثارة المشاعر، وإثراء العواطف، وأصبح همُّ القادة الوطنيين أن يعملوا ليل نهار حتى تكون تظاهرة كل سنة أحسن من سابقتها. وأصبح عيد العرش «سوق عكاظ» جديداً تقصّد فيه القصائد، وتغنى فيه الأناشيد الوطنية، ويتبارى الكتاب في كتابة أجمل المقالات وأقواها، ويتنافس شعراء الزجل والملحون في نظم الأغاني والأمداح...

وأصبحت الخلايا الوطنية تعمل على إبراز حنكتها التنظيمية بهذه المناسبة، فكانت الأسواق، والشوارع التجارية، ودكاكين الحرفيين تتبارى في ابتكار وإظهار معالم الزينة، وكان كل مغربي يحتفل على طريقته، ويدعو المارة لمشاركته فرحته بشرب شايه، وأكل حلواه أو الإنصات إلى أغنيته، أو عزفه، أو التفرج على رقصه.

وقبل العيد المجيد بأيام، كان الناس يبدأون في التخمين والتنبؤ بما سيقوله صاحب الجلالة في خطاب العرش. يا ترى، ما هي المواضيع التي سيتطرق إليها خطاب العرش ؟ وبأي أسلوب ؟ وكم سيخصص لها من كلمةأوسطر ؟

إلى غير ذلك من التساؤلات الدالة على غاية الاهتمام والانشغال.

ويأتي اليوم الموعود... وفجأة تصمت الأمة بأسرها، ويلتصق كل مواطن بجهاز المذياع في منزله، أو منزل جاره،أو المقهى الذي يرتاده لينصت إلى خطاب العرش في خشوع وإجلال، وحرص شديد على فهم واستيعاب مراميه القريبة والبعيدة، والظاهرة والخفية.

وبمجرد انتهاء الخطاب الملكي يصبح مادة للبحث والتحليل والشرح والتأويل، والمناقشة والمناظرة، ويلخص ليلقن في الخلايا والمدارس.

كان كل عيد عرش في ضائرنا وعقولنا الباطنية، ليس مجرد مناسبة نحتفل بها، ونذكي فيها مشاعر الأمة بالرغبة في الحرية والاستقلال، بل كان عبارة عن محطة جديدة نتوقف عندها، بعد قطع مرحلة كاملة نحو تحقيق الاستقلال، لنجرد ما مر من مراحل، وما بقي منها أمامنا. فقد كان إيماننا بحتمية الاستقلال، أشبه بيقيننا ببزوغ شمس الغد.

وهكذا تبين لدهاقنة الاستعمار، أن الحركة الوطنية، والمقاومة السياسية التي أخذت تخرج من الزوايا والتكايا، والتنظيمات السرية في الثلاثينات، لم تكن مجرد حركة

سلفية بالية لم تعد قادرة على تحريك مشاعير الأجيال الصاعدة. فقد أدهشتهم ببروزها، في حلتها الجديدة، كمنظمة معاصرة، لها برنامج عملها، وصحيفتها الناطقة باسمها، وأنها قادرة على تقمص روح العصر، ومنازلة الاستعمار في ميدان المناورة و «التكتيك».

وكان أول احتفال بعيد العرش، قد أقيم في (فاس)، ومنذ ذلك الاحتفال تبين أنه ميثاق جديد تم توقيعه بين الشعب والعرش. فكان أمل الشعب معقوداً على صاحب الجلالة، أمير المؤمنين، لقيادة شعبه على درب الحرية والاستقلال، وكانت ثقة جلالته كاملة بتعلق شعبه، ووفائه، ومسيره من ورائه إلى الغاية المنشودة.

فكان الخطباء يجعلون من هذه المناسبات فرصة للتذكير برسالة العرش، من عهد المولى إدريس الأول، إلى الوقت الراهن. يذكرون برسالته الإسلامية الغالية، ويلهبون حماس المواطنين بإحياء أمجادهم التاريخية الغابرة، وتقريبها إليهم، ويدربونهم على تحمل مسؤولياتهم يوم تأتي ساعة الفصل والحسم.

وتعبأ الشعب من أقصاه إلى أقصاه، وانتظم في جمعيات ثقافية، ونواد رياضية، وخلايا كشفية، وفرق مسرحية، كل هذا وجلالة الملك محمد الخامس، طيب الله ثراه، يرعى هذه الحركات، ويفرح لها، ويمدها بالإعانة والتوجيه.

## صحوة الاستعمار

وشعر المستعمر بخطورة هذه الحركة الوطنية، بعد أن بدأ عودها يشتد، وانخرطت في صفوفها جميع الطبقات، بحكم خلايا التوعية التي كانت تنطلق من قلب (القرويين)، وتتسرب إلى دكاكين التجار، ومعامل الحرفيين، ومنازل الأهل والأصدقاء، تحدثهم بما تمليه عليها خلية الاتصال والتنسيق مع (كتلة العمل الوطني).

وحاولت السلطات الاستعمارية القضاء عليها، فنظمت حملة قمع هنا وهناك. فكانت أحداث (المنزل) بـ (بني يازغة)، وأحداث ماء (أبي فكران)، وذلك لجس نبض الحركة الوطنية، وسبر قوتها، وربما استدراجها للمواجهة.

وحين لم تسقط الحركة الوطنية في فخ المستعمر، قرر المواجهة، حتى لا يفلت من يده زمام المبادرة، فكانت أحداث سنة 1937، حيث نفي الأستاذ (علال الفاسي)، رحمه الله، إلى (الغابون)، والأستاذ (محمد بن الحسن الوزاني)، رحمه الله، إلى أقاصي الصحراء.

## الانتصار الملغوم

وهدأت الأحوال في الظاهر. وظن المستعمر أنه انتصر. ونظمت الإدارة الفرنسية حفل استقبال رائع للمقيم العام إذ ذاك الجنرال نوجيس بمدينة فاس. حشدت له رجال القبائل، بخيامهم، وخيلهم، ورجلهم، وأصحاب الحرف بأجواقهم، وجمعياتهم الترفيهية، ونصبت الأعلام، وكانت المظاهر كلها تنبئ بأن القضية الوطنية قد صفيت، وأن الخطة القمعية قد نجحت.

وعقد اجتماع كبير بناحية (فاس) تحت رئاسة الجنرال (نوجيس) المقيم العام آنذاك. وحضره رجال الناحية والاستعلامات. وقدمت التقارير المتفائلة، والمبشرة بانتهاء الحركة الوطنية، واقتلاع جذورها. وجلس الجنرال (نوجيس) ينصت مفكراً صامتاً، فأقلق وجومه دهاقنة الإدارة. فقد كانوا ينتظرون منه كلمات الشكر والثناء على الجهود التي بذلوها، والتنويه بالهدف الذي حققوه. إلا أنه فاجأهم بقوله : «لن أدلي برأيي حتى أعرف فحوى ما كان ينشده الدباغون، ويتغنى به الخرازون».

وكان رجال الإدارة الأكفاء قد فكروا في كل الترتيبات والتفاصيل، وأعدوا الإجابات عن كل شيء، إلاّ أن هذا السؤال الذكيّ الذي لا يلقيه إلا خبير برموز ثقافات الشعوب، ومُقدِّر للقوى الكامنة في موروثها الحضاري المتجذر.

فماذا كان يقول الدباغون ؟ كانوا ينشدون بلحن خاص بهم يرقصون عليه، ويدكون الأرض بأقدامهم على إيقاعه :

«أكْـرِيـمْ الـكْـرَامْ
عَيْشْـــا بِـــالْفَرَجْ
حَـــاشَـــا يْخيبْ مَن
يْحَسْنْ ظَنُّـــه فِيـــكْ»
أما الخرازون فقد كانوا ينشدون :

«أَلْفْ يا رَبّي قْلُوبْ الاِسْلَامْ تْعُودْ مْخَاوْيَةْ
وَاهْـــزَمْ دِينَ الْكَفْرْ
لا تْشَفِّي فِينَـــا الأَعْـــدَا

فعلق (نوجيس) :
«إياكم أن تغركم المظاهر. إن هذا الشعب العريق لن ينتظر طـويـلاً حتى يحقق مطـامحـه. وإن ملكـه (محمدالخامس) يعيش آلام شعبه وهو مصم على تحقيق آماله».

## صدق النبوءة

فقد كانت الشحنة الثورية التي فجرها الاحتفال بعيد العرش ذات أبعاد متعددة.

فبالرغم من نفي الزعماء، وسجن القادة، استمر الجهاز التنظيمي القـائم على أمتن الأسس عـامـلاً صـامـداً يسير الخلايا، ويضاعف أعدادها، ويحتفل في جميع المناسبات. وتبـارت القوى الـوطنيـة في بنـاءالمـدارس، وتـأسيس الجمعيـات وأصبح المغرب معبأ ومجنداً، والميثـاق الـذي أمضي بين الملك والشعب يشق طريقه نحو الهدف المنشود.

ولم تمض إحدى عشر سنة على أول احتفـال بعيـد العرش، حتى وقف الملك والشعب صفاً واحـداً مطـالبين بالاستقلال، ولم تمر على ذلك الاحتفال ستة عشر عاماً، حتى أعلن جلالة الملك (محمد الخامس) طيب الله ثراه، عن برنامجه الوطني من مدينة (طنجة) التي دخلها منتصراً متحدياً لإرادة المستعمر الذي حاول عرقلة رحلته بمذبحة (الدار البيضاء).

ولكن رحلة (طنجة) التي أكـدت وحـدة (المغرب) وسيادته أمام جميع الدول. كانت أهم لدى الملك الشجاع من أن تثنيه عنها تلك الأحداث الدامية المفتعلة.

ولم تمض أربع وعشرون سنة على أول احتفال بعيد العرش، حتى صدق اللـه وعـده، ونصر جنـده، وحصل (المغرب) على حريته واستقلاله. وحقق (محمد الخامس) الأمل الكبير الذي عقده عليه شعبه.

## حامل الأمانة

وعندما اختاره الله إلى جواره، **وحمل الأمانة بعده ولي عهده، ووارث سره، صاحب الجلالـة، الحسن الثاني، حفظه الله، ونصره، سار على نهج والده، وأكمل رسالته، وعقد مع شعبه ميثاقاً جديداً على السير في طريق الديمـوقراطيـة، وحريـة الفكر والعمل، واستكمال الوحـدة الترابيـة، وتـوجيـه طاقات الأمة الحية إلى تنمية البلاد مادياً وروحياً، وتبويئها المقام الأسمى اللائق بها بين أمم العالم.**

واستمر الشعب في اتخاذ عيد العرش محطـة إلهـام واستلهام، وموعد لقاء حار مع عاهله في خطاب العرش الذي يجرّد فيه جلالته منجزات السنة الفارطة، ويعلن فيه عن مخطط المستقبل ومشاريعه. وظل هذا اليوم موعداً مع الأفراح والمسرات والتفاؤل والاستبشار.

وفي عهده نصره الله وأبقاه، دشن المغرب، في مدة قصيرة، مرحلـة من أزهى مراحلـه في مختلف عصوره التاريخية الطويلة الحافلة. فهو الـذي اجتاز بالمغرب إلى حضارة القرن العشرين، ودخلها من بابها الواسع.

وكان شغله الشاغل، ضمان الأمن الغذائي لشعبه. إذ بمقياسه تُحاكَم الأنظمة والإيديولوجيات، وعند الامتحان فيه تَعِزّ أو تهان. فصب اهتمامه على الفلاحة، واستصلاح الأراضي، وبنـاء السـدود، وتعميم شبكـات الري والطرق، وتحرير الفلاح الصغير بتيسير القروض، والبذور، والأسمدة والإرشاد الفلاحي، بل وحتى يحرث أرضه، وسقيها أحيانـاً، وأعلن حملة ري المليون هكتار، فنجحت نجاحاً باهراً، وشمل خيرها العديد من أبناء شعبه.

وحين انبهر بعض قادة العالم الثالث ببريق التصنيع، وانصرفوا إليه، تاركين زراعتهم، وباديتهم للضيـاع، ظل الحسن الثاني متمسكاً بخطه الذي أثبتت الأيام حكمته

وصلاحيته. وظهر ذلك جلياً، بعد أن أفلست سياسات التصنيع المفروضة من فوق، في بلاد مختلفة لا تتوفر فيها التكنولوجية، ولا الحافز البشري لنجاحه.

وأصبح المغرب جنة خضراء، وواحة غناء بين جميع دول العالم الثالث، دون أن يهمل الصناعة التي أصبحت، بفضل تشجيعاته للمبادرة الفردية والخاصة، مزدهرة في بلادنا ازدهار الفلاحة. وتكونت للمغرب قاعدة صناعية واسعة ومتعددة الجوانب، توشك أن تجعله في عداد الدول المصنعة، بشهادة خبراء دوليين، كل ذلك في صمت وتواضع جبل عليه المغاربة، وعلى رأسهم ملوكهم الشرفاء العلويون العالمون العاملون.

وحرص جلالته على أن يتمتع المواطن المغربي بكافة حقوقه المادية والمعنوية، ويعيش حراً كريماً وسعيداً في وطنه، فضمن له الحرية السياسية، والنقابية، والتعددية الحزبية، وحرية التفكير، والتعبير، والاختيار، بدستور يتجاوب ومتطلبات العصر، ويتلاءم والمستوى الاجتماعي والحضاري للبلاد.

وانعكس ذلك على (مجلس النواب) الذي أصبح يتابع أعمال الحكومة، ويراقبها، ويقترح، وينتقد، ويعدل، والذي تتمثل فيه جميع طبقات الأمة ونخبتها القيادية.

وبذلك عَوّدَ شعبه على الديموقراطية، وتعدد الآراء، وقَطَعَ الطريق على الديماغوجية والاستبداد بجميع أنواعه.

وفي عهده، أبقاه الله، أصبح شباب جيله يتبوأ أسمى المقامات في المحافل الدولية، وعلى مختلف الأصعدة، سواء منها السياسية أو الأدبية أو العلمية. ونبغ من بينهم الشاعر، والكاتب، والفنان، والفيلسوف، والباحث، والطبيب، والمهندس، والرياضي، والمخترع وغيرهم. وطبقت شهرة بعضهم الآفاق، وتنافست الشركات العالمية الكبرى على شراء حق تصنيع بعض المخترعات المغربية في مجال التيكنولوجية الدقيقة العالية، وفي مجال الطب والصيدلة، وغيرهما.

ولم يكتف الحسن الثاني، أعزه الله، بالعمل الداخلي، بل فتح المغرب على مصراعيه على العالم، وجعل المغرب قبلة، ومركز إشعاع، ومقراً لمؤتمرات القمة الدولية، والإفريقية، والعربية، والإسلامية، وتحمل جلالته شخصياً القسط الأكبر من أعباء هذه المؤتمرات، وتبنى القضايا العربية والإسلامية الكبرى، فترأس لجنة القدس، واللجنة السباعية، ورئاسة المؤتمر الإسلامي، فكان محل تقدير جميع قادة الدول، وإشادتهم، وإكبارهم.

وإذا كان للمغرب بين دول العالم رصيد معنوي عال، ومكانة مرموقة خاصة، فما ذلك إلا بفضل الحسن الثاني، وحنكته، وطول تجربته، وغزارة علمه، واتساع أفقه الجيوسياسي، وشمولية ثقافته، ودولية خبرته الستراتيجية، وتعدد أبعاده واهتماماته، بحيث يُدهِش بخبرته وإشراقاته الخبراء والمختصين في ميادين اختصاصهم.

هذه مجرد قطرات من بحر زاخر هادر، فلو أردنا تسليط الأضواء علىمنجزات الحسن الثاني، لاحتجنا إلى مجلدات ومجلدات.

ولو لم يكن أنجز في عهده الزاهر الباهر، إلا معجزة المسيرة الخضراء الخالدة، لكفاه ذلك ليبقى اسمه مكتوباً بحروف في سجلات الخلود الذهبية.

### السلسلة الذهبية

**وإنها لسلسلة ذهبية موصولة الحلقات، تمتد أصولها من عهد المولى إدريس الأول، إلى عهد الحسن الثاني، أبقاه الله وأيده.**

وإن سر استمرارية (المغرب) وقوته، وحيويته، وتجدده الدائم، ينبع من تلاحم هذا الشعب العملاق بقيادته الحكيمة الرزينة المستنيرة، فكأنهما رأس وجسد لا يمكن فصلهما، ولا حياة لأحدهما بدون الآخر.

بهذا الالتحام العضوي والروحي حقق (المغرب) آماله، وسيبقى قادراً على أن يحفظ لهذه البلاد عظمتها، وكرامتها، ومجدها، ما دام ذلك الالتحام، وما دمنا متمسكين بالمبادئ السامية، والأسس المتينة التي قام عليها كيان (المغرب)، وهي : الإيمان بالله، والتمسك بشريعته، والاهتداء بهدى السنة والكتاب.

# فلسفة الرّعاية والتشجيع كما يطبّقها جلالة الحسن الثاني

الأستاذ الشيخ محمد المكي الناصري

**التشجيع وآثاره النفسية والاجتماعية**

**تحليل وتعليل لفلسفة الحسن الثاني :**

متى نظرنا إلى الإنسان بصفته كائنا حيا، وجدناه مدفوعا إلى القيام بحركة ونشاط لا يفتر عنهما في جميع مراحل حياته،

ومتى بحثنا بحثا عميقا عن الدوافع التي تدفعه إلى الحركة والنشاط وجدنا أن تلك الدوافع لا تتجاوز ثلاثة أنواع :

1) دوافع غريزية وآلية أودعها الله في فطرة الإنسان، وطبعه عليها منذ نشأته، ويشاركه فيها قسم مهم من الحيوان.

2) ودوافع نفسية ذاتية اختيارية منبثقة عما ميز الله به الإنسان من عقل وإرادة وذكاء.

3) ودوافع إضافية طارئة على الإنسان من الخارج، تحاول التدخل في حياته، وتوجيه سلوكه، حتى يكون سلوكه ملائما لما حوله.

فالنوع الأول من الدوافع تمثله الغرائز والنزعات الفطرية العامة..

والنوع الثاني يمثله الاختيار الشخصي والإرادة الذاتية.

والنوع الثالث يشمل ما عدا ذلك من مؤثرات البيئة والمجتمع، التي يقع الإنسان تحت تأثيرها بحكم التربية والمعايشة، والتفاعل الاجتماعي المستمر.

وواضح أن الدوافع الغريزية التي هي المحركات الأولى للسلوك يلتقي فيها الصغير والكبير، والأمي والمثقف، والمتقدم والمتخلف،وهي بطبيعتها لا تفرز عند الجميع إلا نشاطاً عاديا آليا أو شبه آلي، قلما يرتقي إلى المستوى الرفيع، وفي نطاقها الضيق المحدود يظل الناس جميعا تقريبا في مستوى واحد، فلا يتفوق بعضهم على بعض على بعض بأي شيء ممتاز ومحمود، بل كلما بقي الإنسان أسيرألغرائزه بقي في مستوى قريب من مستوى الحيوان.

غير أن ما في الإنسان من طموح خاص، وميل إلى النمو والكمال، ورغبة في التفوق، وحرص على نيل التقدير من الغير، لا يجعله مطمئنا إلى هذا الوضع المحدود، الذي يتسم بالقصور والنقصان، ولذلك يحاول أن يشق طريقه إلى الحياة، فيندفع لترضية حاجاته، واستعمال طاقاته، ويرسم لنفسه غاية معينة يسعى شيئا فشيئا إلى تحقيقها، ويحدد لحياته رسالة يعمل كل يوم على توسيع نطاقها وتعميقها، مسترشدا بدوافعه الذاتية، ومستعينا بالدوافع

الاجتماعية، وبهذه الطريقة يحقق الإنسان وجوده الخاص، ويؤكد إنسانيته، ويستعمل عقله وإرادته، ومتى أقبل كل فرد فرد على إثبات ذاته، وعمل على استثمار طاقاته، تحول المجتمع من مجتمع يطبعه الركود والتقاعس، إلى مجتمع يحرك عجلته السباق والتنافس، وأصبح المجتمع مجتمع سباق إنساني، وتنافس عمراني، وذلك هو المجتمع المثالي المتطور، الذي يمضي قُدُما إلى الأمام، وهذا هو المجتمع الذي يعمل جلالة الملك الحسن الثاني ليل نهار على إنشائه منذ اعتلائه على عرش أجداده الميامين.

إن المجتمع المثالي هو الذي ينتفع بجميع الإمكانات، ويسخر في سبيل تقدمه وازدهاره جميع الطاقات، ولا يتحقق له ذلك :

**أولا :** إلا إذا انطلق فيه كل فرد على سجيته، إلى أن يبلغ أقصى ما يستطيع من الخبرة والمهارة حسب طاقته وقدرته، ولا يتم له ذلك :

**ثانيا :** إلا إذا وضع المجتمع كل واحد من أفراده في الموضع الصالح له، وكلفه بالعمل المناسب له، ولا يكمل له ذلك :

**ثالثا :** إلا إذا أصبح كل فرد من أفراده العاملين يشعر بغبطة العيش وهناء البال والثقة بالنفس، على اعتبار أن كيانه الخاص جزء لا يتجزء من كيان المجتمع، وأن عمله الخاص جزء لا يتجزء من الرسالة العامة للمجتمع، وأن اللبنة التي وضعها بيده تخوله شرف الانتماء إلى «بناة صرح المجتمع»، وبذلك لا يبقى بين أفراد المجتمع من هو مهمل أو موضوع على الهامش لا ينتفع به، ويصبح المجتمع متضامنا كل التضامن، لكل مستوى من مستوياته مكانه الخاص في العمل، ومكانته الخاصة في المجتمع.

وإذا كان أفراد المجتمع يستفيدون من هذا الوضع السليم، فإن المجتمع في عمومه يستفيد منه أضعاف ما يستفيده كل فرد على حدة، إذ أن المصلحة العليا للمجتمع، وقوته المادية والأدبية بالنسبة للداخل والخارج تتوقفان إلى حد كبير على ما يتوفر عليه المجتمع كما وكيفا من كفايات وعبقريات، وعلى ما يزخر به ويستثمره لخير الجميع من سواعد وطاقات في جميع المجالات، ولذلك كان من الخير الكبير للمجتمع إثارة روح المنافسة الكامنة عند كل فرد من أعضائه، وتوجيهها التوجيه اللائق، حتى يلتحق المتأخر بالمتقدم، والمتردد بالمقدام، والكسول والمهمل بالنشيط والمجد، والمتفرج من بعيد بمن يقف في صميم المعركة.

ذلك أن إذكاء روح المنافسة بين الأقران يثير الحماس، ويحرك الهمم، ويشحذ العقول، ويحفز على النشاط المنظم الواعي، ويضع أمام المتنافسين مستويات معينة ومهارات محددة، مما يتوقف عليه المجتمع، رغبة في أن يحاول كل منهم بلوغها والوصول إليها، وتتاح له الفرصة، لتذوق لذة النجاح، والاستمتاع بمتعة التفوق.

واقتناعا من المجتمع بفائدة السباق والتنافس للحصول على أكثر ما يمكن من المؤهلات والمهارات، وأفضل ما يمكن من الخدمات، ابتكر المجتمع عدة وسائل مثيرة ومغرية، وطبقها في مختلف المجالات، وفي طليعة تلك الوسائل «**الأوسمة**» على اختلاف أنواعها، ما بين عسكرية ومدنية ووطنية، وثقافية، و «**الألقاب**» العلمية والإدارية والعسكرية، و «**الجوائز**» ذات الطابع الثقافي والطابع الرياضي والطابع الإداري والطابع الزراعي والطابع الصناعي، و «**المنح**» الدراسية لعموم الطلبة، و «**المساعدات المالية**» السنوية لمختلف الجمعيات الثقافية والرياضية والمؤسسات الاجتماعية، و «**المباريات الرياضية**» للفوز بالكؤوس والبطولات، و «**المباريات الدراسية**» والجامعية والإدارية، للحصول على مقعد للدراسة أو التدريس، أو الحصول على منصب داخل الإدارة، والتنقيط الإداري والساعات الإضافية في المصالح الإدارية، والدرجات المدرسية وألواح الشرف في المدارس الابتدائية والثانوية، إلى غير ذلك من الوسائل والشارات والشعارات، التي لا يفوز بها ولا يتمتع بالحصول عليها إلا المجدون المجتهدون، والأكفاء المقتدرون.

ومما ينزل بردا وسلاما على صدور فضلاء الأمة، ويقع في قلوبهم أجمل وقع، ما يخلعه الرأي العام على أسمائهم وأشخاصهم من خلع التكريم والتقدير بصفة تلقائية،

تنويها بأعمالهم الصالحة، وأخلاقهم الفاضلة، ففي ذلك متعة نفسية وروحية لا تعدلها متعة أخرى.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال عليه السلام «من صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين.

على أن هذه الوسائل مجتمعة لا تحقق الهدف المقصود منها إلا إذا كان عامل التشجيع الطبيعي والتلقائي يسبقها ويرافقها ويلحقها دائما وباستمرار، وإلا إذا كان جميع أعضاء المجتمع يمارسونه داخل المدارس والجامعات، والإدارات والثكنات، والمصانع والمزارع، وفي مختلف القطاعات العامة والخاصة.

والتشجيع الطبيعي والتلقائي، المنبثق عن الشعور الإنساني النبيل، والتربية الاجتماعية المثالية ـ يعني في جملة ما يعنيه قبل كل شيء، احترام إنسانية المواطنين، والامتناع عن إهانتهم وتحقيرهم، وعدم المس بكرامتهم أو التعسف في معاملتهم، صغارا كانوا أو كبارا، ثم إشعارهم بحرارة العطف وصادق الرعاية، واعتبارهم أهلا للاهتمام والعناية، وأخيراً ببذل العون لهم ـ دون منٍّ ولا أذى ـ بالمساعدة والتوجيه، والتكليف بالمسؤولية التي تناسب مستواهم، حتى يتمكنوا من تنمية مواهبهم، وإنجاز مهامهم على أحسن وجه ممكن، وحتى يضيفوا للمجتمع رصيدا جديدا من الملكات الممتازة، والمواهب المصقولة، يزيده قوة ومناعة وتفوقا.

وبديهي أن الفرد لا يبلغ ما قدر له من النمو إلا في نطاق المجتمع ومع المجتمع، لكن بشرط أن يكون «العنصر الإنساني» في علاقات أفراده بعضهم مع بعض هو العنصر البارز الذي تدور حول محوره جميع تلك العلاقات، قال عليه السلام : «الكلمة الطيبة صدقة» وقال عليه السلام مخاطبا لعائشة رضي الله عنها : «عليكِ بالرفق، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

رواه مسلم والبخاري في الأدب المفرد.

ومجمل القول أن المسيرين للقطاع الخاص والقطاع العام إذا كانوا يعاملون من تحت أيديهم بالحسنى والرفق والإنسانية، ويوجهونهم ويشجعونهم على تحقيق الغايات النافعة والمرامي السامية، ويضعون بأيديهم «المفتاح السحري» الذي يمكنهم من اختراق آفاق مشرقة جديدة، واكتشاف أسرار نافعة ومفيدة، ويسلمون لهم المشعل المنير الذي يضيء لهم الطريق، ويجعلهم يقطعون مراحل النمو والتطور والتقدم، عن بينة وعلى بصيرة، ليواصلوا المسيرة في خدمة أمتهم ودولتهم آمنين مطمئنين، يعطون بذلك الدليل القاطع على أنهم «حراس الملة» الرحماء الأتقياء، «وخدام الأمة» المخلصون الأوفياء، «وولاة الدولة» الأصفياء الأمناء، بحسن توجيههم تزدهر العلوم والفنون والصناعات، وتنشط المرافق العامة والإدارات. وبحسن معاملتهم تلتحم جميع الفآت والطبقات، وتتخطى جميع العقبات، وتتغلب على كافة الأزمات، وبذلك تتم تعبئة الشعب تعبئة عامة شاملة، ويتم النصر في المعركة الفاصلة، **تحت رعاية «مربي الأمة» و «رئيس الدولة» أمير المؤمنين الحسن الثاني الذي لنا في رعايته وتشجيعه أكبر قدوة، وأجمل أسوة**، شعار الجميع : حي على الجهاد، حي على العمل، دون تحفظ ولا ملل، ولا تردد ولا خلل، قال تعالى : **﴿إن هذا لهو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون﴾** الصافات.

وقال تعالى : **﴿إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**، المطففين 21 ـ 26.

على هامش سفارة أشعاش

# مشاهدات دبلوماسي مغربي في فرنسا

## عام 1845/1846

## في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام

(القسم الأول)

الأستاذ محمد العربي الخطابي

في عام 1261 هـ (1845م) أوفد السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام سفارة إلى باريس برئاسة السيد عبد القادر بن محمد أشعاش عامله على تطوان، وعضوية الأمين السيد محمد بن محمد اللبادي والأمين السيد العربي بن عبد الكريم العطار، والفقيه السيد محمد بن عبد القادر الصفار الذي رافق الوفد بوصفه كاتبا[1]، وكل هؤلاء من بيوتات تطوان العريقة النابهة، وما يزال لهم أحفاد بها إلى الآن.

وكان عاهل فرنسا إذ ذاك هو لوي فليب الأول Louis Philippe Ier، من بيت دورليان (D'Orléans) الذي اعتلى عرش فرنسا عام 1830 وخلع عام 1848.

وليس غرضنا الآن البحث في المهمة الدبلوماسية التي كلف بها هذا الوفد الذي حمل معه خطابا من عاهل المملكة إلى ملك الفرنسيين، واستقبل بما يليق به من حفاوة وإكرام، وأدى رسالته على أحسن وجه، بل مقصودنا هو الكلام على الرحلة نفسها منذ أن خرج الوفد من مرسى مدينة تطوان إلى مرسيليا ومنها إلى باريس، وذلك استنادا إلى ما سجله السيد محمد الصفار، كاتب السفارة، من مشاهدات وملاحظات يندر وجود مثلها في كتب الرحلات السفارية الأخرى.

وكان الصفار شابا في مقتبل العمر، وكان فقيها يكاد يكون منقطعا في ذلك الوقت «للعدالة والفتوى وكتابة الوثائق الشرعية، وإلقاء الدروس العلمية» ـ كما وصفه أستاذنا الجليل وقدوتنا المرحوم السيد محمد داود[2].

والصفار هذا هو الذي أصبح فيما بعد عاملا على فاس ثم وزيراً خدم ثلاثة من ملوك الدولة العلوية الشريفة :

مولاي عبد الرحمن بن هشام (1231 ـ 1276 هـ / 1816 ـ 1859م).

وسيدي محمد بن عبد الرحمن (1276 ـ 1290 هـ / 1859 ـ 1873م).

ومولاي الحسن الأول (1290 ـ 1311 هـ / 1873 ـ 1894م).

وتوفي الصفار في مدينة مراكش عام 1298 هـ / 1880م، ودفن بها.

وتوجد من رحلة الصفار نسخة فريدة محفوظة بالخزانة الحسنية في القصر الملكي بالرباط (رقم 113)، وقد اطلع عليها أستاذنا محمد داود ـ رحمه الله ـ ورجح أنها بخط المؤلف وتكلم على محتوياتها وقدم منها فقرات في كتابه «تاريخ تطوان»[3].

---

1) عبد الرحمان بن زيدان، «الإتحاف» 5 : 77، ومحمد داود «تاريخ تطوان» 3 : 295.

2) المصدر السابق، 3 : 298.

3) المصدر السابق، 3 : 298 ـ 308.

وقد ألقيت على هذه الرحلة نظرة جديدة والتقطت منها ما ظهرت لي أهميته اقتداءً بأستاذنا داود وإحياءً لذكراه، وله فضل السبق في ذلك، وهو الذي لاحظ، بحق، أن الصفار لم يُعْنَ في رحلته بالكلام على المسائل السياسية والدبلوماسية المتعلقة بالمهمة التي سافر من أجلها الوفد، معللا ذلك بأن «هذا الإغفال كان سنة معهودة... لدى جميع السفراء المغربيين الذين سبقوه إلى أوربا وغيرها، ولعلهم كانوا يرون أن ذلك من الأسرار الدولية التي من واجب أمثالهم المحافظة عليها وكتمانها»[4].

وهذا تعليل في محله، لا سيما وأننا نعلم أن الصفار كتب رحلته بأمر من السلطان نفسه بعد نحو سنة فقط من إنجازها.

ومع ذلك فإن الكاتب سجل عدداً من المعلومات المتعلقة بالسياسة الداخلية الفرنسية في ميادين الاجتماع والاقتصاد والمواصلات، بل إنه عني أيضا بالحياة البرلمانية والنظام التشريعي وبالصحافة وغير ذلك، وحاول ما وسعه الجهد أن يفهم ما أتيح له مشاهدته من أشياء جديدة وأن يشرح ذلك باللفظ والرسوم كما فعل عند شرحه لطريقة عمل التلغراف والتيلفون.

لقد كان الصفار مفتّح العينين، نافذَ البصر متيقظ الضمير ذا حظ وافر من الثقافة، فلم يفته شيء من مظاهر الحضارة ودقائق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في فرنسا، ولا سيما في باريس؛ وهو بطبيعة الحال لم يصل إلى الحد الذي يجعله يتجاسر على عقد المقارنة بين المجتمع المغربي والمجتمع الفرنسي، ولكن كلامه يوحي بذلك، فهو لا يترك فرصة تمر دون أن يشيد بما يراه من محاسن ومزايا، وهو لا يتردد في الإعراب عن إعجابه بما يشاهده من دلائل النظام والتقدم والجمال في كل شيء تقع عليه عينه من موانئ وفنادق وطرق وقصور ومكتبات ومتاحف ومسارح ومدارس، بل إنه يصف بعض الحفلات التي شهدها من غير أن يصطنع الوقار الكاذب المألوف في ذلك العصر، أو أن يتكلف استنكار عادات وتقاليد تخص شعباً آخر، بل كان أميناً وموضوعياً فيما ينقله ويصفه.

وأسلوبه مرسل، وعبارته واضحة في غالب الأحيان، ولو أنه يستعمل دون تحرج بعض الكلمات العامية أو الأجنبية.

فلنمض مع هذه الرحلة الدبلوماسية الممتعة مقتصرين على ما نجده فيها من طرائف وَصْفية تنم عن ذكاء صاحبها ونفاذ بصره وحسه الاجتماعي المتفتح وقدرته على استيعاب ما تشاهده عينه لأول مرة من أشياء جديدة كانت تزخر بها أوربا في غمرة الثورة الصناعية الحديثة.

بدأت الرحلة من مرسى مدينة تطوان يوم السبت ثالث عشر ذي الحجة عام 1261 هـ (ديسمبر عام 1845)، حيث استقل الوفد الملكي المغربي باخرة وضعتها الحكومة الفرنسية رهنَ إشارته، واستغرقت الرحلة أربعة أيام من مرتيل إلى بور بندر[5] حيث رست الباخرة لتتزود بالوقود والطعام، ثم أقلعت من جديد لتشق طريقها عبر «غلف ليون» كما سماه الكاتب، و«غلف» - كما هو واضح - تعريب لكلمة Golfe بالفرنسية - أي خليج - ووصلت الباخرة إلى مرسيليا صبيحة يوم الجمعة تاسع عشر ذي الحجة.

وعن مرسى بندر رسم لنا الصفار صورةً تنم عن إحساسه الحي بالتجهيز المتقن والنظام البديع فقال :

«وهي مرسى صغيرة، لكنها لإتقانها وإحكام صنعتها وحسن مدخلها وبناء شواطئها تلحق أو تفوق المراسي الكبيرة، ليس فيها رياح... فيسير المركب في داخلها كأنه في وسط صهريج، يبقى سائراً حتى يلتصق بالشاطئ ويربط حباله في أقراص غليظة من الحديد مسمرة في الحجارة العظيمة التي بُني بها الشاطئ المذكور، وعلى باب هذه المرسى أبراجٌ للمدافع ومنارات عظيمة عالية على جبال هناك تضئ بالليل ليُهتَدَى بها إلى المرسى... وعلى

---

4) المصدر السابق، 3 : 298.

5) مرتيل هو مرسى تطوان القديم، أما بوربندر Port Vendres فهو ميناء فرنسي يقع على مقربة من الحدود الإسبانية في مقاطعة لانكدوك على مدخل خليج ليون.

هذه المرسى قرية صغيرة تسمى بالاسم المتقدم... فيها ديار وحوانيت تباع فيها المأكولات، وعليها كثير من بساتين العنب».

☆ ☆ ☆

كان الاستقبال الرسمي في مرسليا حافلا، فقد صعد شيخ المدينة إلى ظهر الباخرة لتحية الوفد السلطاني، وأظهر له كثيراً، من «الإعزاز والإكرام والتوقير». وعند نزول الوفد دوت طلقات المدافع واصطف حرس الشرف من الراجلين والفرسان لتحية السفير السلطاني، وبعد هذه المراسيم ركب الوفد «أكداشا»[6] منتخبة تجرها الخيل المسومة انطلقت به إلى الدار التي خصصت لإقامته.

وفي اليوم التالي ـ الأحد ـ أزمع الموكب السفر إلى باريس. وهنا يبدأ الكاتب في إعطاء طائفة من المعلومات عن أشياء لفتت نظره واستحسنها، وهي متعلقة في الجملة بوسائل المواصلات وحالة الطرق ونظام الفنادق، وفيما يلي فقرات منها بأسلوب المؤلف :

ـ «قانون[7] السفر في هذه البلاد أن المسافر لا يحمل معه زاداً ولا فراشاً ولا خزانة... وإنما يحتفظ بدراهمه وذهبه. فبذاك يبلغ المنى من كل آماله، وذلك أن هذه الطريق كلها أو جلها عمران، فلا يفارق المار عمارةً حتى يدخل في أخرى. وكلما وصل عمارة وجد فيها أسواقا يباع فيها من كل شيء يحتاجه المسافر، وفيها دار أو ديار تسمى عندهم «اللوكندة» وتسمى «البوصاضة»[8] والفرق بينهما أنه إن كان فيها موضع الثواء والطعام فهي الثانية، وإن كان فيها موضع الثواء فقط وكل واحد يأتي بطعامه من السوق، فهي الأولى. وهي دار كبيرة ذات بيوت كثيرة في فوقيها، وكل البيوت لها طاقات (أي نوافذ) كبار على قدر قامة الإنسان أو أكثر تشرف على ما تحتها من الشوارع والأسواق، وكل بيت فيه فراش واحد أو أكثر... بغطائه ووطائه وستوره، والكل في غاية النظافة واللين، وقد تكون أرضه مفروشة بالزرابي الجيدة يطأها الداخل بنعله، إذ ليس من عادتهم خلع النعال إلا إن دخل (أحدهم) فراش النوم، وكل طاقات البيت عليها ستور من الحرير أو غيره، وفيه عدة من الشوالي (الكراسي) للجلوس، ولا يعرفون الجلوس بالأرض أصلا... وفي وسطه طبلة (مائدة) من رفيع الخشب أو المرمر معدة للكتابة عليها أو نشر الكتاب إن كان... وفيه خزانة من العود الجيد يشرق كأنه المرآة... ومن لازم كل فراش خزانة صغيرة عند رجليه بداخلها إناء نظيف للبول. وفي غالب البيوت مكانة (ساعة حائط) كبيرة وثريات وحسك للشموع ومرآة كبيرة... ومن لازم كل بيت غراريف مملوءة بالماء كل واحد منزل في وسط إناء واسع ومعه فوبطات صغار نقية مطوية... وفي غالب البيوت تصاوير وتماثيل من البلدان والأشجار وأشخاص الحيوانات والسفن والبحار... ولهم بها اعتناء كبير فلا يخلو منها محل... ومن لازم كل بيت كانون صغير مبني بالرخام ونحوه على شكل لطيف توقد فيه النار بالحطب زمن البرد وعليه مدخنة نافذة للهواء فلا يتأثر البيت بالدخان أصلا لإحكام تلك المدخنة... ويكون في البيت أيضا الدواة والقلم وسائر آلات الكتابة، وهذا الذي ذكر هو أثاث بيوتهم كلها وإن اختلفت أوصافه بالجودة أو ضدها باعتبار الغنى والفقر».

«... وإنما السفر هناك (في فرنسا) في الأكداش والكراريص والخيل تجرها؛ وهي على أشكال وأنواع... والحاصل أن المطر لا يمنع من السفر في هذه البلاد لأنه لا يصيب المسافر ولا أمتعته منه شيء...».

«... فالطريق عندهم كأنه سطح بيت لا يوجد فيها خضخاض ولا حفر ولا شوك ولا حجر... ومهما انثلم فيها (من الطرق) شيء بادروا بإصلاحه، فلا يغفلون عن تعاهدها، وفي طريقنا هذه، ما مررنا على موضع منها إلا وجدنا

---

6) يقصد بالأكداش العربات ـ كما هو واضح ـ ومفردها عنده كُدْشي. وهو تعريب للكلمة الاسبانية : Coche.

7) يقصد بالقانون : التدبير والتنظيم.

8) اللوكانده (Locanda) والبوصاضة (Posada) كلمتان إسبانيتان ومعناها فندق ونزل.

بجانبي الطريق أكداسا من الحجر يمينا وشمالا أعدت هناك لإصلاحها... وجل حافاتها في كثير من المواضع مفروس بالأشجار العظام تظلل الطريق، وليس عندهم نهر ولا خندق ولا حفير ولا خليج إلا عليه قنطرة...».

«...ومن اعتنائهم أنه كلما افترق طريقان نصبوا في مفترقهما عمودا فيه لوح مكتوب فيه أين تخرج هذه وأين توصل هذه، ولهم في جوانبها رشوم بالغباري[9] للأميال فحيثما كان المسافر منها يعرف كم مضى له من محل خروجه وكم بقي له للمحل الذي يقصده».

«ثم إن السفر يتيسر في هذه البلاد ليلا ونهارا من غير مشقة ولا تعب، وذلك لما عندهم من الأمان التام فلا يخشى المسافر من لص ولا قاطع طريق... لا ترى فيهم من يحمل سلاحا قط، وإنما يحمل السلاح العسكر...».

«... وفي الطريق اصطبلات تسمى بلغتهم «البوسطة» فيها خيل كثيرة، فإذا وصلها الراكب ترك فيها ما عنده من الخيل وأخذ غيرها مستريحة... وقد تبدل علينا في ذهابنا من مرسيليا لباريز ما يزيد على ثمانمائة فرس، وكنا في ثلاثة أكداش يجرها أحد عشر فرسا...».

وبعد أن وصف الكاتب الفنادق وحالة الطرق وأنظمة السفر وصفا مفصلا انتقل للكلام على المدن التي مر بها الركب من مرسيليا إلى باريس، وكانت مشاهداته في ذلك حافزا له على أن يصدر بإنصاف حكما عاما على مظاهر العمران في فرنسا وطابع مدنها وقراها؛ يقول الصفار :

«وقد رأينا في طريقنا هذه ما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد بالاعتناء التام والتبصر العام بأمور دنياهم وإصلاح معاشهم وإتقان تدبيرهم، فهم جادون كل الجد في عمارة الأرض بالبناء والغرس وغيره لا يسلكون في ذلك طريق التساهل ولا يصحبهم فيه تغافل ولا تكاسل، فلا ترى عندهم شيئا من الأرض ضائعا أصلا، ولا ترى عندهم خرابا ولا أرضا مواتا، حتى إن التي ترابها ردئ ينقلون لها التراب الجيد من أرض أخرى، ويعطون لكل نوع من الأرض ما يستحقه، فما يصلح للحرث يحرث، وما يصلح للغرس يغرس».

إن هذه الكلمات التي أفرغها الصفار في قالب إعجاب ظاهر وصريح بما شاهده من نظام وحسن تدبير، توحي في نفس الوقت بما كان يحسه الكاتب من مرارة في نفسه وهو يقارن ذهنيا بين بلاده وبلاد الغير في غمرة القرن التاسع عشر الميلادي.

وفيما يلي لقطات أخرى من ملاحظات الصفار حول ما شاهدته عينه وهو في طريقه إلى باريس :

«... وأشجارهم كلها أو جلها مستنبتة ولو كانت في رؤوس الجبال أو بطون الأودية... حتى إنهم يغرسون الأشجار في مجاري الخنادق والسيول وحافات الأنهار، ولا تتأثر بشيء من ذلك ولا يحملها السيل، لأنهم لا يغفلون عن تعاهدها، يعالجونها كل وقت بما تستحقه من تنقية وغيرها، وليس اعتناؤهم قاصرا على الأشجار المثمرة، بل هي عندهم بالنسبة لغيرها قليلة، فغالب أشجارهم لا ثمار لها، وإنما فائدتها الظل والحطب والخشب».

«ومما عندهم من الأشجار المثمرة الزيتون بناحية مرسيليا وطولون... وشجره لا يتعاظم عندهم كما يكون بالمغرب، بل غالبه يجنيه الإنسان من الأرض، وهم يتعمدون ردعه فيبقى دائما صغيرا ليعظم حبه ويشتد غصنه؛ وزيتهم في غاية الحلاوة والصفاء... وعندهم أيضا كثير من أشجار اللوز، وخصوصا في ناحية مرسيليا».

«وغالب أشجارهم الصفصاف ونحوه... وللحطب عندهم شأن وبال، وتاجر الحطب عندهم كتاجر الذهب لما تقدم من إيقادهم النار في كل بيت أيام البرد، فتجد عندهم ساحات كبارا جدا فيها جبال من الحطب كله يابس نظيف مقطوع قطعا صغارا... ويباع عندهم بالوزن لا بالأحمال... وليس عندهم غابة مباحة للاحتطاب، بل كل واحد يحتطب من ملكه، ويغرس الأشجار في فدانه وبستانه بقصد ذلك... ولهم قوانين في قطع الأشجار، منها أن من له غابة يقسمها على مقدار ما تبلغ[10] فيه أشجارها، فإن كانت

9) الغباري : يقصد الأعداد.

10) تبلغ : يقصد أن تكمل نموّه.

تبلغ على عشر سنين فيقسمها على عشرة أجزاء، كل عام يقطع جزءا، أو على ثلاثين فثلاثين... ومنها أنه لا يقطع شجرة حتى يقف عليها من له النظر في ذلك، فإن كانت تصلح للمراكب أو نحوها طبعها بطابعه...».[11]

«... ومن جملة قوانيهم التي أسسوها وجعلوها شريعة من شرائعهم أن أرض فرنسا كلها حرم لا تهتك، ولا يتعدى أحد على ملك آخر، ومن فعل عوقب عقوبة معلومة عندهم لا شفاعة فيها... ولذلك لا تجد عندهم إنسانا ولا دابة هائمة في ملك أحد، ولو كانت أرض مرعى... مع أن ماشيتهم لا تسرح إلا نادرا، واعتمادها إنما هو على العلف...».

«ولهم اعتناء تام... بدوالي العنب، حتى إن بساتين العنب عندهم ربما كانت أكثر من أرض الحرث، وذلك لولعهم بالخمر، إذ هو من ضرورات عيشهم، ولو أريقت خمرهم لفاضت منها البحار».

«وأما الحرث فعندهم منه حظ وافر يكفيهم إن كان صالحا، وفي حوز[12] باريس محاريث جيدة، وقمح باريس في غاية البياض والصفاء».

«ومن قوانينهم في الزراعة أن ملكهم يعطي عطاء معلوما عندهم لمن ظهرت على يده مزية لم يأت بها غيره من الفلاحين ترغيبا منهم للزارعين في أن يجتهدوا...».

«ومن قوانيهم أيضا أنهم إذا جاءهم في برهم ما يكفيهم من الزرع منعوا دخول غيره من خارج بلادهم...».

«وأرضهم على الجملة ليست أرض خصب وكلإ كأرض المغرب، إنما هي أرض صلبة خشنة، ولولا دوام النبش فيها والتزبيل (أي تعهدها بالسماد) والخدمة وعدم وطء المواشي والأرجل لها لما أخرجت ما تخرجه من الثمار وغيرها».

وبعد ذلك يتكلم الكاتب على ما رآه ومر عليه من أنهار فرنسا، ولا سيما الصالحة للملاحة منها، ويلاحظ أن «مراكب الأنهار عندهم طوال ممسوحة القيعان[13] إذ ليس في النهر من العمق مثل ما في البحر، لكن ما ينقص من عمقه يزاد في طوله، سواء في ذلك النهر الكبير والصغير، لأنه وإن كان لا يمكن أن تسافر فيه المراكب لقصر عمقه فإنهم يحفرونه ويعمقونه ويعتنون بتصفية مجراه... ولا يقتصرون في الأنهار على ما انشق بنفسه بل يحدثونها ويحفرونها، فإذا كان نهران متقابلان ولا اتصال لأحدهما بالآخر، فإنهم يشقون بينهما نهرا آخر صغيرا ليتصلا... وغالب حافات الأنهار مبنية بأوثق بناء وأتقنه، وإذا كان على حافاتها طريق بنوا طرفها الموالي للنهر، وربما جعلوا فيها أعمدة عظيمة من الحجارة وأجروا فوق هذه الأعمدة، ممدودا عليها، أعمدة طوالا من الخشب... لئلاّ تنهار الطريق وخوف أن تميل كروصة في حالة المشي فيحصرها الحاجز المذكور عن الوقوع في الجرف».

ويذكر الصفار من أنهار فرنسا الكبرى : **نهر الرون** «ومبدأه كما قال من ناحية ليون فيدخلها ويلتقي معه فيها نهر آخر يسمى **لاصون**، ثم يخرج منها شرقا إلى أن يخلص للبحر الصغير غربي مرسيليا، ويتصل به في طريقه أنهار أخرى، فكلما زاد اتسع مجراه وكثر ماؤه... وعلى شاطئيه فيما بين ليون ومرسيليا بلدان كثيرة وقناطر ضخام مشيدة على أشكال مختلفة».

ومن الأنهار الأخرى التي ذكرها الكاتب : **نهر اللوار**.

«وهو ما بين ليون وباريس جاريا لناحية الغرب إلى أن يخلص للبحر الكبير، وأول ما رأيناه في حال ذهابنا لباريز بمدينة يقال لها الروان، ولم يغب عنا حتى جاوزنا مدينة أورليا التي هي آخر مرحلة لباريس، وعلى شاطئيه أيضا بلدان وعمارات وأراض عديدة، تسافر فيه المراكب العظام... ومنها نهر يسمى **لاسين**، وهو داخل مدينة باريس... ومصبه في البحر الكبير، فهو جار بها غربا...».

---

11) الإشارة هنا واضحة إلى نظام إدارة الغابات.

12) في حوز باريس : أي في ضواحيها.

13) يشير الكاتب هنا إلى المراكب التي يسميها الفرنسيون : Bateaux mouches.

«وغالب ما يوسق في مراكب الأنهار الأمور الثقيلة كالحجارة والخشب والفحم وآلات البناء والخضر والفواكه...».

«وفي هذه الطرق - داخل العمارة أو خارجها - الكثير من الصنائع التي يحتاج إليها المسافرون كصناع الأكداش والكراريس...».

ويذكر المؤلف عددا من المدن التي مر بها ركبهم من رسيليا إلى باريس، فيبدأ بوصف مرسيليا وصفا دقيقا من ناحية العمران والنظام الاقتصادي والاجتماعي والإداري، ومما قاله في ذلك بعد وصف مينائها التجاري :

«وبهذه المدينة ديار عالية البناء مشيدة وأسواق مزينة وحوانيت بأنواع السلع وأنفسها... وشوارعها واسعة، وللشوارع والطرق وسط وحاشيتان، فالوسط للأكداش والكراريص، والحاشيتان للرجالة، ومما يستقبح فيها أن مجاري أخباثها ونجاساتها تمر على وجه الأرض في وسط الشوارع لا يخلو منها طريق... وشوارعها كلها نافذ بعضها لبعض، فليس فيها زقاق محصور، وبها ميادين واسعة فيها صفوف من أشجار كبار يتماشى الناس فيها للاستراحة، وتلك الأشجار تظللهم أيام الحر، ومن أشهر حاراتها موضع يسمى عندهم بوزالي، به أشجار وخصص ماء، وبه ديار غالب أكابرهم وأهل الثروة منهم...».

ومن المدن الأخرى التي ذكر الصفار أن ركبهم مر بها : إكس، وأفنيون، ورنص، وفلنص، وطان، وليون، وروان، ونفير، وأورليان... ووصف الكاتب كل مدينة بما يميزها، فقال - مثلا - عن أفنيون :

«هي مدينة كبيرة لها سور دائر عليها وأبواب، وهي موسومة بالقدم... ويقال إن فيها ثلاثة وثلاثين ألف نفس، ويمر بطرفها نهر عظيم هو نهر **الرون**، وعليه هنالك القناطر المشيدة... وهي من حواضر بلادهم».

وقال عن مدينة ليون التي حل بها الوفد السلطاني في اليوم الثالث :

«مدينة كبيرة من حواضر بلاد فرنسا، وهي أكبر من مرسيليا، وهي بين الجبال، ولها أسوار حصينة، وهي دار صنعة الحرير ببلاد فرنسا... ويدخلها نهران أحدهما يسمى **الرون**... والآخر **لا صون**، ويلتقيان بداخلها فيصير نهرا واحدا عظيما... وفي هذا النهر مالا يحصى من المراكب والبابورات والفلائك، وعلى حاشيته أسواق وحوانيت مزخرفة بالسلع والأشياء الرفيعة، وحوانيت اللحم والخبز والفواكه والخضر... وعلى النهر بداخل البلد القناطر الضخام المشيدة على الأقواس والأعمدة العظام، وكل هذه القناطر عليها صفوف من الفنارات (المصابيح) من الزجاج الصافي تضيء بالليل على الطريق... وكذلك سائر طرقها وحوانيتها يكون لها بالليل منظر عجيب، ولها الكثير من العساكر والجيوش... وهي من جملة إيالات فرنسا حاكمة على غيرها بها جنرال العسكر وكبير البلد الذي يسمونه بلسانهم ألبريفي... وبها كثير من ديار الصنائع التي يسمونها الفبريكات حتى إن جل حيطانها سود من دخان المصانع، وغالب من يخدم في هذه الصنائع بهذه المدينة النساء فعليهن العمدة في ذلك، وأهلها جادون كل الجد في البناء بداخلها وزيادة العمارة بأطرافها... وهذه المدينة يكثر القصد إليها بالأسفار والسلع إذ هي من أعمر بلاد فرنسا لما اختصت به من الصنائع...».

وقال عن أورليان : (Orléans).

«هي (مدينة) كبيرة يقال إن فيها خمسة وثلاثين ألف نسمة، وفيها كنيسة عجيبة الصنعة والبناء يزعمون أنه ليس عندهم بفرنسا مثلها، وهي مبنية بالرخام، وهذه المدينة على نهر **للوار** المذكور، وعليه بداخلها قنطرة طولها نحو خمسمائة خطوة، وعرضها ما يمر فيه ثلاثة كراريس متسامتة، ولهم بها في ميدان من ميادينها قرب الكنيسة المذكورة صورة راهبة يزعمون أنها كانت عندهم في القديم، وكان أغار على بلادهم جنس آخر من النصارى فحزبت عليهم أحزابا منهم وأخرجتهم بالحرب... ورأينا عندهم صورة هذه الراهبة في كثير من المواضع».

ويشير الكاتب هنا إلى تمثال جان دارك التي لها صلة وثيقة بمدينة أورليان.

وفي مدينة أورليان - التي تبعد عن باريس بتسعين ميلا كما قال الصفار - ركب الوفد السلطاني القطار، وقد وجد الكاتب الفرصة ملائمة ليقدم لمواطنيه في كتاب

رحلته وصفا لهذه الآلة العجيبة من آلات السفر، التي سماها «طريق الحديد»، فشرح كيفية نصب السكة الحديدية واستعمالها، وأما القطار نفسه فقد ذكر أنهم «صنعوا بابورا صغيرا (أي قاطرة) ليس على شكل بابور البحر، إنما فيه الحركات (الآلات) التي تدير النواعير (العجلات) لا غير، ويركبه ثلاثة من الناس يسيرونه، ثم صنعوا أكداشا (أي عربات) متماثلة، وجعلوا لها نواعير (عجلات) تجري بها في الطريق... وقاسوا ما بين الناعورتين على عرض الطريق بحيث ينزل حرف الناعورة على السكة البارزة، وجعلوا في ظاهر حاشية الناعورة تجويفا بحيث يستحكم إنزاله على السكة البارزة ليلا تزيغ عنها يمينا أو شمالا، وهكذا كل نواعير الأكداش السائرة، وربطوا هذه الأكداش بعضها ببعض بالقناجي وسلاسل الحديد الغليظة حتى صارت صفا واحدا يتقدمها البابور (القاطرة)... والناس راكبون في هذه الأكداش...».

وبعد أن يصف المؤلف تحركات القطار ومحطاته ونظام خروجه ينتقل إلى الكلام على الشركات المساهمة ومؤسسات التمويل الحكومية ويشرح كيفية إصدار الأسهم والسندات وتداولها في الأسواق المالية، وبعد أن ينتهي من سرد هذه المعلومات الاقتصادية المفيدة التي تحرك لها فضوله يخبرنا بوصول الوفد إلى باريس وذلك «في وسط النهار من يوم الأحد الثامن والعشرين من ذي الحجة الحرام متم عام أحد وستين ومائتين وألف، موافقا الثامن والعشرين من شهر دجنبر متم عام خمسة وأربعين وثمانمائة وألف من

ميلاد عيسى عليه السلام، وكانت مدة سفرنا من مرسيليا لباريز سبعة أيام، ومن تطوان لباريز خمسة عشر يوما، ولما وصلنا نزلنا من أكداش بابور النار ورجعنا لأكداش سفرنا، وكانت لحقتنا من طريق أخرى فركبنا فيها حتى بلغنا المحل الذي أعد لنزولنا هنالك».

كما سجل المؤلف بقلمه.

### في باريس :

قبل أن يتكلم الكاتب على مشاهداته في باريس خلال إقامة الوفد فيها، مهد لذلك بنبذة عن هذه المدينة وأهميتها وعادات أهلها، فقال :

«إن هذه المدينة هي قاعدة بلاد الفرنسيس وأم حواضرهم وكرسي مملكتهم ومسكن عظمائهم ومنشأ قوانينهم وشرائعهم وعلومهم، بها يتفاخرون وفي سكناها يتنافسون وبها وبأهلها في عوائدهم وآدابهم وحضارتهم يتأسون».

«وهي مدينة عظيمة... يقال إن دورها (يعني مساحتها) ثمانية وأربعون ميلا... وهي موضوعة في التاسعة والأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي، فهي لذلك كثيرة البرد، والمواضع التي خلف الجدران الموالية لجهة الجنوب لا ترى الشمس في فصل الشتاء أبدا، على أن الشمس في هذه المدينة غريبة كل الغرابة زمن الشتاء، والغيم فيها مستمر... وهذه المدينة غاصة بأهلها... وسمعنا على لسان غير واحد من أهلها أن فيها مليونا من الناس، ولا يستغرب حسابهم لمن فيها فإن كل من ولد أو مات أو قدم إليها أو سافر منها يكتبونه ويزممونه، وهذا شغل من هو متصدر لذلك على الدوام، وكذا دأب غيرهم من سائر الروم».[14]

«ولها سور حصين مستحدث لم يكن لها في القديم، وهو يرى من خارج ولا يرى من داخل... وعلى رأس السور مواضع المدافع... وبخارج المدينة... قلعات مختلفة في غاية من التحصين يسكنها العسكر وفيها أبراج المدافع وبها يسكن الطبجية... وبها بيوت وخزنات لأنواع السلاح... وفيها اصطبلات للخيل التي تجر المدافع وآلاتها، وفي كل اصطبل خدمة كثيرون لا يفترون عن العمل في صيانة الخيل... وكل فرس مسمى باسم يخصه واسمه مكتوب في لوح صغير قبالة وجهه، ويفصلون بين كل فرس وآخر بلوحة غليظة معلقة من فوق...».

14) الإشارة هنا واضحة إلى أعمال الإحصاء وتعداد السكان من قبل السلطات المختصة.

«... وهذه المدينة يشقها نهر كبير يسمى **لا سين**، وهو جار بها من المشرق إلى المغرب، وعليه سبع عشرة قنطرة، وتلك القناطر على أشكال، فمنها ما هو مبنيّ على أقواس الحجارة، كغالب القناطر ومنها ما هو على أقواس الحديد، وبين الأقواس وسطح القنطرة دوائر عظيمة من الحديد... ومنها نوع آخر ـ وهو أعجبها ـ معلقة من فوق وليست منزلة على الأقواس كغيرها... ومنها شكل آخر من الخشب، وعلى حاشيتها من فوق ضربوز من الحديد يمنع المار من الوقوع في النهر... وكل هذه القناطر تمر عليها الكراريص والأكداش، وهذه القناطر الغريبة الشكل كلها يعطي المار عليها (قدرا من النقود) لأنها مستحدثة حتى يستوفوا ما دفع فيها ثم تصير مجانا كغيرها... وفي وسط هذا النهر جزيرة هي أصل باريز القديم ويسمونها بما معناه باريز القديمة، ولهم بهذه الجزيرة كنيسة قديمة...».

«وطرق هذه المدينة كلها مفروشة بالحجارة المنجورة في الوسط وحواشيها مسطحة... وطرقها واسعة جدا وكلها نافذة... وفيها من الأكداش والكراريص عدد كثير يقال إن فيها من ذلك نحو ثلاثة عشر ألفا، منها ثمانية آلاف للكراء وباقيها ملك لأربابها...».

«وبها أسواق كثيرة، وإن شئت قلت كلها أسواق، لأن أسواقهم كلها حوانيت، ومن عادتهم في بنائهم أن يجعلوا الطبقة السفلى الموالية للأرض حوانيت والبيوت فوقها... تجد الحوانيت متصلا بعضها ببعض... وحوانيتهم كلها على شكل واحد بزخرفتها وأبوابها وزجاجها... ومن أشهر أسواقهم وأنفسها سوق تسمى پاليرويال [Palais Royal]، وهي تربيعتان فيها ما يزيد على أربعمائة حانوت، وفي وسط السوق أشجار وفوارة ماء كبيرة، وفوق الحوانيت قصر سلطان يسمّى بهذا الإسم... وسوق أخرى... تسمى روي ممرط [Rue Montmartre] به مجمع للتجار يسمى عندهم البرصة... وسلع هذه المدينة في غاية الغلاء لكثرة غنى أهلها وجودة سلعها، فإن الفرنك عندهم هو خمس الريال بمنزلة الفلوس عندنا، والريال عندهم بمنزلة الدرهم عندنا، وهو غالب سكتهم، ومدار الحساب عندهم على الفرنك».

«وأما أشكال دورهم فإنها مخالفة لشكلنا، فإن بيوتهم ليست بالساحة والفوقي والسفلي... فإنهم يتركون ساحة الدار خارجة عنها مرفقا لها لوقوف الكراريص والدواب، وأول ما تدخل الباب تصعد في الدرج وتجد البيوت طبقة فوق طبقة حتى تنتهي إلى أعلاها... وكلها لها طاقات كبار جدا... والغالب أن يكون بإزاء الدار عرصة ولو صغيرة فيها ماء وخضرة».

«وبهذه المدينة في أسواقها قبب كهيئة السواري المجوفة معدة للبول، وببابها قضيب من الحديد قائم من الأرض له رأسان يمنع مريد البول من تلويث ثيابه... وبهذه المدينة محال يتماشى فيها الناس هي متنزه لهم، ونزهتهم إنما هي أن يأخذ الرجل بيد صاحبه أو صاحبته ويقصدون موضعا من المواضع المشهورة عندهم يتماشون فيها وهم يتحدثون... وليست نزهتهم بالأكل والشرب... ومن متنزهاتهم موضع يسمى الشمز ليزي فيه أشجار مصطفة متوازية... فإذا أورقت تلك الأشجار وتعانقت أغصانها وغردت الأطيار فوقها كان فيها منظر عجيب».

ومن متنزهات باريس التي أفاض الصفار القول فيها حديقة الحيوان الملكية، فقد وصفها بدقة وذكر ما فيها من وحوش وطيور ونباتات.

ولم يفت الكاتب وهو يتحدث عن باريس أن يلاحظ أن الرسوم التي تجبيها السلطات على السلع الداخلة إلى باريس تخصص لمصاريف بلديتها وما تحتاج إليه من نفقات لبناء المدارس والمستشفيات وصيانة الطرق والقناطر، ولا ينسى المؤلف أن يصف مصابيح الغاز التي تملأ شوارع باريس وميادينها على نسق منظم جميل، ثم ينتقل الكاتب إلى الكلام على النشاط الاجتماعي والثقافي لأهل باريس وكيف يصرفون أوقات الفراغ، فمن ذلك قوله :

«ومدار لعبهم[15] على تناشد أشعارهم والتغني بلغاتهم خصوصا المتعاشقين، فيجعلون واحدا عاشقا وأخرى معشوقة

15) يقصد المؤلف باللعب هنا التمثيل المسرحي.

ويبرزان للميدان يتناشدان ويغنيان... وإذا قصدوا في لعبهم حكاية حرب وقعت ـ مثلا ـ فيصورون السلطان وجيشه وخيلهم وأسلحتهم على ما كانت عليه وقتئذ... وقد حضرناهم مرة يلعبون بحكاية حرب وقعت بإشبيلية، فصوروا إشبيلية وصومعتها وأبوابها ومشاهير أمكنتها...».

ويعطي المؤلف بيانات مفصلة عن المسرح والمسارح الباريسية، ثم ينتقل إلى الكلام على الصحافة فيقول :

«ولأهل باريز كغيرهم من سائر الفرنسيين، بل وسائر الروم تشوف لما يتجدد من الأخبار ويحدث من الوقائع في سائر الأقطار فاتخذوا لذلك الكوازيط (الجرائد)، وهي ورقات يكتب فيها كل ما وصل إليهم علمه من الحوادث والوقائع في بلادهم أو غيرها من البلدان النائية أو القريبة، وبيان كيفيتها أن صاحب دار الكازيطة يتخذ أقواما يرسلهم لالتقاط الأخبار من كل ما يسمعونه ويرونه في ذلك اليوم من المهمات والحوادث والوقائع والنوادر وغير ذلك... ومن جملة محال التقاطهم للأخبار القمرتان : الكبيرة والصغيرة اللتان يجتمعون فيهما لتدبير قوانينهم،[16] فإذا اجتمع أهل القمرة وأخذوا في الخوض في نوازلهم ووقائعهم جلس أصحاب الكوازيط في ناحية يكتبون كل ما تكلم به فيها، فكل ما وقع الكلام عليه فيها وانبرم من الأحكام يصبح غدا في الكوزيط ويشهر لسائر الناس وليس يقدر أحد أن يمنعهم من ذلك... ولأصحاب الكوازيط مراسلات ومكاتبات مع سائر البلاد...».

«وكنا مدة إقامتنا بباريز كل يوم تأتي لصاحب الدار التي كنا فيها كازيطة جديدة من أصح كوازيطهم مكتوب في أولها أن ثمنها ستة عشر ريالا في العام، ويتعاقد صاحبها مع من شاء أن يبعثها له... وكان يقال إن صاحب هذه الكازيطة يطبع كل يوم نحو خمسة عشر ألف منها، وكل واحد (كل عدد) في ورقة طولها وعرضها نحو ذراعين مكتوبة من جهتين».

«ومن جملة قوانينهم التي أسسها لهم سلطانهم لويز الثامن عشر والتزموا اتباعها أنه لا يمنع إنسان في فرانسا من أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه بشرط ألا يضر ما في القوانين... وكان من جملة ما نقموا على ملكهم شارل العاشر... أنه أظهر النهي عن أن يظهر أحد رأيه أو أن يكتبه ويطبعه في الكازيطات إلا إذا اطلع عليه أحد من أهل الدولة فلا يظهر منها إلا ما أراد إظهاره، ويكتبون في الكوازيط اعتراضات على أهل القمرتين فيما أبدوه من القوانين».

وينتقل الصفار بعد ذلك إلى الحديث عن عادات أهل باريس وسلوكهم الاجتماعي والاقتصادي فيقول :

«ولأهل باريس حرص تام على التكسب، رجالهم ونساؤهم، لا يتقاعدون عنه ولا يتكاسلون، والنساء مثل الرجال في ذلك أو أكثر، ولا تجد أحدا منهم خاليا عن شغل، وإن كان عندهم من أنواع البطالات والفرجات العجب العجاب، لكن ذلك لا يلهيهم عن أشغالهم فيعطون لكل وقت ما يستحقه، وتلك الفرجات تعينهم على أشغالهم لما فيها من استراحة للنفس...».

«... وأغلب تكسب هؤلاء القوم التجارات والصنائع، ولهم من التجارات أمور خارجة عن البيع والشراء، منها ما يسمى بالبنكة، وهي أن يودع الرجل مقدارا من المال عند من هو متصد لذلك ويدفع له المودع عنده ربحه في كل سنة قدرا معلوما عندهم، فإذا أراد رب المال أخذ رأس ماله أخذه، (والبنوك) على نوعين : بنكة الدولة وبنكة التجار، وفائدة بنكة التجار أكثر من فائدة بنكة السلطان، لكن هذه أوثق وآمن لأن الدولة دائما موجودة لا تفلس... ومنها جمعية تسمى بما معناه الشركاء في الضمانة وهي المعروفة بالسكورو،[17] وذلك بأن تلتزم لمن يدفع لها قدرا معينا من المال كل سنة أنه إذا تلف له بيته أو حانوته أو ما فيهما بحادثة قهرية كالحريق... أو غرق له مركب في البحر أو

16) يقصد المؤلف بالقمرتين مجلس النواب ومجلس الشيوخ؛ وكلمة قمرة إسبانية : Camara، ويقابلها في الفرنسية : «Chambre».

17) السكورا كلمة إسبانية Seguro ومعناها التأمين، وبالفرنسية : Assurances.

أصابته جائحة فإنها تغرم له كل ما ضاع له... ومنها جمعية تسمى الكنبنية،[18] وهي أن جماعة من التجار أو غيرهم يجتمعون ويخرج كل واحد ما استطاع من المال ويشتركون في استخراج المعادن وتصويب الطرق وبناء القناطر وعمل القوارب والفلائك... على أن يقيموا كل ذلك بما يحتاج إليه، وما حصل فيه من المستفاد يقتسمونه على حسب رءوس أموالهم ويدفعون لبيت المال شيئا معلوما ليمكنهم من ذلك...».

«وعلم التجارة عندهم من جملة العلوم التي تدرس وتدون ولها مكاتب ومدارس، وللنساء مهارة في التجارة كالرجال أو أكثر...».

«وأهل باريس موصوفون بذكاء العقل وحدة الذهن ودقة النظر، ولا يقنعون في معرفة الأشياء بالتقليد بل يبحثون عن أصل الشيء ويستدلون عليه ويقبلون فيه ويردون، ومن اعتنائهم بذلك أنهم كلهم يعرفون القراءة والكتابة، ويدونون في الكتب كل شيء حتى الصنائع... ويجب (على الصانع) أن يبتدع في صنعته شيئا لم يسبق به، لأنه إن فعل زادت مرتبته وعلت حظوته عند دولتهم، ويعطونه على ذلك ويمدحونه ويذكرونه بما استنبط ترغيبا منهم في الترقي في الأمور... فذلك يحملهم على تدقيق النظر وإمعان التأمل واستكشاف دقائق الخفيات في سائر تصرفاتهم، ولهم مدارس ومكاتب حتى في علوم الطبخ والغرس والبناء والزراعة ومعالجة النباتات وإنتاج الحيوانات...».

«ومن طبعهم (أي أهل باريس) الخفة والطيش فتجدهم إذا اجتمعوا في موضع لا يقر لهم قرار ولا تراهم إلا بعضهم يموج في بعض، ولا يجلسون إلا في حالة الأكل، وبعد الفراغ منه يقومون... وما رأينا رجالهم يجلسون في ليالي الفرجة إلا في التياترو حين اللعب، فإذا قضيت اللعبة قاموا...».

«ومن طبعهم أنهم يحبون من كان خفيف الحركة طلق الوجه مبدي البشاشة كثير الكلام بالمباسطة أو السؤال عما ينبغي السؤال عنه، أو البحث في العلوم... والتحدث عن أحوال البلدان وعوائد أهلها، ويميلون كل الميل إلى من هذه صفته وتحصل لهم به ألفة، وإن لم تسبق بينهم وبينه معرفة وإن كان كلامه معهم بواسطة ترجمان...».

«ومن طبعهم الحدة والشراسة والأنفة فتراهم يتداعون للبراز على أدنى كلمة يلقيها أحدهم للآخر من سب أو قذف - مثلا - ولا يسع - المدعو له إلا أن يجيب، وإلا بقي يعاير بالجبن والذلة طول عمره، ويتشارطون في البراز كيف يكون وبأي سلاح يقاتلون وكيفية المحاربة ومحلها... ولا يتعرض لهم في ذلك حاكم ولا غيره».

«ولهم حظ وافر من الأدب الدنيوي والظرافة والرقة والحضارة، ويراعون الأدب في مخاطبتهم وكلامهم فلا تكاد تسمع منهم الساقط من الكلام، ولا يتعرضون للغريب عن دينهم... بسوء، ولا ينادي عليه صبيانهم ولا يؤذونه كما يسمع على غيرهم من بعض أجناس النصارى، وذلك من جملة ما يتعلمونه ويدونونه في الكتب... وقد اختصوا من بين سائر أجناس النصارى بالأدب والحضارة والمروءة الدنيوية حتى إن كبراء الأجناس يرسلون أولادهم لباريز لتعلم آداب الفرنسيين وتربيتهم...

«ومن أوصافهم أنهم أصحاب جد في بيعهم وشرائهم وسائر معاملاتهم...» ولهم اعتناء تام بالنظافة الظاهرة في بيوتهم وأزقتهم وحوانيتهم وأبدانهم وملابسهم...».

وبعد هذا يعقد الصفار فصلا طويلا خاصا بعادات الفرنسيين وآدابهم على مائدة الطعام، وبيان أنواع مآكلهم ومشاربهم، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة في ذلك إلا ذكرها حتى أدوات الأكل كالملاعق والشوكات والأكواب، وأشكال الموائد والكراسي وأنواع اللحوم والخضر والفواكه وأصناف الحلاوات التي تقدم على المائدة، وطريقة الطبخ وغير ذلك، ومن ملاحظاته في هذا الشأن قوله :

«وهؤلاء القوم لا يكترثون بادخار القوت، ولا يوجد في بيوتهم منه إلا حين الأكل... ولا يعجنون الخبز في ديارهم كما هو الحال عندنا، إذ كل ذلك في الأسواق، فإذا

18) الكنبنية أيضاً لفظة إسبانية Compañia، ومعناها الشركة.

كان أول النهار دفع رب الدار لخادمه الدراهم فيذهب ويشتري كل ما يحتاجون إليه ذلك اليوم من خبز ولحم ودجاج وسمك وخضر».

وبعد ذلك يقدم الصفار قائمة بعدد ما يذبح في مدينة باريس لاستهلاك سكانها من دواب وطيور وغير ذلك، قال إنه استقاها من إحدى الجرائد التي تصدر في العاصمة، ثم يقدم بيانات عن الأسعار الرائجة في الأسواق بالعملة الفرنسية.

**أما القسم الثاني من الكتاب،** فقد وصف فيه الصفار نشاط الوفد السلطاني في باريس مدة إقامته فيها، فذكر مراسيم الاستقبال في مقر إقامة الملك، والمآدب التي أقيمت على شرف الوفد أو دعي للمشاركة فيها، والمؤسسات التي زارها أعضاء الوفد كمتحف اللوفر وقصر فرساي والمكتبة الإمبراطورية ومدرسة العلوم الطبيعية وإدارة البرق والهاتف، وبالإضافة إلى ذلك أعطانا الصفار صورة حية جميلة عن حفلات الاستقبال التي شهدها، وما شاهده فيها من أزياء واختلاط الرجال بالنساء على موائد الطعام وأثناء الرقص، ويصف جمال نساء باريس وأناقتهن.

**وسأعرض لقطات من ذلك كله في القسم الثاني من هذا المقال ـ إن شاء الله تعالى ـ مع ما يقتضيه الحال من تعليقات وهوامش.**

**من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله**

وعرش بلادك شعبي العزيز شأنه وشأن تاجها سيان لا يختلفان، فهذا العرش العريق الثابت على تبدل الظروف والأزمان لا يحمله غير القلوب، ولا يحرص عليه ويحميه بعد الله سوى ما يكتنز في رحاب وجدان الأمة المغربية من أعلاق المحبة وذخائر الوفاء والولاء.

وإذا كانت البلاد تستمد مآثرها وأمجادها من عرشها الذي أضاء وما زال يضيء بحمد الله فصول تاريخها، فإن هذا العرش قوي مكين بما أمده الله به من قوة، وبما أودعه الله وغرسه في قلوب الشعب من حب مقصور على العرش لا يتناقص ولا يتضاءل.

# منازل الفقهاء المالكيّة المغاربة في رُبُوع الكِنانة

الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا المقال موصول بسابقين له، عن التواصل الشعبي بين مصر والمغرب في : (أولياء مصر المغاربة البركة، وفي رحاب القرآن الكريم).

ولعله موصول كذلك برؤيتي (للشخصية المغربية ومثلها القدوة، في ملحمة التحدي). من حيث يأخذ المذهب المالكي موضعه في الشخصية المغربية : عنصراً أصيلاً في منهاجها وسلوكها، وعاملاً جوهرياً من عوامل الوحدة اللغوية والفكرية والذوقية والوجدانية، والارتباط التاريخي الوثيق بين جذور (الشجرة) الراسخة في أعماق المغرب، وفروعها الباسقة.

في أرجاء مصر طولاً وعرضاً، مثوى أوليائها المغاربة القدوة، وعلى مر السنين تجدد الأجيال من بنيها العهد بأئمتها الصالحين وتحيى من سيرتهم العطرة بالنسك والورع، ومواقف نبلهم ومجاهدتهم، ما يكسر عنفوان المادية ويغض من زهو جاهها. وفي مقاماتهم وزواياهم ورُبُطهم المنبثة في أنحاء الكنانة، كانت التعبئة المعنوية والروحية لجهاد الغزاة القراصنة من كل جنس وملة، وفي الرحاب الطاهرة كان دعاء الأفراد والجماعات، في المحن والكروب، مرجو الاستجابة من الله عزوجل.

كما عمرت الديار المصرية، على مر الأجيال، بأئمة من القراء وعلماء القرآن المغاربة، وصلوا ما بين مصر والمغرب في رحاب القرآن الكريم...

غني عن البيان أن الذين نزلوا بمصر من المغاربة الأولياء البركة والقراء والشيوخ وعلماء القراءات والقرآن، كانوا عدا قلة نادرة، على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

والتواصل الشعبي الاجتماعي، كما أشرت في المدخل إلى هذه الدراسة، لا يتم ولا يتحقق دون تواصل فقهي

وثيق. والفقهاء هم حجة الله تعالى على خلقه، ومن ورثة أنبيائه فيهم، ومرجعهم فيما يحل ويحرم من أمور دينهم ودنياهم.

وهذا التواصل الفقهي يأخذ مجراه في أربع شعب متكاملة : الفقهاء المغاربة في مصر، وحملة المذهب المالكي من أهلها، والذين خدموه بمصنفاتهم في المذهب وأسانيدهم الموثقة لمروياتهم من ذخائره، والرحلات العلمية للفقهاء المالكية تصل ما بين المشارقة والمغاربة...

وأقرب ما يبدو للرؤية العامة من تواصل فقهي بين مصر والمغرب، من عرفت الكنانة من فقهاء المغرب الكبير الذين مروا بها - لا بد - في رحلاتهم للحج، والذين نزلوا بها واطمأن بهم المقام في ربوعها، فكانوا سفراء لقومهم بما مثلوا من مخايل الشخصية المغربية وسجاياها، بسلوكهم غيرتهم على الدين ومن محافظتهم على مذهب إمام دار الهجرة، وإكبارهم للعلم وأهله. وكان لأكثرهم مشاركة ذات بال في الحياة الفقهية والاجتماعية بمصر، بما تولوا من مناصب علمية دينية لم تضن بها مصر عليهم، بل كانت أحياناً أحرص منهم على أن يتقلدوها.

وعهدها بهم قديم : فمن أواخر القرن الثاني، ومصر وقتئذ «أول أرض انتشر بها مذهب الإمام مالك بعد المدينة المنورة، وغلب عليها». كما قال القاضي عياض في خطبة المدارك، كانت تستقبل السادة المغاربة في طريقهم للحج ولقاء الكبار من أصحاب الإمام مالك رضي الله عنه، في مصر والحجاز، وتجد فيهم ولديهم ما تأخذه عنهم علماً وسلوكاً ومنهجاً، فإما أقاموا بالديار المصرية فهم في عداد الفقهاء المالكية لأعيان من أهلها، وإما عادوا إلى المغرب، فلهم في مصر أصحاب وتلاميذ...

☆ ☆ ☆

في الطبقة الكبرى من أصحاب الإمام مالك الذين كان لهم ظهور في حياته، من أهل مصر :

● **«طليب بن كامل اللخمي، أبو خالد المصري» - ويسمى عبد الله أيضاً.**

من كبار أصحاب الإمام وجلسائه. وأصله أندلسي. سكن الإسكندرية وروى عنه من أعيان المصريين : عبد الله بن وهب وعبد الرحمان بن القاسم - من جلة أصحاب الإمام - وبه تفقه ابن القاسم قبل رحلته إلى مالك في المدينة. نقل القاضي عياض في المدارك، عن محمد بن وضاح القرطبي، الفقيه الحافظ، قال : «كان طليب بن كامل نبيلاً»

توفي بالأسكندرية في حياة الإمام مالك، سنة 173 هـ.

ومن متقدمي المالكية الأعيان، من أهل مصر، في ترتيب المدارك :

● **«أبو الطاهر ابن السرح، أحمد بن عمرو بن عبد الله الأموي، مولاهم».**

كان «سرح» جده، أندلسياً طباخاً، سكن أسيوط من صعيد مصر، وولد حفيده أبو الطاهر أحمد بمصر، وكان فقيهاً مالكياً صدراً، شرح موطأ ابن وهب المصري المالكي، وجل روايته عنه. وسمع من ابن القاسم وابن عيينة والوليد بن مسلم ووكيع والإمام الشافعي.

وعنه الرازيان أبو زرعة وأبو حاتم، ومسلم، وأخرج له في الصحيح، وأبو داود والنسائي وابن ماجه، وأخرجوا له في السنن.

مولده سنة 170 هـ، وتوفي سنة 250 هـ.

☆ ☆ ☆

● **«مدلج بن عبد العزيز بن رجاء المدلجي، أبو خندف الأندلسي، وسكن مصر».**

وكان مع فقهه بالمذهب، ذا علم وأدب. دخل العراق فسمع علماً كثيراً.

وأخذ عنه بمصر، وبها وفاته سنة 259 هـ.

☆ ☆ ☆

● **«حمديس بن إبراهيم بن أبي محرز اللخمي» من أهل قفصة، وعداده في الإفريقيين، ونزل مصر».**

قال أبو العرب تميم، والنقل من مدارك عياض : هو فقيه ثقة سمع بالقيروان من محمد بن عبدوس، وبمصر من محمد بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى الصدفي - من

فقهائها المالكية ـ وله في الفقه كتاب مشهور في (اختصار مسائل المدونة) رواه عنه «مؤمل بن يحيى بن مهدي التمار المصري المدرس في جامع الفسطاط.

توفي الفقيه حمديس بمصر، سنة 299 هـ.

☆ ☆ ☆

ومن هذه الطبقة الثالثة من أعيان المذهب المغاربة :

● **«أبو عمر المغامي، يوسف بن يحيى بن يوسف».**

عداده في أهل الأندلس، أصله من مغام، من ثغر طليطلة، ونشأ بقرطبة، ثم استوطن القيروان إلى وفاته سنة 288 هـ.

في ترجمته بترتيب المدارك، أنه سمع بالأندلس من يحيى الليثي، وروى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته. ورحل فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز البغوي، وبصنعاء.

قال ابن الفرضي في تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس، ونقله عياض في المدارك : انصرف إلى الأندلس وكان حافظاً للفقه نبيلاً فيه فصيحاً بصيراً بالعربية، فأقام بقرطبة أعواماً. ثم رحل ثانية فسكن مصر، وسمع منه الناس بها «كتب عبد الملك بن حبيب، و(الموطأ) روايته عن يحيى بن يحيى».

وله في مصر تلاميذ وأصحاب من أعيان الفقهاء والحفاظ والمسندين. وكان ظاهر السؤدد في قرطبة، ومصر، والقيروان، من جسور التواصل الفقهي والاجتماعي في مصر بين المشارقة والمغاربة، حملة المذهب.

☆ ☆ ☆

وفي هذه الطبقة من أعيان المذهب الذين انتهى إليهم فقه الإمام مالك، بعده :

● **«محمد بن عمر بن يوسف الكندي، أبو عبد الله الجياني»**

عداده في الأندلسيين. وعداد أخيه الفقيه الصدر «يحيى بن عمر» في الإفريقيين وقد شرك محمد أخاه يحيى في أكثر رجاله. وسمع أعيان المالكية المصريين : الحارث بن مسكين ومحمد بن عبد الحكم وأبا الطاهر ابن السرح وأبا إسحاق البرقي. وبالقيروان محمد بن عبدوس وغيره من أصحاب الفقيه سحنون.

في ترتيب المدارك، عن ابن حارث الخشني وأبي الوليد ابن الفرضي، قالا : كان محمد بن عمر كثير الكتب في الفقه والآثار، ضابطاً ثقة، كثير التجول في البلاد. وخرج من القيروان إلى مصر عام 289، وقال ابن الفرضي : عام 297 فسمع منه الناس بها...

من أصحابه المصريين المالكية : أبو سعيد ابن يونس المؤرخ، وحمزة بن محمد الكناني الحافظ، ومؤمل بن يحيى التمار الفقيه...

وسمع منه عبد الله بن عدي، وخالد بن سعيد الأندلسي، وأبو العباس تميم بن أبي العرب القيرواني، قال، والنقل من المدارك، إنه لقي محمد بن عمر **بمصر**، وأخذ عنه (الدمياطية والبرقية) من مصنفات المصريين في المذهب.

وأرخ أبو عبد الله الحميدي، في الجذوة، وفاة محمد بن عمر بمصر سنة (310 هـ).

☆ ☆ ☆

● **«عمر بن محمد بن أبي حُجَيْرة، أبو حفص بن أبي عبد الله»**

قرطبي، وسكن مصر، وعداده في أهلها وعداد أبيه في أهل الأندلس.

لزم جامع الفسطاط، وحدث ورأس في الفتيا بمصر على مذهب مالك، حدث عنه المصريون، وغير واحد من الأندلسيين.

☆ ☆ ☆

● **«ابن ملول، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن القاسم بن يوسف الأنصاري الأندلسي، الوشقي، وسكن مصر».**

وفي مصر حُمل عنه، وتصدر، وكان عالما حافظاً ذا عناية بالتاريخ والخبر، وغلب عليه. وكتابه (التاريخ) من مصادر طبقات المالكية المبكرة لأعيان فقهائها بمصر، والنازلين بها.. وممن حمل عنه «أبو الوليد ابن الفرضي» وأرخ وفاته بمصر في ذي القعدة سنة 348 هـ.

في الطبقة السادسة من أعيان المذهب :

● **«محمد بن نظيف، أبو عبد الله البزار الإفريقي ثم المصري».**

نقل القاضي عياض عن «أبي بكر المالكي، الدينوري ثم المصري» قال :

كان محمد بن نظيف من العلماء الراسخين والفقهاء البارعين والأئمة المعدودين والعلماء المجتهدين. خرج إلى مصر عند ظهور من سبُّ السلف بإفريقية، وقد اشتهرت إمامته فهرب من الرئاسة والفتنة. ولازم بمصر فقهاءها المالكية الكبار : أبا إسحاق ابن شعبان، وأبا الذكر الأسواني محمد بن يحيى قاضي مصر، ثم أبا بكر النعالي، الفقيه الرئيس، وغيرهم، مداومة منه على طلب العلم. وأخذ عنه الناس بمصر وكان يُشبَّه بعبد الرحمن بن القاسم، كبير أصحاب الإمام مالك وشيخ الفقيه سحنون - فكان أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني، فقيهها الإمام، يقول : لو كان أبو عبد الله، بن نظيف، بالقيروان، لم يسعني أن أجلس هذا المجلس لأنه أولى به مني في حفظه وفهمه».

توفي رحمه الله، بمصر، سنة 355 هـ.

☆ ☆ ☆

● **«ابن العريف، أبو بكر حسن بن وليد بن نصر : أصله من قرطبة وخرج إلى المشرق وسكن مصر».**

وبمصر تصدر ورأس، وحلّق بجامعها العتيق. قال ابن الفرضي في تاريخه «كان فقيها عالما بالمسائل حافظا للرأي نحويا متقدما». ونقله عياض، عنه، وأرخ وفاة ابن العريف بمصر سنة 367 هـ.

☆ ☆ ☆

في الطبقة السابعة من أعيان المذهب المغاربة بمصر :

● **«ابن المغربي، محمد بن عبد الله بن عتاب، أبو عبد الله الأسكندري».**

وفي الاسكندرية لقيه الحافظ «أبو ذر الهروي، شيخ الحرم، وراوي صحيح البخاري» وذكره في معجمه، قال فيما نقل القاضي عياض : كان فقيها مالكيا من خيار المسلمين، ثقة مأمونا. وكان بنو عبيد - الفاطميون - ضربوه وآذوه على السُّنّة، وأحرقوا كتبه. فحدث عن ابن الأعرابي» - أبي سعيد، أحمد بن محمد بن زياد، المحدث الزاهد.[1]

☆ ☆ ☆

وفي الطبقة الثامنة منهم، بترتيب المدارك.

● **«أبو محمد بن الوليد بن سعد بن بكر الأنصاري : أندلسي، أصله من قرمونة».**

سمع بالأندلس من شيوخ الوقت. ورحل فسمع بإفريقية ومصر والحجاز، نقل القاضي عياض عن أبي عبد الله الرازي قال : ابن الوليد الأنصاري الفقيه على مذهب مالك، من سادات **المغاربة** وفضلائهم. سكن بمصر وأخذ عنه بها الناس».

توفي سنة 448. عن (الصلة لابن بشكوال).

☆ ☆ ☆

وفي الطبقة الثامنة أيضا،

● **«عبد العزيز بن علي المقرئ المالكي، الفقيه، المصري».**

عداده في أهل الأندلس، آخر الطبقة الثامنة، وفي ترجمته أنه من أصحاب أبي الذكر، وعني بالقرآن والفقه وغلب عليه علم القرآن، وكان من المتصدرين لإقرائه في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، ويختلف إلى أبي الذكر المالكي ويتفقه عنده في المسائل ويجالسه في ذلك كل يوم من بعد صلاة الصبح إلى الزوال، ومن الظهر إلى العصر».

---

1) ترجمة ابن المغربي في (ترتيب المدارك : 7 / 90) ط الرباط. ووقع فيها : يعرف بابن المصري.

قلت : وهو ابن المغربي في لوائح القاضي عياض لأعيان الفقهاء المالكية. بالمجلد الأول من المدارك، ص 78 رقم 1244.

ثم اضطرب سياق الترجمة بعد ذلك.

نبه عليه المحقق «الأستاذ سعيد أعراب» كما علق وضع الفقيه عبد العزيز بن علي المالكي المصري، في أهل الأندلس مع صريح نسبه المصري، قال : كذا ثبتت هذه الترجمة في سائر النسخ التي بين أيدينا. ولا وجه لذكرها هنا، وحقها أن تذكر في فرع المصريين. ولعل الناسخ ألفاها في مسودة المؤلف فأدرجها هنا اعتباطاً.[2]

وعجبت لاتفاق النسخ على هذا الوضع الاعتباطي. ثم لما راجعت لوائح القاضي عياض في مقدمات المدارك، ألفيت الفقيه عبد العزيز في أهل الأندلس،[3] كما اتفقت عليه نسخ المدارك، فكأنه لم يوضع في الأندلسيين اعتباطاً. وحقه أن يكون في المصريين كما قال السيد الزميل المحقق، لا بصريح نسبه فحسب، ولكن بتصدره كذلك في جامع عمرو بالفسطاط، واختلافه إلى «أبي الذكر المالكي» يتفقه عنده في المسائل «ويجالسه في ذلك كل يوم...»

«أبو الذكر المالكي» هو محمد بن يحيى الأسواني المصري، قاضيه الفقيه، توفي بعد سنة 341 هـ.

ولم أتجاسر مع ذلك، على تحويل بطاقة الفقيه عبد العزيز عندي إلى من جردت من فقهاء المالكية المصريين، خلافاً لموضعه في الأندلس عند القاضي عياض، وقد صح النقل لما اتفقت عليه نسخ المدارك، إذ يتحمل، والله أعلم، أن يكون الفقيه عبد العزيز بن علي المصري، له أصل بعيد في الأندلس، غاب عنا لسبب أو لآخر، فعدوه من أهل الأندلس باعتبار الأصل، على نحو ما يلقانا كثيراً في تراجم طبقات المالكية الموزعة على البلدان، من إدخال أعيان تعدهم مصر من أهلها، في الإفريقيين أو أهل الأندلس، وفاس، باعتبار النسب إلى موطنهم الذي نزحوا منه. وهذه قضية شاغلة لعلماء الرجال، ليس هاهنا مكان لبسط في عرضها.

ومبلغ علمي أنهم وضعوا ضوابط لهذا النسب البلداني، لكنه لم يسلم لهم فيما بين أيدينا من كتب الطبقات.

2) ترتيب المدارك : 52/8، مقابلا على الهامش التالي.

3) ترتيب المدارك : 89/1، رقم 1429.

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى سياق العرض لمنازل الفقهاء المالكية المغاربة، في مصر، فأجد في الطبقة العاشرة من أعيان المذهب بالمدارك، عدداً من «الصقليين» لهم منزلة معروفة في تاريخ مصر الفقهي والقضائي، منهم :

- **أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون التميمي الصقلي» :**

تفقه بشيوخ صقلية والقرويين، وحج مرتين فلقي في إحداهما «القاضي عبد الوهاب بن نصر، وأبا ذر الهروي» من أعيان المالكية، و«أبا المعالي الجويني» الشافعي الأصولي، فباحثه في أشياء وسأله عن مسائل أجاب عنها، وهي مشهورة في أيدي الناس. وكان عبد الحق يعترف بفضل الشيخ ويقول : لولا كبر سني - ما فارقت عتبة منزله - وذلك بعد سنة 450 هـ - وتكرر عبد الحق بعد هذا ببلاد مصر، إلى أن توفي بالأسكندرية بعد سنة 460 هـ.

وله مصنفات مشهورة في المذهب، نوه بها القاضي عياض في ترجمته بالمدارك.

☆ ☆ ☆

- **«عبد الجليل بن مخلوف، أبو محمد الصقلي، المالكي الفقيه المفتي»**

في تراجم فقهاء مصر المالكية، أنه أفتى بمصر أربعين سنة، على المذهب.

وبها وفاته سنة 459 هـ[4]

☆ ☆ ☆

وفي الطبقة من أعيان المذهب المغاربة، وعدادهم في أهل مصر بترتيب المدارك، والنقل منها.

- **محمدبن الفرج بن عبد الولي الأنصاري، الصواف المالكي :**

طليطلي، وسكن مصر، وحدث بها، وغلبت عليه الرواية. حدث عنه الأمير أبو نصر ابن ماكولا، وأبو العباس الرازي، وعلي بن مشرف بن مسلم الأنماطي، وأبو القاسم ابن النحاس المقرئ.

4) السيوطي : حسن المحاضرة : فقهاء مصر المالكية. والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة. وفيات سنة 459 هـ.

وفي الطبقة بعدهم :

● «أبو عبد الله المازري محمد بن أبي الفرج المالكي»

الفقيه الحافظ، المتقدم في علم اللغة وفقه المذهب، له فيه تعليق كبير حمله عنه المصريون. رحل إلى أصبهان، قبل هجمة التتار، وبها وفاته.

مولده بصقلية سنة 477 هـ، وتوفي سنة 516 هـ

☆ ☆ ☆

● «أبو عبد الله الصقلي المازري، ثم الأسكندري : محمد بن مسلم القرشي»

الفقيه الأصولي. أخذ عن شيوخ صقلية وقدم الأسكندرية فسمع بها من أبي بكر الطرطوشي. من مصنفاته (البيان في شرح البرهان) و (المهاد في شرح الإرشاد).

ذكره ابن مخلوف في فرع مصر من الشجرة بالطبقة الحادية عشرة، وقال : لم أقف على وفاته، وكان بالحياة سنة 520 هـ

☆ ☆ ☆

ختم القاضي عياض (ترتيب المدارك) بالأعيان من طبقة شيوخه، في حدودسنة 530 هـ، وقد انتشر المذهب في المغرب الكبير وأطبق عليه أهله، ومصر التي «كانت أول أرض انتشر فيها المذهب بعد المدينة، قد نبغ فيها مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه» «وانتشر منها في الآفاق، ومذهب الإمام مالك رضي الله عنه ظاهر بها غالب عليها إلى وقتنا هذا» قاله القاضي عياض في خطبة المدارك.

وقد ظلت على ذلك المدى الطويل، بحكم موقعها في قلب العالم الإسلامي حلقة اتصال بين أقطار المشرق وأقطار المغرب، وملتقى العلماء منها فأهلها ذلك لدورها التاريخي، من القرن السادس فما بعده : مهاجرا للنازحين من الشرق الأسيوي في جائحة الإعصار التتري، ومن الأندلس، في جوائح الفتن الحالقة، ونذر الكارثة، وقد تقاسمت مع المغرب الأقصى تكاليف الجهاد لحماية الإسلام، ديناً ودولة وعلماً وحضارة وتراثاً، في جبهة القلب بمصر والشام والحجاز، والجبهة المغربية القصوى.

من القرن السادس تعطلت حواضر العلم العامرة في الشرق الأسيوي : بفارس وما وراء النهر، وفي كثير من ديار الإسلام بالأندلس، فكانت مصر، بطبيعة الحال، أحب دار لمهاجرة الأندلس والمغرب الكبير لقدم العهد بالتواصل الحميم بينهما، ومكانة المذهب المالكي في ربوع الكنانة. وكثر الوافدون على مصر من علماء الشرق وحملة علم الأندلس ومالقة وصقلية وسائر أقطار المغرب الكبير، فما كانوا قط جاليات أجنبية منعزلة عن المجتمع المصري، بل استبسلوا مع أهلها في جهاد الصليبيين والتتار، وشاركوا في حياتها العلمية والاجتماعية، بما شغلوا من مناصب جليلة : شيوخاً أئمة لمدارسها الكبرى، وقضاة ونواباً في الحكم، ومعلمين ومفتين وخطباء.

والذين أقدمهم هنا، ليسوا سوى قلة من أعيانهم، لهم ظهور في حياتنا الفقهية والاجتماعية، تعرف به منازلهم في ربوع الكنانة :

● «أبو بكر الفهري الطرطوشي، ثم الإسكندري، محمد بن الوليد القرشي المالكي»

الفقيه الإمام الحافظ الثقة، العالم العارف القدوة. عالي القدر شهير الذكر. صحب أبا الوليد الباجي بسرقسطة، وأخذ عنه مسائل الخلاف وأجازه. وقرأ الفرائض والأدب بإشبيلية على أبي محمد ابن حزم، ثم رحل سنة 476 ودخل بغداد والبصرة وتفقه على أبي بكر الشاشي، وسمع أبا علي التستري المالكي. ودرّس بالشام مدة ثم ضجر فارتحل إلى الإسكندرية، وإليه كانت الرحلة، وفيها تلاميذه ومدرسته.

تفقه به من لا يعدون كثرة، منهم أبو الطاهر ابن عوف الزهري الاسكندري الذي آل إليه علو الإسناد في (الموطأ) وسند بن عنان مؤلف الطراز، ومحمد بن مسلم المازري... في آخرين من المصريين، والوافدين عليها.

من مؤلفاته : سراج الملوك، ومختصر التفسير، وكتاب كبير في مسائل الخلاف، وفي بدع الأمور ومحدثاتها، وشرح رسالة ابن أبي زيد. وكان قدوة في نبله وورعه، توفي بالثغر سنة 520 هـ.

وبقيت ذكراه العطرة، ومثواه في (حي الطرطوشي) بالأسكندرية، معروف مزار.

☆ ☆ ☆

وفي هذه الطبقة الحادية عشرة، بفرع الأندلس من شجرة النور الزكية :

● «القاضي أبو بكر عبد الله بن طلحة اليابري الإشبيلي المالكي»

الفقيه الإمام الأصولي المفسر. له كتاب في شرح رسالة ابن أبي زيد، ومجموعات في الأصول والفقه، ردّ فيهما على أبي محمد ابن حزم في المدخل. وصل إلى المهدية بتونس سنة 513 وخرج منها إلى مصر فاستوطنها. وسُمع عليها (الموطأ) بها. وتوفي بمكة بعد سنة 616 هـ[5]

● «أبو العباس ابن الإقليشي الداني الإسكندري، أحمد بن معد التجيبي»

عداده عند الشيخ مخلوف في الطبقة الحادية عشرة، فرع الأندلس من الشجرة.

أخذ عن جلة شيوخ الأندلس، كالقاضي أبي بكر ابن اعربي، وأبوي علي الصدفي والغساني، وأبي محمد عبدالحق بن عطية، وأبي العباس ابن العريف وأبي الوليد ابن الدباغ. ونزل الإسكندرية فأخذ عن شيخها أبي بكر الطرطوشي، وصحب حافظها أبا الطاهر السلفي، وتدبج ومهر وتصدر وصنف. حمل الناس (معشراته) في الزهد وله (النجم من كلام سيد العرب والعجم) في عدة أسفار، والكواكب والغرر من كلام سيد البشر، وكتاب ضياء الأولياء، أرخه الذهبي في العبر، وابن تغري بردي ـ عنه ـ في وفيات سنة 550، ومثله في شجرة النور. وذكر ابن فرحون في الديباج، أنه توفي سنة 551 هـ.

☆ ☆ ☆

وفي الطبقة مع أهل مصر :

● «أبو العباس ابن الحطئة اللخمي الفاسي، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام المالكي، نزيل الأسكندرية»

من مشاهير علماء مصر الصلحاء. مولده بفاس سنة 478 وانتقل إلى مصر فقرأ القراءات على شيخها «أبي القاسم ابن الفحام الصقلي، وروى عن الحافظ السلفي، وبرع في الفقه والعربية وتصدر بمصر، وكان لأهلها فيه اعتقاد كبير عرض عليه بنو عبيد القضاء فاشترط ألا يقضي بمذهبهم فولوا غيره. توفي بالقاهرة سنة 560 هـ[6]

☆ ☆ ☆

في الطبقة الثانية عشرة، لفرع الأندلس من شجرة النور الزكية :

● «اليسع بن بن عيسى بن حزم، أبو يحيى الغافقي الجياني»

الفقيه المالكي العالم المشاور، المقرئ الحاذق الحافظ النسابة. أخذ القراءات عن أبيه وعن أبي الحسن شريح. وسمع منهما ومن أبي الحسن ابن موهب وابن هذيل وآخرين. وانتقل إلى مصر ولقي حظوة عظيمة، وتصدر. روى عنه من أعيان الأسكندرية أبو الفضل المقدسي الأسكندري وأبو القاسم الصفراوي. وصنف كتاب (المغرب في محاسن المغرب).

توفي بالثغر، سنة 575 هـ.

☆ ☆ ☆

5) انظر مع الشجرة، نفح الطيب : 402/3 ـ 403 ط التجارية، بالقاهرة.

6) حسن المحاضرة / فقهاء مصر المالكية : 453/1 والنجوم الزاهرة، عن العبر : وفيات سنة 560 هـ.

وفي الطبقة من علماء مصر الأعيان :

● **«أبو القاسم ابن جارة، مخلوف بن علي المغربي ثم السكندري»**

فقيه الثغر من أئمة المالكية الكبار. تفقه به أهل الثغر زماناً إلى وفاته. قاله الذهبي في العبر، وفيات سنة 583 هـ.

☆ ☆ ☆

● **«أبو الطيب ابن الخلوف الغرناطي، عبد المنعم بن يحيى بن خلف المالكي»**

العالم الفقيه المقرئ الشيخ المحدث. قرأببلده على شيوخ الوقت، وانتقل إلى فاس، فأدب بها، وتجول في المشرق ثم استوطن مصر وسمع بالاسكندرية عند السلفي وابن بري، وحدث بها بالموطأ. وتصدر بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة وانتفع به الأعيان.

مولده بغرناطة، ووفاته بمصر سنة 586 هـ[7]

● **«أبو الوليد ابن خيرة القرطبي، محمد بن عبد الله»**

تفقه في بلده بالقاضي أبي الوليد ابن رشد، وأخذ الحديث عن أبي محمد ابن عتاب. وروى الموطأ عن أبي بحر سفيان ابن العاص. وأخذ النحو والأدب عن أبي الحسين ابن سراج الأموي.

خرج من قرطبة في الفتنة خوفاً من بني عبد المؤمن بعد ما درس بها وانتفع به أهلها في فروع الفقه وأصوله. وأقام بالإسكندرية مدة ثم خشي أن يدركوه بها فانتقل إلى الصعيد وحدث في قوص بالموطأ. ثم هرب إلى مكة، فحج وأبعد في النقلة. فدخل اليمن فلما رآها قال : هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن ! وتوجه بعدها إلى الهند، وفيها توفي.

وكان من كبار فقهاء المالكية، مع تصرفه في علوم أخرى، حافظاً للأدب عارفاً بشعراء الأندلس، نبيلاً من جلة العلماء.

مولده بقرطبة سنة 479 وتوفي سنة 551 هـ

☆ ☆ ☆

**ولا أحاول أن أتقصى هنا، من استقبلت مصر من أعيان المغاربة، فقهاء المالكية، وحفاظهم المسندين، في القرن السابع للهجرة، فنزلوا بها أعز منزل. يكفي أن أذكر أن المدرسة الكاملية،[8] وهي من أكبر مدارس مصر، تعاقب على مشيختها جلة من العلماء، منهم في القرن السابع وأوائل الثامن، من أعيان المغاربة الحفاظ والفقهاء :**

● **«أبو الخطاب ابن دحية السبتي الحافظ، عمر بن حسن»**

نزح من الأندلس واستوطن مصر وكان بصيراً بالحديث مشاركاً في العربية، حظي عند الملك الكامل بن العادل الأيوبي، فولاه مشيخة المدرسة الكاملية إلى وفاته سنة 633 هـ عن نيف وثمانين سنة.

وأخوه :

● **أبو عمرو عثمان بن حسن ابن دحية السبتي.**

روى بالأندلس عن شيوخ الوقت، وهاجر إلى مصر، وخلف أخاه على مشيخة الكاملية. وتوفي بها سنة (634 هـ)

---

7) الذهبي في العبر. والنجوم الزاهرة عنه وهو من فرع الأندلس في شجرة النور (487/158).

8) أنشأها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي، في سنة 622 هـ. انظره في (خطط المقريزي : 375/2) مع مدارس مصر وأعيان من تولوا رياستها ومشيختها.

● «ابن سراقة الشاطبي، محيي الدين محمد بن محمد بن ابراهيم بن الحسين بن سراقة الأنصاري المالكي».

مولده بشاطبة سنة 592 هـ وسمع بها من أعيان الوقت، ورحل فسمع ببغداد وحلب واستوطن مصر فتصدر، وولى مشيخة الكاملية. توفي بمصر سنة (663 هـ).

● «التاج القسطلاني المصري المالكي، أبو الحسين علي بن أبي العباس أحمد بن علي القيسي».

الفقيه المالكي المفتي المعدل المسند من أعلام البيت القسطلاني المصريين، ولي مشيخة الكاملية إلى وفاته بالقاهرة سنة (665 هـ).

وخلفه النجيب عبد اللطيف الحراني كبير مسندي مصر، إلى وفاته سنة 672 هـ فخلفه القطب القسطلاني ثم شيخ الإسلام فقيه المذهبين التقى القشيري ابن دقيق العيد المصري قاضي القضاة، توفي سنة 702 هـ، فخلفه على مشيخة الكاملية :

● «أبو عمرو ابن سيد الناس اليعمري، جمال الدين محمد بن أبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الإشبيلي، الفقيه المالكي.

مولده بطنجة، ونزح مع أبيه الحافظ أبي بكر إلى بجاية، وتونس الحاضرة، وبعد موت الوالد سنة 659 هـ هاجر أبو عمرو إلى مصر وولى مشيخة الكاملية، وتوفي بالقاهرة سنة 705 هـ، وهو والد الحافظ أبي الفتح والمحدث الشيخ أبي القاسم، عدادهم جميعا في أهل مصر.

مع كثرة يضيق عنهم الحصر من أعيان مصر المغاربة، الفقهاء والقضاة والنواب والحفاظ والمفتين، في القرن السابع للهجرة، وزعهم «الشيخ مخلوف» على فروع افريقية، والأندلس وفاس، وهم من أهل مصر في (حسن المحاضرة، والنجوم الزاهرة، والسلوك، والخطط للمقريزي.

ومع تحرجي من الإثقال بسرد أسمائهم، لا أغفل ذكر عدد من أعيانهم الموزعين على فروع شجرة النور الزكية : منهم :

● «التاج السلاوي، أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد التميمي المالكي الفقيه المتكلم البياني المتصوف، ولد بسلا سنة (581 هـ) ونشأ بمراكش واستوطن الفيوم من صعيد مصر الأدنى. وبها وفاته سنة 611 هـ.

في فرع سلا، من الشجرة..

● «الضياء ابن المزين، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي.

رحل مع أبيه من الأندلس صغيراً، ونزل بالاسكندرية فاستوطنها، وتصدر وأخذ عنه الأعلام من المشارقة والمغاربة.

توفي بالثغر : سنة (656 هـ) بالذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وفي ديباج ابن فرحون سنة 626 هـ.

☆ ☆ ☆

● «أبو العباس القسطلاني، كمال الدين أحمد بن علي بن الحسن القيسي الإفريقي.

عداده في أهلها بالشجرة، وهو من أعيان الفقهاء المالكية بمصر، والزهاد النبلاء قرأ الأصول على فقيه الثغر أبي منصور ظافر الأزدي المصري، ودرس المذهب على خاله القاضي المرتضى القسطلاني، ودرس بعد وفاته في موضعه.

وأبو العباس، هو والد القطب والتاج، من أعيان المالكية بمصر. توفي بها سنة 632 هـ.

☆ ☆ ☆

● «ابن الجرج، أبو عبد الله التلمساني، نزيل الأسكندرية. محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان الأنصاري المالكي الفقيه المحدث المسند»

سمع (الموطأ) بسبتة من أبي محمد بن عبيد الله الحجري، وحدث به في مصر، وكان من صلحاء العلماء. ذكره الجلال السيوطي في (فقهاء مصر المالكية) بكتاب حسن المحاضرة، وأرخ الذهبي وفاته سنة 656 هـ عن اثنتين وتسعين سنة.

☆ ☆ ☆

● «الشريف أبو محمد، محمد بن عمران بن موسى بن عبد العزيز بن حزم، شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية»

قدم من المغرب فقيهاً بمذهب مالك، على الشيخ أبي محمد صالح فقيه المغرب في وقته وصحب الشيخ عز الدين ابن عبد السلام، سلطان العلماء، فتفقه عليه في المذهب الشافعي.

اشتغل عليه الشهاب القرافي المصري المالكي الصدر، وقال : إن الشيخ تفرد بمعرفة ثلاثين علماء وشارك الناس في علومهم.

مولده بفاس، وتوفي بمصر سنة 698 هـ، أو التي بعدها. قاله ابن فرحون في الديباج.

☆ ☆ ☆

ومن أعيان المغاربة بمصر، في القرن الثامن :

● «الجمال الزواوي، أبو عبد الله محمد بن سليمان المالكي الفقيه، قاضي القضاة بمصر»

ولد في حدود سنة 630 هـ، وقدم الأسكندرية فاشتغل بها وناب في الحكم بالقاهرة، وغيرها من الأقاليم، وما زال يترقى إلى أن عين لقضاء القضاة.

موضعه في شجرة النور، في فرع فاس، الطبقة الخامسة عشرة. وفيها أنه قدم من المغرب سنة 645 واشتغل بالعلم في الديار المصرية، وتولى القضاء بها، وتوفي فيها سنة 717 هـ

☆ ☆ ☆

وفي الطبقة بفرع إفريقية :

● «الركن ابن القوبع التونسي، محمد بن محمد بن عبد الرحمان الهاشمي»

شيخ المالكية بالديار المصرية والشامية، العلامة الصدر. قرأ ببلده على ابن زيتون وشيوخ الوقت. وقدم مصر سنة 690 هـ، وسمع من شيوخها وشيوخ الشام، ثم درّس الطب في المارستان المنصوري. وكان متوقد الذهن ذكاء، راسخاً في العربية، يفتي على المذهب المالكي. من أعيان تلاميذ المصريين : الشيخ عبد الله المنوفي المالكي، والحافظ أبو الفتح اليعمري، والمؤرخ القطب الحلبي المصري. مولده بتونس سنة 664، ووفاته بالقاهرة سنة 738 هـ

☆ ☆ ☆

● «أبو الروح الزواوي، عيسى بن مسعود بن منصور الحميري، المالكي الفقيه العالم»

سمع الكتب الكبار وحدث عن الشرف عبد المؤمن الدمياطي، ودرس في الأزهر وناب في القضاء بدمشق ومصر وولي التدريس بزاوية المالكية وانتهت إليه رئاسة الفتوى على مذهب مالك بمصر والشام.

له مناقب الإمام مالك، و (إكمال الإكمال) في شرح صحيح مسلم، جمع فيه أقوال شراحه الأئمة : (المازري، وعياض والنووي) مع فوائد جليلة عن ابن عبد البر وأبي الوليد الباجي. وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه، إلى كتاب الصيد منه، في سبعة مجلدات، ومختصر جامع ابن يونس في شرح المدونة، والرد على ابن تيمية في مسألة الطلاق، وألف تاريخاً في مجلدات بيّض نصفه.

ترجم لـه الشيـخ مخلـوف في فرع فـاس، الطبقـة الخامسة عشرة، وابن فرحون في الـديبـاج، وهو من فقهاء المالكية بمصر، في (حسن المحاضرة).

مولده سنة 664، ووفاته بالقاهرة سنة 743 هـ.

☆ ☆ ☆

● «الشرف الرهوني،[9] يحيى بن عبد الله بن موسى، نزيل القاهرة»

تفقه ببلده على الإمام أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي. ورحل إلى مصر فاستوطن القاهرة وبرع في أصول الفقه والمنطق، وكـان ضابطـاً يقظـاً، مشهوداً لـه بـالـورع والإيثار. تولى التدريس بالمنصورية والخانقاه الشيخونية، وتصدر وحاز الرياسة والحظوة عند العامة والخاصة. له شرح علي ابن الحـاجب الأصـولي، وتقييـد على تهـذيب البرادعي، تخرج به المصريون. توفي سنة 774 هـ.

وضعه الشيخ مخلوف في الطبقة 15 من فرع فـاس، وهو في فقهاء المالكية بمصر في (حسن المحاضرة)

☆ ☆ ☆

● «الشمس الركراكي، محمـد بن يـوسف المغربي، قاضي قضاة المـالكيـة بـالـديـار المصرية»

كان فقيهـاً خيِّراً نبيلاً. امتنع من الخوض في الفتنـة ضد السلطان الظاهر برقوق - أول سلاطين دولة المماليك الثانية بمصر - وسُجن على امتناعه. فلما عاد السلطان خلع على الشيخ الركراكي المالكي باستقراره في قضاة المالكيـة عوضاً عن التاج بهرام الدميري. فحمدت سيرتـه، توفي وهو على قضاء المالكية سنة 793 هـ.

☆ ☆ ☆

● «الـزين السجلمـاسي، أبـو القـاسم عبـد الرحمان بن محمد بن عبد العبد الرحمان المالكي»

قدم من بلاده للحج، فدخل القـاهرة وحلب وبغـداد تاجراً، وسمع الكثير ولقي الشيوخ ثم حج وعاد إلى القـاهرة. فعيِّن منها قـاضيـاً للمـالكيـة بحلب، إلى أن عزل سنـة 787 بالجمال التحريري، يوسف بن عبد اللـه المصري المـالكي. فـكن غزة.

وكان الزين النجلماسي «من فضلاء السـادة المـالكيـة، بارعاً في المذهب له مشاركة في علوم. أفتى ودرس وأفـاد، توفي بالقدس سنة 789 هـ.

☆ ☆ ☆

**في القرن التـاسع الـذي شهـد في آخره كـارثـة السقوط والضياع لآخر دار للإسلام بالأنـدلس، لم يكن أمـام الغرنـاطيين إلا أن يهـاجروا إلى العدوةالمغربية، ملاذهم القريب، أو أن يبعـدوا شرقاً إلى تونس ومصر والحجاز والشام.**

**في النــــازحين منهم إلى مصر كثرة، يـأخـذون مـواضعهم في تـاريخهـا العلمي**

---

9) وقع نسبه في (الديباج 362/2) : الدهوني. وفي (الشذرات 230/6) : الزرهوني، وعلى هامشه : نسبة إلى جبل قريب من فاس.
وهو «الرهوني» في الشجرة، وحسن المحاضرة، وأنشد ابن حجر من مرثية الشمس ابن الصائغ، لشيخه الرهوني :

سلبتني اللـــذات أيـــدي المنـــون
وتقـــاضت مــــا أسلفت من ديـــوني
قبضت مـــــالهـــا من الـــدين حتى
قـــد نقلت من بعـــد ذا للرهـــون

**وحياتها الاجتماعية. رضوا مصر منزلاً ومقاماً، وحفظوا لها جميل ما يسّرت لهم من مناصب عليا، حققوا فيها وجودهم العلمي.**

**الذين جردت بطاقاتهم من مهاجرة المغاربة الأعيان في مصر، لا تستوعبهم مجلدات، غير قصور وفوات.**

وقد عدّتهم مصر من أهلها، وكان لها من صفاء الحس والبصيرة أن رأت فيهم (السادة المغاربة) ونسبتهم إلى المغرب، ثم إلى منازلهم بالكنانة، اعتزازاً بانتمائهم إلى الوطنين، كاعتزازها بانتماء جلة من أعيانهم، إلى المذهبين : المالكي والشافعي.

من أعلام المالكية الفقهاء المغاربة بمصر، في القرن التاسع :

- **«ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمان بن محمد بن محمد الحضرمي المغربي المالكي»**

مولده بتونس سنة 732 هـ ومهر في الفنون فولى كتابة السر بفاس، وخرج سفيراً إلى غرناطة فوُشي به عند السلطان، فأبحر هارباً إلى المشرق. فاستوطن مصر فولّته قضاء القضاة المالكية عدة مرات، آخرها قبل وفاته بأيام. كما ولى مشيخة المدرسة البيبرسية. ورافق العسكر إلى تيمورلنك بالشام ثم خلص ناجياً إلى مصر، وبها وفاته سنة 808.

ترجم له المصريون : شيخ الإسلام ابن حجر، في إنباه الغمر، والحافظ شمس الدين السخاوي في الضوء اللامع، والجلال السيوطي في حسن المحاضرة: مع فقهاء مصر المالكية، وقضاتها، والمؤرخين.

- **«ابن مرزوق الحفيد، أبو عبد الله التلمساني محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن أبي بكر المالكي»**

الخطيب الفقيه المحقق الحافظ النظار، الولي الصالح.

مولده بتلمسان، من بيت علم ورياسة، روى عن جده بالإجازة واشتغل ببلاده على جماعة من شيوخها. ورحل فلقي الإمام بن عرفة بجامع الزيتونة، وأخذ عن أعلام المصريين : السراج البلقيني، والشهاب الغرافي، والسراج ابن الملقن، وتدبج مع شيخ الإسلام ابن حجر. وسمع بالإسكندرية من البهاء الدماميني المالكي، وبمكة من النور النويري المصري المكي. وتفوق في الفقه والأصول العربية، فشرح الألفية والتسهيل لابن مالك، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، وتهذيب البرادعي، واختصر الحاوي في الفتاوي لابن عبد النور المالكي.

توفي بمصر يوم الخميس 14 من شعبان سنة 842 هـ، فحضر السلطان جنازته، وصُلي عليه بالأزهر بعد صلاة الجمعة.

ترجمته في الطبقة 17 بفرع الأندلس من شجرة النور، وهو في فقهاء المالكية الصدور بالإنباء وحسن المحاضرة، وبالضوء اللامع، وكذلك في البدر الطالع للشوكاني.

☆ ☆ ☆

- **«الشمس الراعي الغرناطي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن إسماعيل»**

وقد نزح من الأندلس واستوطن القاهرة. فنزل بها أعز منزل، وأقرأ بها وأمّ بالمؤيدية. وانتفع به المصريون في الفقه والعربية.

اختصر شرح شيخه ابن مرزوق الحفيد على المختصر، وله شرحان على الأجرومية، وكتاب في النوازل النحوية، وكتاب (انتصار الفقيه السالك لترجيح مذهب الإمام مالك)

مولده بغرناطة سنة نيف وثمانين وسبعمائة، واستوطن القاهرة من سنة 825 هـ، وبها وفاته في 27 من ذي الحجة سنة 852 هـ.

☆ ☆ ☆

وفي الطبقة الثامنة عشرة، بفرع فاس من الشجرة :

- **«أبو الفضل المشذالي البجائي المغربي، محمد بن محمد بن أبي القاسم»**

نزيل القاهرة، مولده في شهر رجب سنة 821، وتلا في بلده على والده أبي عبد الله البجائي علاّمتها المحقق، وخطيبها ومفتيها النظار. وأخذ عنه وعن علماء المغرب وحفظ المختصرات والمطولات. ثم انتقل إلى القاهرة ودرس بالجامع الأزهر، فبرع وأدهش بطلاقته وجزالة أسلوبه ورسوخ درايته، فكان جهد الدارس عليه، أن يفهم ما يلقيه، حتى قال له الطلبة : تنزل لنا في العبارة فإنا لا نفهم جميع ما تقول. فرد عليهم قائلاً : لا تنزلوني إليكم، ودعوني لأرقيكم إليّ. وكان جماعة من أعيان تلاميذه يطالعون الدرس قبل حضوره ويجتهدون فيه غاية الاجتهاد، حتى يظن بعضهم أنه يتفوق عليه، فإذا جاء الدرس أظهر لهم من المباحث ما لم يخطر لهم على بال. وعرفوا له قدره، فيقول البرهان البقاعي : حضرت درسه بجامع الأزهر في فقه المالكية، فظهر لي أني ما رأيت مثله ولا رأى مثل نفسه، وأن من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب، بل ولا خرج إلى الوجود. وذكر البرهان، أنه الذي أرشده إلى وضع كتابه في التفسير، في المناسبات بين السور والآيات ـ نظم الدرر ـ.

وقال ابن الهمام الحنفي، من شيوخ مصر الأعلام : هذا الرجل لا يُنتفع بكلامه ولا ينبغي أن يحضر درسه إلا حذاق العلماء.

توفي سنة 864 هـ، أو في التي بعدها.

☆ ☆ ☆

أطلت ولم أقدم سوى قلة من الفقهاء المالكية المغاربة بمصر، إضافة إلى من قدمت من قبل من أوليائها الصالحين البركة وقرائها وعلمائها الشيوخ.

دون من عمرت بهم ربوع الكنانة من (السادة المغاربة، الحفاظ والمسندين وعلماء العربية وأمراء البيان.

فلأختم هذا المقال بما سجله أبو عبد الله الراعي الغرناطي، في نزوحه إلى مصر، ومنزله مع السادة المغاربة، عند أهل مصر، العامة والخاصة. قال : «لما سافرت إلى الغرب وعدت إليها، دخلت المدرسة الصالحية، فلقيني صبي صغير من صغار الكُتّاب بها وحياني على الفور بقوله يخاطبني : آنستم ونورتم مكانكم. وخاطبني بعض أصحابنا المشايخ بها بقوله : هذه نعمة غير مرتقبة ـ يعني رجوعي من المغرب إلى مصر ـ وكان معي تاجر من خيار أهل الأندلس، فقلت له : هؤلاء الذين يرغبونني في سكنى مصر. فحفظ الحكايتين وراح يحدث علماء الأندلس بحلاوة مشايخ مصر وفصاحة صبيان المكاتب بها».[10]

فلا عجب أن جعل «من وجوه الترجيح لمالك ومذهبه ـ رضي الله عنه ـ أن عامة مصر وأهل الخير منهم إذا رأوا مالكياً يفعل حسناً قالوا : لا يكثر عليه، لأنه مالكي المذهب، وإن فعل قبيحاً قالوا له : أتكون مالكياً وتفعل هذا ؟ إجلالاً لمذهب مالك وتعظيماً له. ولذلك يقول أهل الخير والدين للمغاربة : إن المغاربة على حق، وإنهم أهل الدين»[11]

**والسلام ختام**

10) الشمس الراعي : انتصار الفقير السالك : هامش ص 33، نقلا عن (الأجوبة المرضية) من حواشي المحقق الأستاذ محمد أبو الأجفان، ط دار الغرب الإسلامي ببيروت.
وكان منزله بمصر في المدرسة الصالحية، إلى وفاته بها. انظر الخطط للمقريزي 374/2 مع الضوء اللامع : 203/9.

11) بلفظ الراعي، في كتابه (انتصار الفقير السالك، لترجيح مذهب الإمام مالك) : ص 205.

# الحسن الثاني ملك الحوار

الأستاذ أحمد مجيد بن جلون
مستشار قانوني بالديوان الملكي

تمضي الأيام وتمر الشهور والأعوام، وتتبلور الآراء والأفكار، وتمتحن الأحداث المتعاقبة نتائج المبادرات السالفة، ويتدخل الرأي العام في كل دولة ليضفي معطيات ضميره على ما أنجزه السلف، وحققه المسؤولون فيقدر الوقائع حق قدرها، استناداً إلى ما توصل إليه الباحثون من نتائج، والدارسون من حقائق، والمعلقون من استنتاجات، وأخيراً يصدر حكمه بموضوعية واتزان وتجرد. وهكذا يكتب التاريخ، وخصوصاً تاريخ العظماء الذين أعطوا من خبرتهم وحنكتهم ومجهودهم، وعبقريتهم وتفانيهم في خدمة وطنهم ما جعلهم أهلاً للذكر والتذكير، والتنويه والتقدير، والالتفاتة الإنسانية، والتحبيذ الجماعي، والتكريم الأبدي الذي لا يحصل عليه إلا من يستحقه استحقاقاً، وتؤهله إليه خصاله وأفعاله.

لقد عرف تاريخنا العريق، وماضينا الأصيل، ثلة من الملوك الميامين الذين حققوا أعمالاً، نافعة مجدية، على صفحاته، فسجلوا فيها منجزاتهم العظام، ومبتكراتهم المثالية، ومنشآت خلدت في الصالحات ذكرهم. وأعطى كل واحد من هؤلاء العظام الأفذاذ ما جعله يذكر كلما ذكرت المحاسن، ويشكر كلما عادت إلى الأذهان مواقفه وعزيمته، وأعماله وجلده، وإيمانه واختياره.

إن المغرب غني بأرضه وطبيعته، وجباله وسهوله، وأبنائه وخصوصياته، ولكنه غني قبل ذلك وفوق كل شيء بتاريخه الذي كتبه ملوكه العظام، فضحوا بكل نفيس وغال في سبيل الأمانة التي قبلوا عن طواعية تحملها والتفاني في إنجازها، فأعطوا من دمائهم وحريتهم وحتى أرواحهم، تزكية لإبائهم، وحجة على إخلاصهم ووفائهم، وعبرة للأجيال الصاعدة، فربوا فيهم حب الوطن، والتشبث بالأخلاق والقيم، والعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واللجوء إلى التكوين الصحيح والتعليم النافع المفيد، حتى يصبحوا جنوداً مقتنعين للدفاع عن الأمة ومقدساتها، في كل الميادين وعلى جميع المستويات.

وهكذا، وبفضل قادتنا البررة، قطعنا المراحل والأشواط، ودافعنا عن الوطن وحدوده، وسخرنا الجهود والطاقات في سبيل النماء المادي والفكري. ولما تعرضنا للاحتلال، قاومنا الاستعمار حتى تحررت الأرض والعباد، فبدأنا البناء والتشييد. وكانت تلك الملحمة الخالدة، التي لا زلنا نعيشها، ومنذ ربع قرن، مع جلالة الحسن الثاني العظيم، بعد أن عرفنا فترة المقاومة والفداء والتضحية بقيادة عاهلنا الراحل جلالة محمد الخامس، طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جنانه.

حقا، إن ملوكنا العظام بنوا وشيدوا، وصانوا وعززوا، وقاوموا العدو باستمرار، والجهل بالتعليم والابتكار، والحاجة بتوفير الضروريات وقبول كل التضحيات. إلا أن كل واحد منهم امتاز في ميدان خاص، وأصبح يعرف بلقب ينبئ بالميدان الذي خصه بالامتياز فحقق فيه المعجزات، ووفر بفضله للمغرب الرصيد الثمين، والجاه والوقار، والمناعة والكرامة. وكم يطول العرض لو أردنا أن نتتبع التاريخ ومراحله، والمجهود وعناصره، وأن نذكر بحياة كل ملك من ملوكنا، وبجليل أعمال كل واحد منهم وبالألقاب التي استحقوها، على ضوء ما حققه طموحهم، وما أنجزه إباؤهم ومجهودهم، وما نتج عن تضحياتهم، وما احتفظ به وطنهم، واعتز به قومهم.

إلا أن هذا ليس بيت القصيد. ذلك أن غايتنا الجواب عن سؤال : بماذا سيصف التاريخ جلالة الحسن الثاني الملهم ؟ هل سيعطيه لقب موحد البلاد ومحقق وحدتها الترابية ؟ أم سيسميه ملك السدود والمليون هكتار ؟ أم سينعته بالملك الجندي الذي نظم جيشنا العتيد حتى صارت تضرب به الأمثال ؟ أم هو ملك النماء والازدهار ؟ أم منسق الاكتفاء الذاتي ؟ أم قائد الشباب ؟ أم رائد النهضة العلمية ؟ أم محقق الانطلاقة الخلقية ؟ أم حامي حمى الملة والدين ؟ أم مخطط الأهداف والمصير ؟ أم أب الديمقراطية ؟ أم الساهر على الحقوق الفردية والكرامة البشرية ؟ أم... ؟

إن التاريخ سيكون في محنة، والمؤرخون في حيرة، إذا ما أرادوا أن يقتصروا على وصف دون غيره، لأن جلالة الحسن الثاني يستحق كل هذه الأوصاف، ولأن أهمية كل منها لا تقل عن أهمية غيره.

ولكن هناك ميدان آخر أعطى فيه ملكنا من سخاء فكره، وبعد نظره، وحسن تقييمه للأحداث والأوضاع، ومن إيمانه بجدوى الفضيلة، ومن تعلقه بالمبادئ وتشبثه بالأخلاق الإسلامية، ومن اقتناعه بفاعلية السلم في إطار العدل، ومن يقينه بسمو الحوار وإيجابية المساهلة، وأعني الميدان الخارجي.

إن جلالة الحسن الثاني ملك الحوار، إيماناً وغريزة وطموحاً. فلم يكد يتربع على عرش أسلافه المقدسين حتى ألقى خطاباً تاريخياً يوم 30 مارس 1961، أكد فيه على الخصوص :

**«ولإدراك هذه الغايات السامية، فإن بلادنا تتوفر على وسائل قيمة، منها تمتع المواطنين بالديمقراطية السياسية التي تكتسي أهمية قصوى. فالأحزاب السياسية تعبر عن رأيها بكل حرية وتشرح بواسطة صحفها المبادئ السياسية التي تدافع عنها، وإن عملها ليساهم في تنمية الوعي الوطني بالنسبة لقضايا الداخل والخارج. وسواء شاركت هذه الأحزاب في الحكومة أو ظلت في إطار منظماتها السياسية، فإنها تكون بلا جدال شرطاً من شروط التقدم السياسي. وفي الأجل المحدد، ستتوفر البلاد على دستور يحدد إطار هذا العمل، وينظم بكيفية أدق التمثيل الشعبي وسير دواليب الدولة».**

ولم يمض على هذا الخطاب المولوي الكريم إلا أقل من سنة، حتى أكد حفظه الله في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة ذكرى تقديم وثيقة الاستقلال :

**«وهل هناك مناسبة أجدر من ذكرى 11 يناير 1944 لنؤكد لشعبنا الوفي تعلقنا المتين بكل ما كانت سياسة والدنا المنعم تبنى عليه ؟ ونعلن - علنا - عزمنا على تزويد البلاد في الأجل الذي حدده، قدس الله روحه، لمؤسسات تمثيلية، حتى يتمكن شعبنا الوفي أن يشارك في تحمل مسؤوليات الدولة، ونكوّن وشعبنا من جهتنا قاعدة متينة للنظام الذي ننوي تحقيقه، وذلك لضمان الأمن والهناء والعدالة والرفاهية للجميع».**

وبالفعل، قدم جلالته لشعبه دستوراً عصرياً يضمن جميع الحقوق ويحافظ على كل الحريات ويعطي لكافة المواطنين جميع الإمكانات للمشاركة بكيفية مباشرة وفعالة في الاختيارات والإنجازات، وفي التوجيه والتسيير. ثم عرف المغرب دستور 1970 ودستور 1972.

وإن ما يميز هذه الدساتير كلها، علاوة على ما تحتوي عليها من تقنيات رفيعة، هو التنظيم المحكم للحوار الذي تفرضه بين القمة والقاعدة : بين الملك والأمة عن طريق الاستفتاء من جهة، ومن جهة ثانية بين الملك وممثلي الأمة بشتى الوسائل نذكر من بينها :

- خطب جلالة الملك لمجلس النواب.
- وطلب القراءة الثانية للنصوص التشريعية.
- واللجوء إلى رأي الأمة.
- والحوار المستمر بين جلالة الملك وممثلي الأحزاب السياسية.

إن الحوار غريزة عند جلالة الحسن الثاني العظيم. وقد أكد جلالته هذه الحقيقة على الخصوص في الخطاب الذي ألقاه يوم 11 يناير 1972، عندما أكد ـ دام نصره ـ :

**«لذا قررنا أن نجري مقابلات، ونحن نجري الآن مقابلات، وسنجري مقابلات في الأيام المقبلة مع جميع الذين ينتمون إلى مصالح الأمة وتمثيلها بقرابة، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الفلاحية أو التجارية أو الصناعية أو الاجتماعية، حتى يمكننا أن نعرض عليك، شعبي العزيز، في الأسابيع المقبلة برنامجاً يروقك ويعطي المدلول لخطابنا، خطاب رابع غشت الذي قلنا فيه إن ركب الدولة يسير، ولكن قاطرة الدولة مستعدة لأن تحمل معها وفيها كل من أراد أن يعمل لصالحها وأن يعمل لصالح هذا الشعب الذي يستحق كل خير».**

منذ أن تقلد جلالته مقاليد الحكم، ما فتيء يجعل من النقاش والحوار وسيلة عمله المثلى، وقاعدة أساسية لا تقبل الاستثناء. وقد أبى جلالته إلا أن تكون أسلوبه المختار في علاقاته ومعاملته حتى في الميدان الخارجي. فالمفاوضة كانت ولا زالت طريقة يلجأ إليها كلما حدث أمر يتطلب الحل، أو نشب نزاع يقتضي أن يوجد له مخرج.

وإن المراحل التي مرت بها قضية صحرائنا المسترجعة لأكبر دليل على اتجاه جلالته واختياره. ذلك أنه عندما أصر المستعمر على عناده لجأ جلالة الملك إلى المنتظم الدولي، مطالباً بحقه المشروع، ومعززاً موقفه بالدليل والحجة. ومرت السنون دون أن يمل من تنطع الخصم، مستنداً في كل مواقفه على المنطق وعلى القانون وعلى معطيات التاريخ، إلى أن أقنع إسبانيا بوجوب اللجوء إلى محكمة العدل الدولية. ولما أصدرت المحكمة توصيتها واعترفت بحق المغرب، كان ذلك الإجماع الشعبي المنقطع النظير، وكانت معجزة المسيرة الخضراء التي شارك فيها المغرب بأجمعه حضوراً أو طموحاً، مع عدد من ممثلي الدول الشقيقة والصديقة. وكان من حضورها مسلحين بكتاب الله العزيز. وكانوا كلهم على كلمة سواء، يدعون إلى التفاهم والتآخي، ونبذ المشاكل المصطنعة والخلافات العقيمة. ولما قرر جلالته وقف المسيرة، وقف الجميع وقفة رجل واحد، في تجاوب تام، لأن مبادرتهم كانت مستندة على إيمان راسخ، وعلى التلاحم العميق المتواجد بين القمة والقاعدة، المرتكز على التفاهم التام الذي لا وجود له إلا بقدر ما يكون الإقناع متبادلاً، والاقتناع أمراً لا يقبل الشك ولا الجدال.

وإن نظرة وجيزة على ما بذله ملكنا العظيم من جهود تشكر، وعلى ما قدمه من اقتراحات في ميدان التآزر بين الأمم والتضامن بين الشعوب لدليل آخر وحجة قاطعة على ثقته في فاعلية الحوار وجدوى الوئام. فمساعيه في بلورة فكرة المغرب الكبير استمدت روحها من طموحه

الوثاب. ولا غرابة في أن نجد في تصدير أول دستور عرفه المغرب تأكيد هذه الفكرة، والتصريح بأن المغرب جزء من المغرب الكبير، ولا عجب أن يجنح جلالة الملك إلى دعوة الأقطار المجاورة إلى التخلي عن كل ما من شأنه أن يعرقل هذه المسيرة، وأن يتغاضى عن كثير من الأعمال المنافية لهذا الغرض، مرددا في كل مناسبة ثقته وتشبثه بالأسباب التي تفرض توحيد الصفوف.

وهل يمكن لأحد أن ينسى الدور الحاسم والطلائعي الذي قام به جلالة الحسن الثاني، في توحيد الصف، ولم الشعث، وتنسيق المنظمات، سواء كان ذلك على المستوى العربي، أو المستوى الإفريقي، أو في إطار دول عدم الانحياز ؟

فالجامعة العربية استمدت روحها من إيمانه وعبقريته.

ومنظمة الوحدة الإفريقية تدين له بوجودها.

ومنظمة دول عدم الانحياز فرضت إشعاعها استناداً إلى المبادئ والاختيارات التي أعرب عنها جلالته في الخطاب القيم والتاريخي الذي ألقاه ببلغراد.

إن الإيمان بفاعلية الحوار يفرض وجود عدة مؤهلات، منها :

الصراحة التي تقتضي أن يكون الإنسان ملماً بجميع جوانب الموضوع، ومطلعاً على اهتمامات الغير، ومتشبعاً بروح المودة والإخاء، وآخذاً بعين الاعتبار الملابسات والظروف، ومقدرا الإمكانات.

ومنها الإيمان بالمبادئ العليا التي تنبذ الحلول السهلة، وتبعد المحاباة، وتحكم الضمير، وتؤثر الحلم، وتجعل الإنسان ينظر إلى مصالح الغير بنفس النظرة التي يخص بها مصالحه.

ومنها التفاني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلما ظهر واستفحل.

ومنها عدم نسيان الفضل بين الناس.

ومنها مد يد المساعدة باستمرار.

ومنها الاتزان والتروي.

ومنها عدم الاستسلام للغضب.

ومنها الرجوع إلى الله في كل مناسبة وحين.

هذه بالضبط هي الخصال التي يتحلى بها جلالة الملك الحسن الثاني والتي تجعل منه ملك الحوار. فالمجهود المستمر الذي ما فتيء يبذله في علاقاته الدولية فرضه كقائد خبير ومحنك، وأرغم أكبر الدول وأعظمها على الاعتراف بمزاياه وبعد نظره، وحسن تدبيره، وأهمية اختياراته ومواقفه.

وتفانيه في خدمة القضية العربية المقدسة، ومشاركتُه في أعمال القمم العربية والإسلامية وعلى رأس لجنة القدس أعطت ثماراً اعترف بها الخاص والعام. وسيسجل التاريخ بمداد الفخر والاعتزاز لجلالته مواقفه البطولية والشجاعة والمنطقية إلى جانب إخواننا العرب في الدفاع عن مصيرهم، كما سيسجل على الخصوص ما سيعرف على الدوام **«بروح الرباط»**، على إثر مؤتمر القمة العربي لسنة 1974، ثم **«بمقررات مؤتمر فاس»**.

فما لا جدال فيه أن حق إخواننا العرب واضح وأن موقفهم سليم. إلا أن الأحداث تشعبت، والمواقف تباينت لحد جعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، إيجاد حل سلمي يوفق بين الاتجاهات المختلفة والتطلعات المتعددة. لكن جلالة الحسن الثاني استطاع، بفضل إيمانه الذي لا تثنيه الصعوبات، وخبرته التي لا تقف أمامها العراقيل، وإبائه الذي يعبّد المستحيل، وعبقريته التي توفقه إلى الحل القويم، أن يتوصل إلى تلك المقترحات التي نالت تحبيذ الجميع، والتي أصبحت وثيقة دولية يُدعى إلى الرجوع إليها كلما استعصت الأمور. وفي الحقيقة فإن هذه الوثيقة نفسها إنما هي نتيجة للحوار الذي قاده جلالته بحنكته الواسعة، وإيمانه الراسخ، فبرزت كبرهان آخر على تعلقه بمبدإ المناقشة، في إطار المنافسة الهادفة.

لقد لجأ جلالة الحسن الثاني، طيلة ما يزيد على ربع قرن، إلى استعمال مبدإ الحوار، دون انقطاع، فكان النجاح حليفه. وهل من الممكن التذكير بكل ما أنجزه ملكنا ا العظيم، أثناء هذه الحقبة من الزمن ؟

إن كل محاولة من هذا القبيل لتقتضي تحرير مجلدات، إلا أن هذه المجلدات راسخة في ذاكرة كل فرد من أفراد أمتنا، لأنها ذخيرة أجيالنا، ومنبع اعتزازنا وافتخارنا، وكنز لا يمكن تجاهله حتى من طرف خصومنا.

إن الحوار عند ملكنا عقيدة وأسلوب. وفي كل شهر، بل في كل أسبوع، يجني الشعب المغربي ثماره. وإذا كان الموضوع يخصص، فإن المناسبة شرط إن لم تكن فرصة.

في نفس الأسبوع تقريباً أعلن جلالة الحسن الثاني عن مبادرتين تستمدان روحهما من إيمانه بالحوار : ففي قضية سبتة ومليلية، اقترح جلالته، بمناسبة زيارة وزير الداخلية الإسباني إلى المغرب، تشكيل خلية مغربية إسبانية للتأمل. وفي اجتماع مؤتمر القمة الإسلامي، أكد الوزير الأول ـ تنفيذاً لتعليمات مولوية كريمة ـ أن المغرب حريص على توحيد الصف الإسلامي وتصفية الصراعات التي تحول دون قيام المسلمين بدورهم الحضاري.

إننا نحتفل بعيد العرش، وكلنا شكر وامتنان للعلي القدير الذي ميزنا بملكنا المصلح، المتفاني في خدمة شعبه، المستند على أخلاق الإسلام وعلى مبادئه، والقائم برسالته، والمحقق لأماني رعيته، في جو يطبعه التقدير المتبادل، والتعلق المتين، والمحبة الثابتة، والحوار الدائم، النابع من الأصالة والمترتب عن حسن الطوية وسلامة الأهداف، والسلام.

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

**• • إنني من المدرسة الإسلامية، مدرسة الرسول عليه الصلاة والسلام التي تفضل الحوار على كل شيء وتجعل من الحرب آخر مرحلة للحوار • •**

جلالة الملك الحسن الثاني

# السَّيْفُ وَالقَلَمُ في ملحمة الصَّحراء المغربية

إعداد : الأستاذ عبد الحق المريني

تاريخ المغرب سلسلة من الملاحم الحربية والمعارك الضارية، خاضها المغاربة ليحافظوا على وحدة بلادهم، وليقفوا سدا منيعا أمام التسربات الأجنبية عبر شواطئه وليحموا الرسالة الإسلامية التي حملها لواءها إدريس الفاتح، ولينشروا ذيول هذه الرسالة في الأندلس شمالا، وفي الأقاليم الصحراوية إلى وادي السينغال جنوبا.

والمغاربة كما عرفوا ـ عبر تاريخهم المجيد ـ لا يركنون للاستسلام واليأس، وإنما دأبهم أن يصبروا ويصابروا ويستلهموا من ذخيرة إيمانهم القوي «روافد من القوة والبأس الشديد لمجابهة التحديات ومطاردة الانكسارات».

وشعراء المغرب لم يكونوا بمعزل عن قضايا بلادهم التاريخية ومعارك جيوشها وبطولات رجالها، بل كان قصيدهم سجلا لمفاخرها وملاحمها، وصورة وضاحة لتقاليد جنودها ومجاهديها العسكرية في معارك الشرف والدفاع عن الوطن والإسلام : الزلاقة، الأرك، وادي المخازن، تطوان، أنوال، أمغالا...

وبقي ـ إلى يومنا هذا ـ جنود المغرب وشعراؤه متمسكين «بتقاليدهم» العتيقة التي اشتهروا بها عبر تاريخهم الحافل بالأمجاد : الأولون متوثبون متحفزون واقفون سدا منيعاً أمام التحديات، حامون لوطنهم ولمقدساتهم من الأخطار المحدقة بها، والآخرون يرسمون لوحات شعرية للشهامة المغربية ويجلون للتاريخ الوقائع والخوارق المثالية، في سبيل الحفاظ على الوطن والدين والوحدة الترابية.

وهكذا بعد أن حققت المسيرة الخضراء المظفرة أهدافها المرجوة، دخلت قواتنا المسلحة الملكية إلى إقليمنا الصحراوي المسترجع من يد الإسبان واحتلت جميع الثكنات والمراكز العسكرية في أواخر شهر دجنبر من سنة 1975. إلا أن جيران المغرب الحاقدين عليه لم يهدأ لهم بال بعد هذا الانتصار الساحق، فتوغل جيشهم داخل التراب المغربي، وتصدت له قواتنا المسلحة الملكية بما عهد فيها من قوة وبسالة، وردّته على أعقابه منهزما في معركة «أمغالا» المشهورة (1976) التي يبعد موقعها عن تندوف بـ 880 كلم، وقد أسفرت المعركة عن خسائر جسيمة في صفوف الجيش الجزائري الذي ترك مائتين من القتلى وعددا كبيرا من الأسلحة الثقيلة والخفيفة. وتقدمت قواتنا إلى «تفاريتي» ودخلتها دخول الظافرين، وإلى بير لحلو وكلتة زمور والمحبس، وبذلك سيطرت قواتنا على جميع النقط

الإستراتيجية بالصحراء المغربية بعد انسحاب القوات المهاجمة منها مخلفة وراءها مجموعة كبيرة من الأسلحة والعتاد.

«إن القوات المسلحة الملكية ـ يقول قائدها الأعلى جلالة الملك الحسن الثاني بعد هذه المعركة ـ طلب منها الكثير، ولكن في آن واحد كان ذلك الكثير قليلا، لأنها قادرة على أن تعطي أكثر مما أعطت، طلبنا منها الكثير لأننا طلبنا منها التضحية لمدة طويلة في ظروف قاسية ومناخ صعب».

☆☆☆

وبقيت الحرب سجالا في الصحراء المغربية بين الجيش المغربي وقوات مرتزقة الجزائر المدربين والمؤطرين من طرف ضباط أجانب.

وفي 11 غشت من سنة 1979 دارت معركة حاسمة بين قواتنا وجيش من المرتزقة وهي معركة «بير أنزران» كانت من أكبر معارك الصحراء، تدخل فيها الطيران المغربي، وغار فيها على قافلة من 500 سيارة مصفحة يمتطيها العدو الغازي. واستشهد في هذه المعركة 125 من جنودنا الأبطال في يوم ذكرى معركة بدر، وترك العدو ـ في طريق انكساره ـ ما يفوق 500 قتيل بالإضافة إلى خسائره في العتاد والذخيرة الحربية.

«وستظل ـ يقول القائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية ـ موقعة «بير أنزران» في جبين الجيش الملكي والقوات المساعدة كتاج يدل على أن الجندي المغربي لازال ذلك الجندي المغربي الذي له قيمته النضالية المعروفة في الشرق والغرب...».

وبعد هذه المعركة دخل جيشنا إلى إقليم وادي الذهب، وضم هذا الإقليم إلى أقاليم المملكة، وأطلق على هذا الدخول «عملية قدر». وفي هذه الوقعة التاريخية ينشد الشاعر محمد الحلوي قصيدته اللامية التي يصف فيها كيف جر الأعداء ذيول الخيبة والتقهقر، وكيف تصدى لهم أبطالنا بكل شمم وإباء :

ذكرتنـــا يـــا أنـزران مـــلاحمــا
خضرا وأيــامـــا بهن طـــوالا
من ضـل عن وادي المخـــازن يلقنـــا
في ســـاح أنـــوال وفي أمغــــالا
جـــاؤوا يجرون الحـــديـــد بجحفـل
يمشي الهـويني شـــامخـــا مختـــالا
فتجرعـوا كـــأس المنـــايـــا مترعـــا
واستقبلـــوا من جيشنـــا أعـــوالا
ولـــولا فلـــولا خلفت أثقـــالهـــا
ومضت يـســابـق خطـوهـــا الآجـــالا
تركـــوا ضحــــايــــاهم وجروا خلفهم
فـــوق الثرى ـ من عـــارهم ـ أذيـــالا
مـــا كـــان أشـــأمـــه لقـــاء زلـزلت
فيــــه طـــلائـــع شرهم زلـــزالا

ثم يهدد الشاعر كل متسلط على المغرب وحدوده المشروعة بسوء المصير :

إنـــا قـــلاع شـــامخـــات لم تـــزل
تعي الخطــــــوب وتقهر الأهـــــوالا
وحـــــدودنــــا من يقتحم أبـــوابهـــا
يلـــق الحمـــــام مكشرا صـــــوالا
والنعـــل حـــاضرة إذا عـــادوا إلى
صحرائنـــــا ليكـرروا الأقفــــالا
والحرب لا تفني الشعـــوب وإنمـــا
تفنى إذا لم تنجب الأبطـــــــالا !

ويسجل الشاعر محمد عبد الرحمان الدرجاوي هذه المعركة في «سجل المفاخر المغربية» :

فـــأيـــام «أنزران» تظـل تـــاجـــا
على رأس الـزمـــان دليـل شـــان
تضـــاف إلى «المخـــازن» في سجـل
مليئ بـــالمفـــاخر والمعـــاني
سنجعلهـــــا ـ ونفخر ـ عيـــــد فخر
يـدوب مـدى الـزمـان عن العيـــان

☆☆☆

وتتوالى المعارك في الصحراء المغربية بين قوات الحق وقوات الباطل، ويبارك الله رباط قوات الحق والعدل، ويؤيده بنصر من عنده ويهزم رباط الباطل والعدوان، لأن «مرتزقته» يقاتلون بغير نجدة، ويخاصمون بغير حجة، ويصارعون بغير سند.

وتقوم معركة حاسمة أخرى : معركة «سمارة» (6 أكتوبر 1979)، ويبدأ هجوم الأعداء بمجموع حوالي من 5.000 مرتزق يمتطون 800 سيارة، معززين بالأسلحة الخفيفة والثقيلة وبالمدافع والقاذفات والصواريخ المزدوجة الفواهات.

وكانت المعركة حامية الوطيس، ودامية من خلال الالتحام الجسدي، وتدخلت نجدات القوات الجوية الملكية في المعركة، وتوالت غارات طائرات «الميراج» النفاثة مسددة إلى صفوف العدو الضربات القاسية. وكانت شجاعة ربابنتها تتحدى صواريخ «سام» وكانت رغبتهم في إصابة الأهداف بادية جلية.

وقد اعتاد المرتزقة أن يختاروا الليل لعمليات فرارهم، فلجأوا إلى تنظيم انسحابهم، ولكن تقهقرهم الليلي مزقته غارات الطائرات والقذائف على جميع المحاور. وتخلصت «السمارة» من براثين العدو لتبدأ المطاردة طوال الليالي والأيام الموالية. ولم يبق لعدونا أن عرق هزيمة وتمزقا بهذا الشكل العنيف. فقد خلف وراءه أزيد من 1000 قتيل و300 سيارة محطمة وعددا من الأسلحة الثقيلة، وسقط في ساحة الشرف من جانب المغاربة 121 ما بين شهيد وجريح.

لقد كانت «معركة سمارة» منعطفا خطيرا في هذه الحرب، فلم يسبق للعدو أن جهز مثل هذا العدد من المرتزقة والأسلحة، ولا استهدف هدفا بمثل هذه الأهمية، ولا نظم معركة تقليدية مثل هذه المعركة. إذ كان يخوض في السابق «حرب العصابات» التي تقتضي اختزال عدد المحاربين، واستعمال الأسلحة الخفيفة والتركيز على سرعة الحركة.

ولكن الله خيب مسعاه ورد كيده في نحره.

وقد أجاد الشاعر أحمد عبد السلام البقالي في وصف مراحل هذه المعركة الفاصلة بقصيدته الدالية :

أتـــوا بجنـــودهم بيضـــــا وســـودا
وســـــاقـــوا من عبيـــــدهم حشـــودا
أحــــاطـوا بــــالسمـــارة من ثـــلاث
وصبـوا النـــــار فيهــــا والحــــديـــــدا

وقـــد ربطـــوا إلى الآلات ربطـــــا
ليبقــوا صــــامــــدين لكم صمــودا
أتــوا ليحققــوا حلمـــــا قــــديمـــا
لأسيــــاد لهم كـــــانـــوا عبيـــــدا
فلمـــــا أفرغــوا مــــا في جعــــاب
لهم ترمي الصـــواعـــــق والرعـــــودا
تصـــــديتم لهم فحصـــــد تمـــوهم
طـــــلائـــــع أو قـــــوادم أو ردودا
خرجتم يــــا جنـــود اللــــــه فيهم
خنـــــاجر منهمـــــو تفري الجلـــــودا
وإذا كبرتمـــــــــو وجفت قلـــــــوب
عنــــاد الكفر جمـــــدهـــــا جمـــودا
فـــولـــــوا والصـــواعـــــق تقتفيهم
ويمم منهمـــــو النـــــاجي الحـــــدودا
وصلى جيشنـــــــــا للـــــــــه شكرا
وخر المـــؤمنــــون لـــــــه سجـــودا
وكلــل بـــالفخـــــار مجــــاهــــدونـــا
وشيعت الـــزغـــــاريــــد الشهيـــــدا

ووصف الشاعر محمد بن محمد العلمي كيف سفه الله أحلام الطامعين في هذه المعركة بقوله :

وللسمـــــارة قـــد جـــاؤوا بشرذمـــة
لكن غــدرهم ـ تــــاللــــه ـ لم يفــــد
لم يصمـــدوا حين لاقـونـــا بمعركـــة
بـل أصبحـوا طعمــة للنـــار والكمــد
وسفــــه الحــق أحــلامـــا لبــــاطلهم
فهم جنـوا لعنـــة التمـزيـق والحســـد

إن الجنـود جنـود اللــــه قـــد برزوا
للمـــارقين وفيهم صـولـــة الأســـد
إنـــا حصـــدنـــاهم حصـــدا وأجمعهم
صيدوا فلم يجدوا في الهول من سند
فر الأعـــادي ونـــار الحـق تمحقهم
محقـا فلم يفلحوا بـالعـد والعـدد

☆ ☆ ☆

وتشن قواتنا المسلحة الملكية في 3 نونبر 1979 عملية اكتساح هائلة لشرق الصحراء المغربية بحثا عن المرتزقة الذين اتخذوا الجيوب الصحراوية ملاجئ لهم، وشارك في هذه العملية ما بين 6000 و7000 جندي مغربي، وأطلق على هذه العملية : اسم «عملية أحد» تيمنا بمعركة أحد التي وقعت في عهد النبي ﷺ. وقد عززت هؤلاء الجنود الوحدات التي شاركت في معارك الجولان وسيناء، وكونت جميعها وحدة قتال متكاملة ومستقلة محمية من طرف طائراتنا الحربية، وتوجهت نحو الحدود الجزائرية، لتصد عن الحدود المغربية هجومات المرتزقة.

وقد وجه الشاعر محمد بن محمد العلمي «تحية شعرية» إلى هذه العملية العسكرية الرائعة يقول فيها :

يستوقف الوطن التاريخ في أحد
فيبعث الهمة الشماء في بلدي
إن الجدود بناة المجد في ثقة
قد أورثوه ضمير الأهل والولد
وعلموا تلك الأجيال غيرتهم
ونحن عن سنة الأبطال لم نحد
كان التحدي لنا رمزا نعز به
فنحن أهل النهى والعزم والجلد
إنا لشعب الفدا تعنو الصعاب له
أكرم بشعب شديد البأس متحد
نصون هذا الحمى من كل مرتزق
ونفتدي عرضه بالروح والجسد

وتتوالى الاعتداآت الشنيعة على سلامة حدودنا ووحدة ترابنا، وتواجه قواتنا هذه الاعتداآت بما عهد فيها من شجاعة وعزم وحزم وقوة. فيقول القائد الأعلى جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ـ الساهر الأمين على صيانة وحدتنا والدفاع عن مقدساتنا ـ عن هذا الموقف البطولي لقواتنا المسلحة الملكية : «فلولا يقظة قواتنا المسلحة الملكية والدرك الملكي وقواتنا المساعدة، ولولا صمودها ووقوفها سدا منيعا وحصنا حصينا، ولولا شجاعتها المنقطعة النظير وبطولتها التي سارت بها الركبان وتضحياتها بأغلى ما يضحى به الإنسان، لتم لأعدائنا ما يريدون من الاستيلاء على جزء عزيز من ترابنا، ولتحقق لهم ما يبتغون من تطويق بلادنا، إلا أن قواتنا ما فتئت تتصدى لكل هجوم غادر يصوب نحو أراضينا وكل عدوان غاشم يسدد إلى مختلف الجهات من جنوب مملكتنا بذكائها المعهود وحزمها المألوف، وشكيمتها القوية، وبأسها الشديد».

وهنا يكبر الشاعر مصطفى الطريبق عزيمة قواتنا الوثابة ووقوفها الصامد أمام تحديات خصومنا، وما تتحلى به في ساحات الوغى وحومات الصراع من أصيل الشيم الحربية، وعريق الفضائل العسكرية :

أكبرت قدرته فجئت موافيا
بتحيـة، والشعر عنها يعرب
من عهد إدريس وكل فعاله
شمس تشع ونورها لا يغرب
هو جيش تاشفين وجحفل طارق
من عن بطولاته لا يكتب
عن حوضه دوما يذود بمنعة
ويبيد أعداء البلاد ويشجب
يحمي الحدود بكل حزم ثابت
ويرد عدوان الخصوم ويغضب
سل أرضنا الصحراء كم أبدى بها
من صولة وشجاعة تستغرب
هو حارس الصحراء ليس بغافل
عنها فمن ذا من حماها يتقرب

ويشيد الشاعر عبد الواحد أخريف هو الآخر بالدور البطولي التي تقوم به قواتنا المسلحة الملكية بأقاليمنا

الصحراوية المسترجعة، لصد عدوان المعتدين، والتصدي لأطماع الطامعين، ومؤامرات المتآمرين في قصيدة له :

صحراؤنا قد أعدناها فغاظ لها
خصوم وحدتنا وانتابهم ألم
جروا علينا حروبا صاح صائحها
بباطل الحديث الكفر عندهم
الحق رائدها والعدل ديدنها
لذاك لا ينطوي في زحفها علم
وفي طليعتها جيش كأن له
من الحماية حصنا ليس ينهدم
وقاية الله ظل فوق وثبته
وعزمة الحسن الثاني له شيم
يخوض في مهمه الصحراء معتركا
لو خاضه الصيد ما فازوا ولا سلموا

ويتحدى الشاعر عبد الكريم التواتي هؤلاء المارقين المعتدين الذين يصطدمون في كل مرة - يهجمون فيها على ترابنا ويعتدون على حدودنا - بالقوة التي لا تخور والعزم الذي لا يلين والاقتدار التام على الثبات والصمود :

لا تسألونا نزوحا عن مشاهدها
فهي الدماء وأحشاء وأبدان
لا تسألونا نزوحا عن مرابعها
أيهجر الوطن المحبوب إنسان !؟
نحبها ونفديها بما ملكت
أرواحنا وحناياانا وأجفان
بئر أنزران وأمغالا وما شهدت
أرض السماري وساح الزاك برهان
والمحبس الصامد الأبطال شاهدة
ساحاته أنها روح وجثمان
على مشارفها نادت جحافلنا
الله أكبر أجيال وغدران
أسيافنا مشرعات لا غمود لها
هي المنايا : خطاطيف وغيلان
«فانطمونا» تحرق الأعدا وتمحقهم
فهي الصواعق «والميراج» عقبان
نقض مضجع من جاروا واعتسفوا
عقبى البغاة تباريح وخذلان

☆ ☆ ☆

ويحل شهر أكتوبر من سنة 1981 وتتعرض «كلتة زمور» إلى هجوم غادر قامت به عصابات المرتزقة المدججة بالمصفحات وبقواعد لإطلاق الصواريخ، وقد بلغ عدد أفرادها 3000 مرتزق، وقامت معركة صاخبة بين المرتزقة وجنود قواتنا البواسل الذين أمطروهم بوابل من قصف مدافعهم، تكبد في آخرها العدو خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد الحربي الثقيل واستشهد في صفوفنا شهداء أبرار. ودامت المعركة أسبوعا كاملا وكانت من أكبر معارك الصحراء وأشدها ضراوة، وقد تميزت منطقتها بالممرات الحلزونية المتداخلة وبأكمات صخرية سوداء أتاحت إقامة الكمائن الخطيرة التي عاقت تقدم قواتنا وعرقلت تحركاتها السريعة.

فانتصب الشاعر محمد الحلوي «يملي على التاريخ» أروع قصص البطولة والشهامة والإباء من خلال معركة «الكلتة» :

كالأطلس الجبار أو كالمارد
وقفت وقوف المغربي الصامد
تملي على التاريخ أروع قصة
لنضال شعب مستميت ذائد
وعلى روابيها أسود أقسمت
أن لا تدنسها ذئاب الحاقد
حتى إذا اقتحم العدو عرينها
ورمى معاقلها بجيش حاشد
فتحت مخازن نارها وصدورها
واستقبلت بالموت آلام وافد
حشدوا لها أقوى العتاد وعبأوا
لسقوطها الموهوم جهد الجاهد
حتى إذا أوهن النطاح قرونهم
واستصعبوا ضرب الحديد البارد

ولوا على أعقابهم ونسورنا
في الجو تمطرهم بموت قاصد
لا «سام» يرعبهم إذا ما يمموا
أهدافهم مثل القضاء الواعد
ومتى تخوفت النسور فلم تطر
في الجو خوفا من رصاصة صائد
يا يومها والشمس در شعاعها
ذهبا على ذهب الكثيب المائد
دوت مدافعها فزلزلت الربى
وأضاءت الصحرا بنور واقد
وتفجرت برك الجحيم كأنها
سيل من اللهب المطل الصاعد
وتلألأت الله أكبر صيحة
معصورة بفم وقلب واحد
فإذا الرمال مصارع مخضوبة
بدم الأشاوس والرعيل الرائد
وإذا البطولة في معالم كلتة
حدث على الإيمان أوفى شاهد
لم تشهد الصحراء يوما مثله
في حربها للأجنبي البائد
أبطال كلتة مشعل يزهو به
جيل المسيرة ما جدا عن ماجد

☆ ☆ ☆

وبإيحاء من جلالة الملك الحسن الثاني شيدت قواتنا المسلحة الملكية خطا دفاعيا وحزاما أمنيا يمنطق صحراءنا من جميع جوانبها، ويحمي مراكز الدعم والدفاع المبثوثة في ساحاتها ويحصن الوحدات المرابطة بها.

ويمتد هذا الحزام أو هذا الستار الترابي الكبير من المحيط الأطلسي غربا إلى جهة الشرق نحو موريتانيا، ثم ينحرف شمالا في اتجاه مواز للحدود الجزائرية.

ويتكون من عوائق ترابية عالية محمية بحقول الألغام والرادار والأسلاك الشائكة وآلات الإنذار الالكترونية، وتحرسه عدة وحدات متنقلة عبر ساحات شاسعة الأطراف. وهو ليس ـ كما يقول بعض المحللين ـ كمثل تلك الخطوط الدفاعية المشهورة في تاريخ الحروب والمعارك، مثل خط «ماجينو» بفرنسا، أو خط «بارليف» بصحراء سيناء. فهذان الخطان كانا دفاعيين فقط. أما الحزام الأمني المغربي فهو يتميز بكونه خطا دفاعيا وهجوميا في آن واحد، حيث يشتمل على مراكز الدعم، وتتمركز فيه وحدات سريعة التحرك والمباغتة لا يستطيع العدو أمامها أن يتجمع على مهله للقيام بهجوماته المرتقبة.

وقد أعد هذا الجدار هذا الإعداد الضخم لإحباط المناورات العدوانية والهجومات السافلة التي تقوم بها عصابات البوليساريو المكونة من المرتزقة العاطلين المأجورين، ومن عناصر أجنبية تنتمي إلى الساحل وتعاني من الجوع والحرمان أشدهما وتضع نفسها في «فم الذئب» كما يقال.

وهؤلاء المرتزقة الذين تقف قواتنا المسلحة في وجههم سدا منيعا ـ ليسوا فقط معتدين آثمين، بل هم أيضا في ذات الوقت ـ يقول جلالة الملك نصره الله ـ زنادقة وملحدون «إذ أنهم لا يتركون مناسبة مقدسة جعل الله منها أيام تراحم وتواصل وطمأنينة كحلول عيد الأضحى أو عيد المولد النبوي الشريف أو عيد الفطر دون أن يتسببوا في إراقة الدماء. ولكن عقاب الله تعالى وعذابه لهم كانا شديدين في كل مرة أقدموا فيها على ارتكاب هذه الانتهاكات السافرة».

فقواتنا المسلحة الملكية تقف في وجه هؤلاء في أيام الأعياد أو في غيرها ـ سدا منيعا،متحلية بالإيمان القوي وبالشجاعة والإقدام، وبالمعنويات العالية وبالروح القتالية العريقة وبالمهارة واليقظة للدفاع عن المكتسبات الوطنية وللحفاظ على الوحدة الترابية ولضمان الأمن والاستقرار في أقاليمنا الصحراوية المسترجعة.

ويردد الشاعر ج عمر بوستة أصداء هذا الجدار الأمني وحنكة رجاله وجنوده، وما أثاره من إعجاب وإكبار عبر العالم بقوله :

رجال أقاموا الجدار وباتوا على أمن صحرائنا ساهرين

وكـانـوا الـوفـاء وكـانـوا الرجـاء
على كسر كيـد العـدا قـادرين

☆ ☆ ☆

يحـاول خصمهـو عبثـا
فلن يطفئ الشعلـة الخـالـدة
فشلت يـداه وخر صريعـا
فلن ترضخ القـوة الصـامـدة

☆ ☆ ☆

أبـاة عـزيمتهم لن تلين
بنشـوة نصرهم يفخرون
مفـاخرهم كتبت للخلـود
مـآثرهم تتحـدى القرون

☆ ☆ ☆

على الخـط خـط الـدفـاع وقـوف
تصـد صـدورهم القـذفـات
وتـقي الرمـال دمـاءهمـو
فتخضب منـه الأراضي الـمـوات

☆ ☆ ☆

رأيت الجـدار جـدار الصمـود
جـدار أقـامـه جيش قـوي
فـإنـه سـد منيـع عتيـد
وجيش لحب الإمـام وفي

وما فتئ شعراؤنا يتحدون المهاجم الغادر على مدى معارك الصحراء، وينعتونه بأبشع الأوصاف، ويكيلون له ما في «كنانتهم» من نبال الهجو والازدراء، بعدما فتكت به «نبال» القذائف النارية، ويفتخرون عليه بما أفاء الله على جنودنا من قوة وبأس شديد وجرأة نادرة في التضحية والاستشهاد دفاعا عن الحق.

يقول الشاعر المرحوم عبد الرحمان الدكالي :

إن لنـا دينـا عظيمـا وعـزة
وحصنـا حصينـا مشمخرا مـوقرا
وجيشـا قـويـا للبـلاد وجنـدنـا
لـه في مجـال الحرب أكثر من ذكرى
رجـال أبـاة قـوة وشجـاعـة
يريـدون كسب المجـد والعـز والنصرا
يـذيقـون كـأس الـذل كـل مهـاجم
ومغتصب لـلأرض الـذي قـد تنكرا
وجـار على الصحراء رغم جـواره
وأمعن في جرم وقـد ركب الخسرا
وان لنـا صحراءنـا وبـلادنـا
ولن نستهين الأرض والجـو والبحرا

ويـذكر الشاعر عبد الكريم الوزاني أولائك، الذين وصمهم الله بضعف الذاكرة، بما حبانا الله من صدق العزيمة وقوة الشكيمة وهول العراك ومضاء السلاح :

الحرب نركبهـا كـأي مطيـة
نـقي المنيـة من تكـابر وادعى
إنـا جنـود لا نهـاب ضرامهـا
من دال بـادت ريحـه وتشفعـا
الرمـل يشهـد عن براعـة جنـدنـا
والنخـل أثمر في القفـار وأترعـا
ولكم ركبنـا البرق نستبـق العـلا
نطـوي هضـاب الرمـل نرسم مرتعـا
إن كنت جـارا فـالجـوار سماحـة
ومن البليـة أن تجـاور بلقعـا
إن شئت مـارست السيـاسـة ملهمـا
أو شئت مـارسنـا الطعـان وأفظعـا
لن يرجـع التـاريـخ وزرا للـورى
فـاقرأ رقيمـك واتخـذ لـك مرجعـا

ويعطي الشاعر المهدي الطود درسا في التاريخ للذين لا يستخلصون من أحداثه الموعظة والعبرة والذكرى.

من مر في وادي المخـازن فليـل
مـا بـال أشلاء هنـاك تبـدد
ولمن غـدت لشبـونـة وحليفهـا
تعنـو وفي القصر الكبير المقـود
ومراقـد الأبطـال أصـدق شـاهـد
خبر اليقين لـدى جهينـة مسنـد

عـــدتم وذكر القـــادسيـــة خلفكم
وأمـــامكم يـذكى الحمـــاس ويصعـد
وبعثتم اليرمـــوك مرعبـــة لهـــا
عـــود على بـــدء تئن وترعـــد

ويرسلها الشاعر مصطفى طريبق صيحة مدوية باسم كل جندي مغربي في وجه كل عنيد متنطع أعمى الله بصيرته وطمس قلبه :

إنني للبـــلاد حصن منيـــع
أغتـــدي في حمـــاســـة للجهـــاد
لست أخشى الـــوغى ولا أتـــوانى
إن دعـــاني للـــذود صـوت البـلاد
أصرع المـــوت في انضبـــاط وعـــزم
وإبـــاء يهـــاب منـــه الأعـــادي
في الفيـــافي وفي البحـــار أراني
مثـــل نـــر وفي الـمـــاء أنـــادي
أمحـــق الشر أخـــدم الحـــق عبـــدا
أدفـــع الضيم والأذى في انقيـــاد
هكـــذا همتي سلـــوا إن تريـــدوا
من قـــديم أنـــا زعـــاف الأعـــادي
ولأجـــل البـــلاد أحيـــا وأمشي
دائمـــا في شجـــاعـــة للجـــلاد

**هذا غيض من فيض !!!**

هذا الفيض الذي طبعه جلالة الملك الحسن الثاني القائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية بطابع عبقريته العسكرية الفذة التي لا يتوفر عليها إلا قادة الحروب الجهابذة. فجلالته هو مسطر معارك الصحراء، وهو خالق استراتجيتها الحربية التي منها يستوحي ضباط القوات المسلحة الملكية المرابطة في صحرائنا تخطيطاتهم الدفاعية والهجومية والمعتمدة أساسا على الحركة والتنقل والدفاع والهجوم في آن واحد. وهو مبدع الحزام الأمني والخط الدفاعي الذي هو ثمرة من ثمرات فكره الخلاق، ورأيه الحصيف ودليل قاطع على علو كعبه في تسطير التخطيطات الحربية التي اندهش لها المراقبون العسكريون العالميون أيما اندهاش.

ومما زاد في فوز العمليات العسكرية التي قامت وتقوم بها قواتنا المسلحة الملكية بأمر من قائدها الأعلى وبتوجيه من جلالته أنها لا تقوم بها بكل إخلاص وحماس وإيمان فقط، ـ كما قال جلالته ـ بل بذكاء ووعي، وذلك هو الرصيد الأثمن لأن الوعي هو الرأي والرأي قبل شجاعة الشجعان !

«فالله نسأل ـ يدعو جلالة الملك القائد الهمام والموفق الملهم ـ أن يمد بنده وعونه قواتنا الواقفة في الصحراء سدا منيعا وحصنا حصينا، الذائدة عن ترابنا بتفان واستماتة. وهو المسؤول كذلك أن يشمل بكريم رحمته ومغفرته شهداءنا الأبرار، ويسكنهم فسيح جناته مع المجاهدين الأخيار».

نصر اللـــه جيشنـــا وأعـــانـــه
وحمـــاه من كـــل شر وصـــانـــه
إنه سميع الدعاء !



من المنجزات الحسنية :

# دار الحديث الحسنية

الدكتور محمد فاروق النبهان

**اشتهر المغرب خلال خلال تاريخه الطويل بأنه دار إسلام، في مواقفه الصامدة دفاعا عن أرض الإسلام، وفي اعتزازه بالقيم والتقاليد الإسلامية، وفي احتضانه لأقدم منارة علمية في العالم الإسلامي، هي جامع القرويين، الذي كان منارة الفكر في الغرب الإسلامي لمدة قرون وفي رحابه عاش كبار العلماء، الذين سطروا أروع الصفحات في التراث الإسلامي، تفسيرا ورواية واستنباطا وتأصيلا...**

**وعندما استعاد المغرب استقلاله بعد مرحلة قاسية من الجهاد والكفاح والتحدي والتضحية انطلقت الأماني بعيدا تسترجع الماضي وتستعيد أمجاده، وبدأت رحلة البناء قوية طموحة...**

## تأسيس دار الحديث الحسنية :

وفي ليلة مباركة من شهر رمضان في عام 1964 ألقى أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله خطاباً أعلن فيه عن تدشين دار الحديث الحسنية، وأشار جلالته خلال ذلك الخطاب إلى ثلاثة حقائق أساسية :

**الحقيقة الأولى :** فتوحات المغرب العلمية لا تقل عن فتوحاته السياسية، في تدعيم مكانة المغرب في إفريقيا والعالم العربي والإسلامي، وفي تمكين نفوذه، ودعم جهوده، فالمغرب كان موطن العلم والعلماء، وكان العلماء هم جنده الفاتح، يبسطون سلطانه، ويعلون رايته...

**الحقيقة الثانية :** الاعتزاز بالتراث الإسلامي والمغربي، والدعوة إلى العناية به، لكي يظل ويبقى، لأنه الثروة الحضارية التي لا تفنى، وهو الشاهد الحي على عظمة تاريخ المغرب، فالتراث شاهد لا يزور التاريخ، ولا يبالغ فيما يرويه من روايات، فأخباره ليست رواية ولا تحتاج إلى سند ودراسة رجال، وإنما هي جهد مدخر، وكنز مشاهد ومقروء...

**الحقيقة الثالثة :** الدعوة إلى ضرورة تجديد التراث لكي يتطور ويثبت أمام مختلف التيارات الفكرية والاكتشافات العلمية، وهذه دعوة كريمة وسامية تدل دلالة

أكيدة على عمق فهم جلالة الملك الحسن الثاني لقيم الإسلام، وإيمانه المطلق بعظمة دور الفكر الإسلامي في صياغة الفكر المغربي، لكي يكون أصيل المعالم، مغربي الملامح، واضح الانتماء إلى أرضه وشعبه وتاريخه وأمجاده...

والدعوة إلى التجديد دعوة رائدة وصادقة ومخلصة، لأن التجديد هو أداة البقاء، ولا بقاء لفكر إذا لم تصاحبه يد التجديد في كل جيل، والتجديد في هذا المجال هو الإثراء والإغناء، لكي يظل التواصل قائما بين الفكر والإنسان، فإذا انعدم التجديد توقف التواصل، وأصبح الفكر جزءاً من التراث والتاريخ، والتاريخ أمس لا يعود.

☆ ☆ ☆

**رحلة البحث عن الطريق :**

وانطلقت دار الحديث الحسنية في رحلة البحث عن الذات، لكي تجد لنفسها طريقاً يقودها إلى غايتها المرجوة، وهي بين أمل كبير يطاردها في كل حين، ويلح عليها أن تكون خطواتها في مستوى ذلك الأمل، وخشية مقترنة بالخوف من الزلل والسقوط، وما أقسى السقوط في رحلة الإنسان الطويلة، حيث تمر القوافل متلاحقة، وتنظر إلى أطراف الطريق وهي ترفع أيديها مودعة ومشفقة...

واستطاعت دار الحديث الحسنية بفضل الرعاية السامية أن تجتاز المنعطفات الصعبة، وأن تؤكد أنها في مستوى القدرة على العطاء العلمي، وكانت تريد أن يكون عطاؤها هو الإنسان في الدرجة الأولى، لأن الإنسان هو أداة التجديد...

وأهم ما كانت تحرص عليه المؤسسة : تكوين الشخصية العلمية المؤهلة للقيام بدور الريادة الفكرية في مجتمع محتاج إلى رواد فكر يشقون طريقه، وينيرون معالم الطريق، لكيلا يضل عن الهدف ولا يبعد عن الغاية، ومجتمعنا العربي والإسلامي اليوم يحتاج إلى رواد يحسنون هدايته إلى غايته، بالعلم والعقل، وهما أداة التجديد، فإذا انعدم أحدهما أو كلاهما ضلت القافلة طريقها، وما أقسى ما تعانيه الأمم عندما يجلس أمام مقود عربتها أفراد لا يحسنون التدبير، فتندفع القافلة في منحدرات خطيرة، وتتيه في شعب التلال والجبال، وقد تظل في حالة التيه تبحث عن الطريق وهي غير بالغة إياه ولا مهتدية إليه...

وأمة تبحث عن الغاية مهتدية بالعقل والعلم، لابد من أن تبلغ غايتها، ومن اهتدى بالجهل قاده الجهل لا محالة، إلى الكهوف المظلمة، وأمتنا تبحث عن ذاتها بعد تيه طويل، ومن الطبيعي أن يختلف الرأي وتتشعب الاجتهادات وتتباين الرؤى، إلا أن من الضروري أن لا يكون المنعطف هو الغاية، وألا نضيع الوقت في نقاش طويل، أخطر ما فيه أن ننسى الغاية، ويستقر بنا المقام في بداية الطريق، في الوقت الذي تعبر فيه القوافل محدقة بإشفاق فيما تراه من قصور في النظر، وانصراف عن الغاية...

والاختيار العلمي هو الاختيار الأسمى للمجتمعات النامية، لأن العلم هو الطريق الوحيد لتكوين الإنسان، وللنهوض بمستوى تفكيره ونضجه وأدائه وعطائه، ولا حضارة إلا بالإنسان، لأن الإنسان هو مصدر القرار، فإذا كان القرار صحيحاً اختارت الأمة طريق التقدم، واختزلت المراحل، وبذلت جهدها في سبيل عمل منتج لا تندم عليه، ويبرز أثره واضحاً في حياتها ومستقبلها...

ومن هنا يبرز دور دار الحديث الحسنية كمؤسسة علمية تحرص على تكوين القيادات الفكرية والكفايات العلمية، القادرة على تأدية دورها الثقافي والتكويني في المؤسسات العلمية، وهو هدف صعب المنال، لأن التكوين أشق من التعليم، فالتكوين يستهدف صياغة الإنسان بأفكاره واستعداداته ونشاطه وحركته ونبضاته، لكي تكون كلمته حية تسري في الوجود كله، لأن الكلمة الميتة تميت الإنسان، والعلم إذا لم يستطع أن يوقظ الإنسان فهو والجهل في درجة سواء، لا يمتاز أحدهما عن الآخر بفضل، فما فضل العلم إلا لأنه أداة الإنسان للمعرفة، والمعرفة تقود إلى اليقظة، واليقظة هي الحياة...

☆ ☆ ☆

## الرسائل والأُطروحات العلمية :

استطاعت دار الحديث الحسنية أن تعد مجموعة من الأبحاث العلمية، بعضها تم نشره داخل المغرب أو خارجه، والبعض الآخر لم ينشر بعد، وهذه الأبحاث والدراسات تختلف وتتباين بحسب الجهد المبذول في إعدادها، من أبحاث ممتازة إلى أبحاث عادية، وهذا أمر طبيعي في المؤسسات العلمية، إذ لا يمكن أن تكون الأبحاث في مستوى واحد، لاختلاف قدرات الباحث العلمية، ولاختلاف القيمة العلمية للبحث من حيث الجدة والأصالة، إلا أننا نستطيع التأكيد بأن مستوى الدراسات والأبحاث في مستوى جيد، وهناك جهود لتحسين مستوى هذه الأبحاث...

ويوجد الآن في خزانة دار الحديث الحسنية أكثر من مئة بحث ودراسة، ومعظمها صالح للنشر.

وهناك تركيز على الجهد الذي بذله علماء الغرب الإسلامي، حيث إن جهدا صادقا قد أسهم به علماء المغرب والأندلس، وأضافوا لبنات حقيقية إلى ذلك الصرح الذي أقامه علماء الإسلام في المشرق...

ولو رجعنا إلى الخزانات العلمية، لوجدناها حافلة بالمخطوطات النادرة والنفيسة، وهي كنوز علمية جديرة بالدراسة والاهتمام، ومن الطبيعي أن ينصرف الاهتمام إلى دراسة هذه المخطوطات وتحقيقها...

وأستطيع القول بأن بعض الأبحاث في مستوى التميز والتفوق، جهدا ومنهجا وأصالة، ومع هذا فإن إدارة المؤسسة تترك أمر التقويم العلمي للأساتذة المختصين الذين تناط بهم مهمة الإشراف والمناقشة، وهم أحق بالتقويم وأقدر عليه، بعد دراسة الأبحاث العلمية وتسجيل ملاحظاتهم بطريقة دقيقة...

ومن الأبحاث العلمية التي نشرت ما يلي :

### 1 - الأُطروحات :

- العرف في المذهب المالكي للدكتور عمر الجيدي.
- حكم الأسرى في الإسلام للدكتور عبد السلام الإدغيري.
- مدرسة الإمام البخاري في المغرب للدكتور يوسف الكتاني.
- منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي للدكتور صلاح الدين أدلبي.
- عمل اليوم والليلة للإمام النسائي تحقيق ودراسة للدكتور فاروق حمادة.

### 2 - رسائل الدبلوم :

- المدرسة القرآنية بالمغرب للأُستاذ عبد السلام الكنوني.
- رباعيات الإمام البخاري للأُستاذ يوسف الكتاني.
- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية للأُستاذ المهدي الوافي.
- منهج علماء المسلمين في الجرح والتعديل للأُستاذ فاروق حمادة.
- محمد بن وضاح القرطبي للأُستاذ نوري معمر.
- إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك للونشريسي تحقيق الأُستاذ أحمد الخطابي.
- مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور للأُستاذ عبد الهادي الحسيسن.
- الحياة الفكرية بشفشاون خلال القرن العاشر للأُستاذ عبد القادر العافية.
- الحركة العلمية في سبتة في القرن السابع الهجري للأُستاذ إسماعيل الخطيب.
- وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية للأُستاذ محمد بن معجوز.
- أصول المسيحية في القرآن الكريم للأُستاذ داود علي الفاضل.

وهناك أبحاث أُخرى لم تنشر بعد، ومن المتوقع أن تنشر في المستقبل، وأذكر منها الأبحاث التالية :

### 3 - أُطروحات دكتوراه :

- بقي بن مخلد شيخ الحفاظ بالأندلس للدكتور معمر نوري.

- الناسخ والمنسوخ لأبي بكر ابن العربي المعافري للدكتور عبد الكبير العلوي المدغري.
- قواعد الفقه للمقري للدكتور محمد الدردابي.
- رسالة القضاء دراسة وتحقيق للدكتور أحمد سحنون.
- منهج الاستثمار في ضوء الفقه الإسلامي للدكتور علال الخياري.
- علم العلل بالمغرب للدكتور إبراهيم بن الصديق.
- مدى تأثر قانون الالتزام في قانون الالتزامات والعقود المغربي بالفقه الإسلامي للدكتور حمداتي شبيهنا ماء العينين.
- الحافظ ابن سيد الناس أبو الفتح اليعمري حياته وآثاره وتحقيق أجوبته للدكتور محمد الراوندي.
- المصنفات المغربية في السيرة النبوية للدكتور محمد يسف.

**بعض رسائل الدبلوم :**

- الحسبة في الإسلام.
- ألواح جزولة والتشريع الإسلامي.
- سيدي محمد بن عبد الله وآثاره العلمية والإصلاحية.
- الفقيه أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي.
- الجرح والتعديل في المدرسة المغربية للحديث.
- دور الحديث في الإسلام.
- الصحابة الشعراء.
- تقييد وقف القرآن للإمام الهبطي.
- تحقيق المذهب للباجي.
- ابن عرضون حياته وآثاره.
- قانون التأويل لابن العربي.
- يحيى بن يحيى الليثي وروايته للموطأ.
- الرواية المغربية للسيرة النبوية.
- الإمام أبو عبد الله المساوي.
- تحقيق مسائل ابن رشد.
- اختلاف القرآت وأثره في التفسير.
- نظرية الأخذ بما جرى عليه العمل.
- دراسة عن إقطاع الأراضي وتطبيقاته في الدولة المغربية.
- المذهب المالكي في نيجيريا.
- البرهان في ترتيب سور القرآن.
- أحكام العميان في الفقه الإسلامي.

**النصوص القانونية الخاصة بدار الحديث الحسنية :**

استطاعت دار الحديث الحسنية أن تستكمل نصوصها القانونية، المنظمة للدراسة فيها والمحددة للشهادات التي تسلمها، وهذا عمل احتاج إلى جهد كبير، لأن المرسوم المنظم للدراسة والامتحانات تأخر إعداده، بالرغم من أن المؤسسة كانت تنفذ مشروع ذلك المرسوم وتأخذ به...

وأول النصوص القانونية المرسوم الملكي المؤسس للدار، رقم 68/187 الذي صدر بتاريخ 11 جمادى الأولى 1388 الموافق 8 غشت 1968، ثم صدر مرسوم وزاري رقم 62، 2.73 عن السيد الوزير الأول، يحدد قائمة الشهادات التي تمنحها المؤسسة..

وأخيرا جاء المرسوم الأخير رقم 2.83.385 بتاريخ 30 شوال 1405 هـ (19 يوليوز 1985) المحدد لنظام الدراسات والامتحانات لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة في العلوم الإسلامية..

ونص المرسوم على كل ما يتعلق بكيفية الدراسة والمواد العلمية ومراحل الدراسة وشروط التسجيل ونظام الامتحانات والإشراف والمناقشة، واعترف بكل الامتحانات والشهادات والمقررات التي اتخذتها إدارة الدار قبل نشر هذا المرسوم...

ومن واجبي أن أُشيد بالتعاون الجيد الذي يقوم بين دار الحديث الحسنية والمؤسسات الرسمية المرتبطة بها الدار إداريا وماليا وتربويا، وأهمُّ تلك المؤسسات الوزارة المشرفة على المصالح الإدارية والمالية للبلاط الملكي، ووزارة التربية الوطنية، ومديرية تكوين الأطر، والقسم

الثقافي بوزارة الخارجية والتعاون، وكليات جامعة القرويين، وجميع الكليات المغربية.

وهذا التعاون أتاح لدار الحديث الحسنية أن تستكمل وضعها القانوني، وأن تنظم شؤونها بطريقة مناسبة...

**الأقسام العلمية :**

تشتمل دار الحديث الحسنية على شعبتين رئيسيتين :

**الشعبة الأولى :**

**شعبة علوم القرآن الحديث،**

ويتخصص الطالب منذ دخوله إلى المؤسسة في إحدى مادتي التخصص، ويقبل في هذه الشعبة الطلبة الحاصلون على إحدى شهادات جامعة القرويين، بالإضافة إلى الطلبة الحاصلين على شهادة الإجازة في كلية الآداب من شعبتي الدراسات الإسلامية أو اللغة العربية وآدابها...

**الشعبة الثانية :**

**شعبة الفقه الإسلامي وأصوله،**

ويتخصص الطالب في مواد التخصص الفقهي أو الأصولي، ويقبل في هذه الشعبة الطلبة الحاصلون على إحدى شهادات جامعة القرويين أو شهادة الليسانس في العلوم القانونية...

وحرصت المؤسسة على قبول الطلبة من الكليات الجامعية، شعبة اللغة العربية وشعبة العلوم القانونية لتحقيق غايتين :

**الغاية الأولى :** تكوين أطر علمية لتدريس المواد الإسلامية في كلية الآداب، والمواد الفقهية والأصولية في كلية الحقوق، لأن دار الحديث الحسنية هي المؤسسة الوحيدة التي تمنح شهادة دكتوراه الدولة في العلوم الإسلامية في المغرب، ومن واجبها أن تراعي حاجات الجامعات المغربية.

**الغاية الثانية :** الاستفادة من الأطر الجامعية المؤهلة علميا لمتابعة الدراسة الإسلامية، بهدف تشجيع النماذج، وتحقيق التفاعل بين مختلف التيارات الثقافية.

**مجلة دار الحديث الحسنية :**

أصدرت دار الحديث الحسنية مجلتها السنوية، وهي مجلة متخصصة في مجال البحث العلمي، واستطاعت بفضل جهود المشاركين في إعدادها أن تأخذ موقعها بين المجلات العلمية الرصينة التي اعتمدت كمراجع للبحث العلمي، وصدر منها خمسة أعداد.

وسوف يصدر العدد السادس قريبا...

ويقوم منهج المجلة على أساس تشجيع البحث العلمي، في ميادين الفكر الإسلامي، ونأمل أن تكون هذه المجلة من المجلات العلمية الرائدة والمتخصصة، لأن البحث هو أداة المعرفة، وأمتنا تحتاج في هذه المرحلة من تاريخنا إلى أن تعتمد أسلوب البحث كمنهج للمعرفة، وكأسلوب للتطوير والتجديد.

ونشرت المجلة في أعدادها عدداً كبيراً من الأبحاث العلمية الرصينة، في الدراسات القرآنية والحديثية والفقهية والأصولية، بالإضافة إلى بعض الدراسات القانونية المقارنة مع الفقه الإسلامي، وبعض الدراسات في الحضارة الإسلامية...

ولو رجعنا إلى العدد الأخير من المجلة لوجدنا مجموعة من الدراسات الموضوعية الجادة، كالبحث الذي أعده الأستاذ سعيد أعراب عن المحدثين المغاربة في موسوعتي ميزان الاعتدال للذهبي ولسان الميزان للحافظ ابن حجر العسقلاني، وقد أرخا لفترة ما بين عام 150 هـ / 650 هـ، وترجما لأكثر من ستة آلاف ترجمة، وقام الأستاذ المحقق سعيد أعراب بتجريد التراجم المغربية، وصحح بعض ما ورد فيها من تحريف.

وكتب الدكتور عمر الجيدي عن ظهور علم التوثيق في المذهب المالكي وتطور هذا الفن عبر التاريخ الإسلامي.

وهناك دراسات عن تعدد الروايات والأقوال في المذهب المالكي، وعن المزارعة، وأبحاث فقهية أخرى، وهناك دراسات عن تجارة الرق في إفريقيا وعن الحركة العلمية في العصر الموحدي، وتطور المذهب المالكي في نيجيريا.

## دار الحديث والعهد الحسني :

وتجد دار الحديث الحسنية إحدى المنجزات الحسنية الموفقة والمعبرة عن إيمان جلالة الملك الحسن الثاني بدور الإسلام في تكوين الشخصية المغربية وأثره في تميز هذه الشخصية، فكريا وثقافيا وأخلاقيا، ولا يمكن تجاهل دور الثقافة الإسلامية في تكوين ملامح الثقافة المغربية في كل جوانبها.

ومن جانب آخر فإن رعاية جلالته لدار الحديث الحسنية يؤكد إيمان جلالته بدور الثقافة في تكوين المواطن، فالثقافة شعلة مضيئة، والمجتمعات الواثقة من خطواتها لا تخشى من الثقافة، لأن الثقافة تحمي المواطن من خطر الانزلاق في مهاوي الانحراف، والمجتمع الأكثر ثقافة هو المجتمع الأكثر استقرارا.

وسوف تظل دار الحديث الحسنية إحدى أهم منجزات العهد الحسني المليء بالمنجزات العلمية، لأن عطاء هذه المؤسسة سيظل واضحا لمدة قرون، وسوف يقرأ الجيل المقبل والأجيال اللاحقة ما يعده هذا الجيل من أبحاث ودراسات، وسوف يحكمون علينا من خلال ما نكتبه لهم من رسائل، فإن كانت رسائلنا لهم في مستوى العطاء الفكري الجدير بالتقدير أثنوا على جهودنا وحمدوا لنا ما قمنا به، وإن كانت رسائلنا لهم ليست في مستوى العطاء المتميز حكموا علينا وعلى عصرنا بالتخلف، وحكم الأبناء والأحفاد على الآباء والأجداد حكم عادل ومنصف، فليس من عادة الأحفاد أن ينكروا فضل الأجداد، إلا إذا تخلى الأجداد عن مسؤولياتهم المقدسة، وعندئذ لا خيار، فمئات المشاعل الخافتة لا تنير الليالي المظلمة، وجيلنا إذا لم يوقد في كيانه نور الحق والمعرفة، من خلال ما يبذله من جهد وعمل، فليس من حقه أن يطالب الأجيال بأن تعترف له بفضل موهوم، فالفضل لا يخفى أثره، لأنه نور، والنور يطارد الظلام، وينشر في الأرض أشعة الشمس التي تبعث الحياة في كل الكائنات الحية...

**من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله**

**وإذا كان سلفنا الصالح قد قاموا بالدور الحضاري الذي ألقاه الإسلام على عواتقهم أحسن قيام، حسبما أدركوه وتصوروه، وعلى النحو الرائع الذي أبدعوه وابتكروه، فإن ذلك يدفعنا إلى مواصلة نفس الدور، لكن على نحو جديد ونمط فريد، يتناسب مع معطيات هذا العصر.**

# نحو مسيرة ثقافية في ضوء الفكر الحسني

الدكتور محمد الكتاني

إن الناظر في تاريخ المغرب القريب والبعيد يتجلى له بوضوح أن الشخصية المغربية تمتعت باستقلالها عبر العصور، وتحدت كل الفاتحين والغزاة، معتصمة متأبية على الخضوع أو التبعية.

ولا يمكن تفسير هذا التاريخ بغير إحساس عميق لدى المغاربة قديما وحديثا بشخصيتهم. وآية ذلك أننا في كل ما نخطب ونكتب ونذيع ونتحدث أثناء المناسبات الوطنية إنما نتحدث عن هذا الإحساس بشخصيتنا، وهو إحساس لا تزيده الأحداث والتحديات إلا عمقا ورسوخا.

وما من شك في أن تقويم منجزات المسيرة الوطنية منذ بداية عهد الاستقلال إلى اليوم ظل يرتكز على المعطيات المادية، أقصد المنجزات، الماثلة للعيان في كل مرفق من مرافق حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لأن الناس لا يلمسون التقدم والتنمية الاجتماعية وازدهار الشخصية الوطنية إلا من خلال الأرقام والإحصائيات والأبنية والمنشآت. وهو تقويم لا نشك في أنه مظهر أساسي للتعبير عما يتحقق وينجز، ولكن الاكتفاء به في تقويم الإنجاز الوطني بمعزل عن الواقع الروحي والثقافي والازدهار النفسي للأمة خلل أو «اغترار بالمظاهر وانخداع» بالأرقام.

وأخشى أن يكون المنطق السياسي قد طغى على المنطق العلمي الموضوعي أو الشمولي. فكان من نتائجه أن أصبحنا ننظر بعين التضخيم إلى أشياء، وبعين التحقير أو الاستهانة إلى أشياء أخرى.

ومن ضمن ذلك أن ترى بعضنا يهتم بأشياء يعطيها من الدلالة والتفسير ما ينكره آخرون، ولا يزنون له وزنا أو يقدرونه قدرا.

وآخر ما يتحدث عنه السياسي المحترف هو الثقافة بمفهومها العميق، وإن كانت السياسة الحصينة اليوم، أو علم السياسة يرقى إلى التخيل الشمولي للأوضاع الإنسانية والاجتماعية، فيعتبر التخطيط للثقافة أعمق ما في علم السياسة من تدبير وتوجيه وتحسب للمستقبل.

أشير إلى هذه الحقيقة في البداية لأنني أخشى أن تكون الثقافة من تلك القيم التي نتحدث عنها في معارض القول من دون أن نعطيها الاعتبار الحقيقي من حيث التحليل والتقويم. وحتى عندما نتحدث عنها يشغلنا فيها الشكل عن المضمون، والقشور عن اللباب. وأدعى من ذلك للإشفاق أن ترى الناس لا يتحرجون من تناولها بالتحليل والتحقيق والنظر وإبداء الرأي، يصدرون الأحكام المطلقة والتعميمات المضببة، والتقديرات الجزافية. وهم ليسوا من

أهلها، ولا لهم حظ من تخصص في شؤونها. إنهم لا يهتمون بأمرها كما يهتمون بالمسائل المادية التي توزن عندهم بميزان الذهب، وتحسب فيها مقادير الربح والخسارة بكل ما يستطاع من الخبرة والعلم والدراية. بل ترى أحدنا في شؤونه المادية لا يكتفي بما له من خبرة، بل يحرص كل الحرص أن يسأل أهل الخبرة ممن هم أكفى منه كفاية وأنفذ رأيا. وهو يعترف في هذا الميدان للمختص باختصاصه وللخبير بخبرته. وينفق من المال ما ينفق في سبيل الارتفاق بالخبرة والاعتماد على الدراية، علما منه بأنه سيكسب أضعاف ذلك عند الاستثمار.

أما شؤون الفكر والثقافة فلا حساب فيها للربح والخسارة، ولا وزن فيها لرأي على رأي، حتى ليجادلك في أمرها المتطفل، ويقحم نفسه في مضايقها أشباه الأميين.

فإن رأيت هذا السلوك شائعا في مجتمع فاعلم أنه دليل على اختلال موازين النظر إلى الأشياء. والاختلال إذا ظهر في مجال، شاعت عدواه في كل مجال. فأنت لا تأمن أن يتعدى مفعوله شؤون الفكر إلى شؤون النظر والتقدير كلها، ثم إلى شؤون السياسة والتخطيط. ثم إلى المفاهيم نفيها وتحديدها.

خذ مفهوم الثقافة مثلا، واسأل ماذا يعرف الناس عنه ؟ ولماذا هم مختلفون فيه ؟ وما وقع ذلك الاختلاف في تقديرهم ؟!

ستجد الجواب جاهزا : أن مفهوم الثقافة هو المعرفة أو المعارف المشار إليها بالشهادات والألقاب العلمية، أو هو الآثار المكتوبة والمعارف المحفوظة، والفنون المعبرة.

هذا المفهوم غير مدفوع ولا مختلف عن الواقع. ولكنه عامي مبتذل. أشبه بقول القائل : إن الطعام يغذي الجسم. وهو أيضا حكم صحيح غير مدفوع. ولكن العبرة في الوعي والعلم لا في إرسال الأحكام. فالعبرة في هذا المثال الأخير أن نعرف لماذا يغذي الطعام الجسم، وكيف يغذيه، ولماذا يخرب نوع من الغذاء الجسم أو يهدده، وكان من قبل ينميه ويحييه. ولماذا تفرض الحمية لجسم ويترك لجسم آخر أن يرعى كالسائمة ؟ ومعرفة ذلك تكلفنا علما مستطيلا، وعبئا ثقيلا. لأن كل حكم هنا يرتكز على ظاهرة بيولوجية أو كيمائية أو فيزيائية، وكل علم من هذه العلوم يرتكز على علم قبله ومعطيات سلم بها مسبقا.

إن الأخذ بالمفهوم العامي للثقافة، وانعدام الرؤية المدققة إلى فاعليتها، وكيفيات تأثيرها وإخصابها للنفس، وتكوين الملكات الإنسانية، هو الذي أفضى إلى هذا العقم الثقافي، أو إلى انقطاع الأسباب بين الوسائل والغايات في حياتنا الثقافية من بعض الوجوه. فما أكثر المثقفين الذين لا تظهر آثار الثقافة على سلوكهم وأخلاقهم، فضلا عن أن تظهر على تفكيرهم وتقويمهم للأشياء. وكم خيب مثقف أو متعلم ذو ألقاب علمية آمال الناس فيه، حين يرونه لا يختلف عن جاهل حين تهزه الشهرة أو يستبد به الطمع، ينتابه الجزع، أو تحفزه الحوافز الدنية مما يعتري عامة الناس ورعاعهم.

هذا وجه من إخفاق الثقافة التي لا تعتمد الرؤيه العلمية الواضحة ولا المنهج العلمي القويم.

ووجه آخر لذلك الإخفاق يتجلى في أن ترك الحبل على الغارب في توجيه الثقافة لا يزيد المجتمع إلا عمقا في اختلاف أبنائه. وابتعادا عن الوحدة والائتلاف. فالتعليم مثلا وهو النظام المؤسس للأرضية الثقافية كان وسيلة من وسائل انبعاث وعينا وتقوية حركتنا الوطنية ودعم مسيرة النماء والتقدم. ولكنه لعدم ضبط مقادير تنويعه، وعدم التحكم في عناصره ومقوماته، وعدم توحيد معطياته الأساسية في كل مراحله قد عاد بالربح من ناحية، وبالخسارة من ناحية أخرى. فجاء بأبناء هُم حرب على الآباء. وأعد أجيالا يعادي كل منها الآخر، حتى إن النظر في نتائجه على شخصيتنا الوطنية يحمل جلالة الملك الحسن الثاني مرة أن يقول في إحدى كلماته : «إنني أخشى على المغرب قبل كل شيء مسخ الشخصية. فشخصية المغرب هي أمانة لا يجوز تضييعها أبدا.[1]

---

[1]_ انبعاث أمة الجزء 24 ـ الصفحة 102.

وكان يتحدث في سياق ارتباط الثقافة بالأصالة، وعن دور المدرسة والجامعة والأسرة في تكوينها.

☆ ☆ ☆

- 2 -

آن لنا إذن أن نعيد النظر في التقويم الثقافي لبلادنا، ولا سيما بعد اتجاه عناية الدولة إلى دعم أسس النهضة الاجتماعية، وتحقيق إقلاع اقتصادي يتجلى لنا اليوم في شتى مظاهر الإنشاء والتأسيس والتخطيط والاستثمار للطاقات الإنسانية والمادية. وجعل السياسة العامة مبنية على دعائم واختيارات واضحة، تستهدف استكمال الوحدة الترابية ودعم الوحدة الوطنية ومضاعفة التعبئة وتحصين وسائل الدفاع عن أرضنا وسيادتنا ضد خصوم وحدتنا، الذين يكيدون ما وسعهم الكيد لتعويق مسيرتنا الحثيثة.

آن أن نسأل : ما دور الثقافة الوطنية في مجال التعبئة الشاملة التي تعرفها بلادنا من أجل تحقيق الأهداف البعيدة والقريبة، وبناء أسس نهضتنا على مرتكزات فكرية ونفسية وروحية، كما كان الشأن في عصور ازدهار المغرب قبل العصور الحديثة ؟ لأن الثقافة في نهاية المطاف، ليست سوى خميرة للمستقبل الروحي والعقلي والحضاري للأمة. ولكنها خميرة متجددة، وبهذا المعنى لا يوجد حاضر إلا وهو سليل للماضي، ولا مستقبل إلا ونتيجة حتمية للحاضر. وهكذا يتضح أن الثقافة الوطنية هي ثمرة التاريخ الوطني. لأنه لا يمكن تصور ثقافة ليس وراءها تاريخ إنساني تتمخض عنه، كما يتمخض اللبن، ويعطيك خلاصته أو زبدته.

يجب علينا إذن أن نقدم تحليلا موجزا لمفهوم الثقافة عامة، ومقوماتها بالقياس إلى ثقافتنا خاصة، لنكون على بصيرة فيما يجب أن تكون عليه ثقافتنا المغربية، ولندرك المسير الذي ينبغي أن تتجه فيه والأهداف التي يجب أن تتغياها.

☆ ☆ ☆

- 3 -

هناك مفهومان رئيسيان في حقل تعريف الثقافة، أو قل مذهبان يأخذ بهما مفكرو الغرب أو العالم المتقدم.

**أما أحد المذهبين** فيعتبر الثقافة تراثا معرفيا وفلسفيا وفنيا يحقق التناسق والاطراد في حياة المجتمع، فهي بمثابة نظام موجه، نظام فكري وروحي أبدعه الإنسان، ليستثمره وينفعل به، ويحقق لنفسه اطراد التقدم وازدهار الشخصية، إنه نظام شامل لكل العلاقات الاجتماعية والمادية، يعنون بذلك علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الإنسان بالقيم والتاريخ. فالدين في هذا المفهوم ثمرة الثقافة، واللغة ثمرة الثقافة، والفنون والتقاليد والفلسفات ثمار الثقافة، لأن هذه الأنواع كلها تعبر عن تجليات الفكر المبدع لدى الإنسان. ولكن الهدف الرئيسي منها هو إدماج الإنسان في عالمه، وإلحاقه بالصفة الإنسانية الاجتماعية التي لن يقوم تفاعل بينه وبين العالم بدونها.

**وأما ثاني المذهبين** فيعتبر الثقافة هيكلا تفرضه القوى الاجتماعية السائدة. إنها ثمرة فكر اجتماعي سائد يحدد العلاقة بين الأفراد، وبين المنتج والمستهلك، وبين التابع والمتبوع. إن الثقافة من خلال هذا المذهب متميزة عن الواقع الموضوعي المتحرك، لأنها تأتي دائما لدعم واقع قائم هو في طريق التجاوز أوالتراجع.

والمذهب الأول مثالي، بمعنى أنه يعتبر الأفكار هي المتحكمة في الواقع.

والثاني، مادي، يعتبر الواقع هو المتحكم في الأفكار.

وكلاهما يعتبر الثقافة مكيفة للإنسان داخل المجتمع، ويعتبر الثقافة علاقة بين الذاتي والموضوعي، أو تنسيقا بين الإنسان والأشياء، وبين الإنسان والإنسان.

غير أن الأول يعتبرها نظاما موجها والثاني يعتبرها نظاما موجها.

ويحسن أن نقف بعد هذه المقارنة لنسأل : أي المذهبين أنسب لطبيعة ثقافتنا من حيث المكونات التاريخية وعواملها الروحية والمادية، وتوجهاتها الحالية ؟

وأي المذهبين أصح تفسيرا للنشأة الثقافية في المغرب ؟ وبالتالي هل ثقافتنا نظام موجه. أو نظام موجه ؟؟.

نعم، هناك طائفة من المثقفين لا ترى مجالا للاختيار في التفسير. إذ لا ترى في الثقافة سوى نظام موجه. لأنها لا ترى تاريخها الوطني، وإنما ترى تاريخ الغير. أو قل إنها إنما تنظر إلى تاريخها بعقلية من كتب فيه من الأجانب.

أما نحن فنحب أن ننظر إلى ثقافتنا من خلال تاريخنا، ونحب أن نعلن للجميع أن الثقافة لا تقرأ إلا من خلال تاريخها القومي أو الوطني الذي أنتجها، وهيأ مادتها وصاغها صياغتها، وأن الذي يحسن قراءة هذا التاريخ هم أبناؤه الذين تجري في عروقهم عواطفه وقيمه ومعاييره. إن الثقافة اليونانية والفلسفة اليونانية مثلا صورة للتاريخ اليوناني والعقلية اليونانية. ونحن لا نستطيع أن نفهمها إلا في حدود البيئة والتحديات الطبيعية والمزاج النفسي لأمة اليونان. أي عوامل التكوين والتوجيه.

وفي هذا الإطار أبدع الفكر اليوناني الكثير، وتساءل فلسفيا وأجاب. ومن ثم كان تعريف الثقافة من الزاوية المثالية مناسبا للنشأة الثقافية الغربية في عصر النهضة، والنشأة الثقافية في العصر الهليني قبلها.

ونشأ تاريخ جديد في أوربا الحديثة، ظهرت فيه الثورة الصناعية. وظهرت قبلها الثورة الفرنسية، ودخل الإنسان في صراع اجتماعي بين فئات متمايزة المصالح، وتمخض ذلك عن تطلع نحو التوازن، بتوزيع فائض الإنتاج على أساس جديد. فكانت الثورة الثالثة، وكل ثورة كانت تناهض ثقافة ما قبلها. ولهذا أعطى للثقافة التي قامت على الصراع الاجتماعي التفسير المناسب لها كما في المذهب المادي.

وكان هذا التفسير المادي للثقافة سلاحا ذا حدين، فهو من ناحية يقوض كل ثقافة خارج النظام الماركسي من أساسها، لأنه يعتبرها ثقافة بورجوازية تخدم التفاوت الطبقي.

وهو من الناحية الثانية يحول الثقافة في ظل إيديولوجيته إلى هواء مخدر يلائم مبدأ استلاب الحريات.

☆ ☆ ☆

- 4 -

نعم، إذا ألممنا بالنشأة الثقافية في حدود التاريخ الأوربي القديم والحديث والمعاصر، وبالنشأة الثقافية في العالم الإسلامي والعربي خاصة - والمغرب جزء لا يتجزأ من هذا الأخير - أمكننا أن نميز بين النشأتين، وأمكننا أن ندرك الفارق الكبير بين الخصوصيات الاجتماعية، والمنطلقات الفكرية، والتحديات التاريخية، الطبيعية والإنسانية، تلك التي صاغت استجابة معينة، واقتضت تأسيس نظام من الثوابت والمتغيرات لا محيد عنه.

وأهم ما يميز الثقافة الإسلامية أنها وليدة حركة تاريخية متميزة هي الأخرى، نشأت بفضل تلقى الوحي الإلهي المنزل على قلب محمد ﷺ. ركيزتها القرآن، ومحورها العقيدة، وأبعادها آفاق الكون والإنسان، من حيث ترجع جميعها إلى نظام إلهي، ومنهج في الحياة متطابق مع ذلك النظام.

هذه الثقافة الإسلامية، وإن أسهم في تكوينها الإنسان المسلم من كل جنس وعرق ولون، إلا أنها تتجاوز العرقية والسلالية والعنصرية. حتى ليأخذك العجب حين ترى الثقافة الإسلامية تقدم لك عبقرية الإنسان من عدة شعوب وسلالات مزيجا واحدا متناسقا متناغما، يصوغه لك الهندي والصيني والأفغاني والعربي والبربري والزنجي والتركي والكردي والإيراني وهلم جرا، لا تختلف فيه الرؤية والنموذج النفسي بين البخاري والبيروني والجاحظ والخوارزمي وعياض واليوسي وأبي الحسن الأشعري والباقلاني وابن فورك والشاطبي وابن جني.

وكلهم من أصقاع متباينة وأصول مختلفة، ومناخات اجتماعية متفاوتة. مع أن الثقافة صورة مزاج وذوق ومناخ وبيئة. ولكن الرؤية الواحدة للكون وموقع الإنسان منه، والمنهج الواحد المحدد لطبيعة العلاقة التي تنبغي بين محاوره وأطرافه، أعطت ثمرا مختلفا ألوانه، واحدا طعمه

ومذاقه، وبذلك تحول العالم الإسلامي إلى حقل ثقافي واحد، يخرج العالم المغربي من المغرب حاجا، فينزل مصر ويدرس بالأزهر، ويعرج على الشام، فيفتي ويدرس ويؤسس مدرسة فكرية أو طريقة صوفية. ثم يذهب في آفاق العالم لا يعرف له جوازا غير العقيدة واللغة والثقافة الجامعة الموحدة. وتستقبله كل بيئة إسلامية على أنه واحد منها، وقل مثل ذلك عن علماء وفدوا من مصر على المغرب، أو من الشام على الأندس، أو من بلاد العراق على إفريقية. أو قامت كتبهم وآراؤهم مقام أشخاصهم.

وخصيصة ثانية لهذه الثقافة الإسلامية : أنها لم يبتدعها الفرد وحده، - كما هو الشأن في المفهوم الليبرالي المثالي - ولم تصطنعها السلطة الاجتماعية أو الطبقة السائدة - كما هو الشأن في المفهوم الماركسي المادي - وإنما هي مزاج من إبداع الفرد والمجتمع موجهين معا، كل منهما يراقب الآخر أن يحيد عن المنهج والسلوك والقيم الثابتة.

أما الموجه فهو الوحي وهو فوق الفرد، وفوق المجتمع، وفوق السلطة.

وبهذا المعنى يرتفع الإشكال الأول المتضمن في السؤال السابق :

- هل الثقافة عندنا نظام موجه أم نظام موجه ؟

فكلاهما صحيح بالنظر إلى واقع الأمر، ولا تناقض عندنا، أو في ثقافتنا بين المبدع والمتلقي، باعتبار الطبقة والسلطة والإيديولوجية السائدة، لأن المبدع والمتلقي كليهما متحركان مع نظام واحد، مستنير القلب والعقل بنور واحد، ونحو غاية واحدة. وإن اختلفت المنازع والمذاهب والآراء على ما هو معروف من وجود المذهبية في عقائدنا وفقهنا وأنظمة مجتمعاتنا، لأن هذه المذهبية في حاق معناها، ليست سوى تعبير كل بيئة حضارية عن خصوصيتها الاجتماعية والنفسية.

فتفاعل العقل أو الفكر مع تقرير الوحي وتوجيه السنة الصحيحة وتبيينها لمقاصد كلام الله، جاء بنسب متفاوتة، فطائفة ضيقت نشاط العقل. وطائفة اقتصدت. وطائفة غلت وأفرطت. فكانت المذهبية.

وبهذا المعني يرتفع الإشكال الثاني المتضن في السؤال السابق أيضا :

ما مصدر الثقافة الإسلامية ؟ أو ما مصدر ثقافتنا ؟ هل هي انعكاس الفكر على الواقع والمادة ؟ أم هي انعكاس الواقع والمادة على الفكر ؟؟

وهل ثقافتنا مثالية التصور أم مادية التصور ؟

إن الثقافة الإسلامية تفاعل بين العقل والنقل، والفكر والوحي، الظاهر والباطن، المادة والروح، الاجتهاد والنص.

بهذا التحليل ننتهي إلى تقرير النتيجة الأولى، وهي أن الثقافة في مفهومنا وفي ضوء ما تمخضت عنه المسيرة الحضارية الإسلامية، ليست مجرد إبداع فكري وعلمي وفني وحضاري متجدد، لأنها حينئذ لن تعني سوى تراكم تراث إنساني ينسخ بعضه بعضا. وليست كذلك نظاما إيديولوجيا تفرضه طبقة اجتماعية على طبقة دنيا، لأن مثل هذا التصور عن الثقافة يحيلها إلى أداة للصراع الاجتماعي الطبقي ليس غير.

الثقافة، في ضوء الإسلام (مقام)[2] نفسي، عقلي ووجداني متوازن. يستوعب حقائق الحياة المحيطة بالإنسان، من طبيعية واقعة في حيز الشهود والعيان والحس والعقل، وعينية من وراء الحس وفوق العقل.

(مقام) نفسي جامع بين العلم والعمل، مبدع متجاوب مع حقائق الكون، مستجيب لنوازعه السامية، دافع بالحياة نحو الأمثل والأحسن. حتى في حالة العداء والخصومة، يطالبك الحق فيها قائلا : «**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**».

2) المقام هنا بالمعنى الذي يعطيه الصوفية للفظ. أي : «الحالة النفسية الثابتة التي تكتسبها النفس بعد تحقق رقيها في معارج القرب من الله».

الثقافة في الإسلام علاقة بين الذات والعالم، بين النفس والواقع الاجتماعي والإنساني الملابس لها، علاقة الفكر بالحقيقة، والقلب بالحق والجمال والخير. وهذا ما عناه ابن القيم رحمه الله حين قال :

«العلم نقل صورة المعلوم من الخارج وإثباتها في النفس. ثم العمل على نقل صورة ما حصلته النفس لإثباته في الخارج، فإن كان الثابت في النفس مطابقا للحقيقة في نفسها فهو علم صحيح. وكثير ما يتراءى في النفس صور ليس لها وجود حقيقي، فيظنها الذي قد أثبتها في نفسه علما، وإنما هي ظنون لا حقيقة لها».[3]

وبهذا المفهوم يلتقي في الثقافة الإسلامية العقل والقلب، الفكر والاستبصار، التجربة العلمية والحدس الفلسفي والكشف الصوفي.

وإن دينا بهذا الشمول في استيعاب الحقائق الكونية، وقبوله لتكامل المناهج المختلفة في الوصول إليها لمن شأنه أن يكون موجها للثقافة التي تنشأ في أحضانه في أي بيئة من البيئات.

قد يلاحظ أنني قاربت إلى حد بعيد بين الثقافة والدين. وأنني جعلتهما في قرن واحد، وعلى طراق واحد، نعم، قد يكون للملاحظ حق في ذلك إذا نظر إلى الدين بالمفهوم الغربي، وسحب هذا المفهوم على الإسلام نفسه. وميز بين مستوى الدين، ومستوى العقل إلى حد اعتبارهما متناقضين كما هو الشأن في الفكر الغربي.

أما إن نظرنا إلى الدين بالمفهوم الشامل الذي يحدده الإسلام، فنجد منهج الإسلام في القرآن يستقطب كل نشاط بشري، ويشده إلى حقائق كلية لا سبيل للعقل أن يفكر فيه بمفرده، وبمعزل عن كل القوى النفسية الأخرى. ولذلك جاء الوحي يسدد طريق العقل ويفتح أمامه الآفاق. ولذلك أيضا جاءت الثقافة في أي بيئة إسلامية ثمرة لهذا المنهج المزدوج العقلاني والروحي، وهذه هي النتيجة الثانية التي يجب تقريرها.

أما النتيجة الثالثة والأخيرة في هذا السياق؛ فهي كون المنهج الرباني الذي قدمه الإسلام قد أضفى على ثقافة الإسلام صفة الوحدة والتكامل، لا علم في الإسلام لا يتكامل مع سواه من العلوم. ولا علم في الإسلام ينتهي إلى حقيقة مناقضة لحقيقة يثبتها علم آخر.

☆ ☆ ☆

- 5 -

هذه الجولة مع الثقافة الإسلامية في مقوماتها وأسسها ومنطلقها ووحدتها وتكاملها، كانت ضرورية لتصور طبيعة ثقافتنا المغربية التي هي امتداد تاريخي وطبيعي لتلك الثقافة الأم.

فلقد نشأت الثقافة المغربية في بيئة لها خصوصيتها الاجتماعية والنفسية، والإسلام لم يمنع من أن تقوم في بيئاته المتعددة، مما بين الصين إلى المحيط الأطلسي، ثقافات إسلامية تعكس ألوان البيئات التي تحتضنها، ولكن على شرط الوحدة والتكامل، ذلك أنه لابد من القول أيضا، بأن الثقافة تتعامل مع الأرض النموذج النفسي لأهلها بقدر ما تتعامل مع المنهج العام والرؤية الروحية أو الإيديولوجية، والثقافة المغربية لها هذا الطابع، وهو الارتباط بالأرض وبالمناخ الجغرافي وبالمزاج النفسي، وبالواقع الحضاري. وهذا ما يكون الخصوصية الوطنية، ولكنها خصوصية متكاملة شاعرة بالوحدة الشاملة التي تجمعها داخل الأسرة الإسلامية.

ويحدثنا الباحثون والمفكرون المغاربة عن هذا النموذج النفسي الذي ظل بمثابة القاسم المشترك بين سائر المغاربة في سائر العصور، وكيف مضى التاريخ يؤكده عصرا عصرا.

فلقد ظل المغرب طوال العصور التي عرفها قبل الإسلام يبحث من خلال تجارب قاسية : كيف يضع لشخصيته الإطار السياسي الملائم لعبقريته، أو إطار دولة تتحقق فيها مقومات وجوده واستمراره.

---

3 ) ابن القيم الفوائد : الصفحة 84.

وقد حافظ المغربي وسط تيارات التأثير الفنيقي - القرطاجي، والروماني - البيزنطي بنظمها وثقافاتها ولغاتها، حافظ المغربي المدعو يومئذ Le maure، على سيادته[4] إذ كان يدرك موقعه من الأرض المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وما يفرضه هذا الموقع من تحديات والتزامات، كما كان يدرك أن ما وراء البحر المحيط بحر الظلمات هو لغز يجب امتلاكه والمغامرة في اكتشاف ما وراءه. (قصة الفتية المغررين).

ليس معنى الحفاظ على الشخصية أنه لم يتأثر بالحضارات الوافدة، وإنما كان يمتص منها بقدر ما يحافظ على سيادته ونموذجه النفسي، لا سيما وهو يرتبط بأرضه عن طريق الزراعة، يعمل وينتج، ويصرف فائض إنتاجه الزراعي عن طريق المقايضات والمبادلات التي كانت مراكزها سلسلة متراصة على شواطئ بحاره.

غير أنه إن كان التعبير عن هذه الشخصية في المستوى السياسي والحضاري قبل الإسلام ما يزال إثباته قيد البحث العلمي التاريخي، فإن المؤكد أن هذا التعبير بدأ واضحا منذ أسس المولى إدريس الدولة المغربية. وبين وصول الإسلام إلى المغرب أول الأمر، وقيام هذه الدولة زهاء قرن أو يزيد، كان مليئا بالتردد والرفض والمقاومة والحيرة ثم الاعتناق للإسلام.

أما التعبير الحقيقي عن هذا الاعتناق فكان حيث قامت معارضة وطنية في ظل الإسلام تتحدى جور الولاة الوافدين من المشرق، ونقصد بها ثورة الخوارج أو ثورة ميسرة المدغري. أو ثورة البربر سنة (122 هـ - 739 م).

ومع ذلك فإننا نجاري أحد المؤرخين المغاربة المعاصرين[5] في قوله :

«إن الإطار الذي كان على المغاربة أن ينظموا أنفسهم فيه منذ ذلك التاريخ كان هو الإسلام نفسه، كان مذهب الخوارج حسبما بدا للمغاربة أول الأمر مذهبا يفضي إلى التمرد على الحكم المركزي، وتحقيق السيادة الوطنية.

ولكن التجربة التاريخية علمت المغاربة أن «الخارجية» ليست إلا حلا مرحليا. ذلك أن الإيمان بالنظام - لا بالخارجية - هو الحل الأمثل والمستمر، وإلا أصبحت الدولة الإسلامية تقوض نفسها كلما ثبتتها باستمرار. ومنذ ذلك الحين، دخل المغرب عن قناعة في عصور جديدة، توالت فيها الدول الوطنية مستقلة عن أي تبعية للمشرق، تحققه لنفسها ذلك التوازن المنشود لازدهار حضارة وثقافة إسلامية سنية، لا تعرف الغلو، وكلما ذهب بها الغلو إلى ناحية جاء التصميم ليعيد لها توازنها.

ولهذا التوازن بين مؤثرات العقيدة ومؤثرات البيئة والنموذج النفسي والعبقرية الذاتية شواهده في صياغة الثقافة المغربية.

وأول ما يطالعنا من ذلك أخذ المغرب بالمذهب المالكي. وقد جار ابن خلدون في حكمه حين ادعى بأن أخذ المغاربة والتزامهم بالفقه المالكي كان راجعا لعامل البداوة التي التقى فيها أهل المغرب والإندلس بأهل المدينة والحجاز، وبعامل الرحلة : رحلة علماء المغرب إلى المشرق واكتفائهم بأخذ العلم من علماء المدينة.

ونرى أن الاختيار المذهبي الواحد دليل على أمرين :

الاهتمام بالوحدة الفكرية والسلوكية والاجتماعية أولا.

والوقوف ثانيا في وجه التيارات المتطرفة، سواء تلك التي تسرف في تحكيم العقل - كما عند الشيعة -، والتي تسرف في تحكيم النص - كما عند الخوارج والظاهرية -.

لقد رحل المغاربة إلى كل صقع من أصقاع البلاد الإسلامية. والعلماء من نقلة المذهب لم يكونوا بالسذاجة التي تجعلهم ينقلون المذهب الذي يقع في طريقهم من غير اعتبار للمزاج النفسي والتبرير المنطقي والاجتماعي.

وبداوة المغاربة وقربهم نفسيا من أهل الحجاز مسألة مدفوعة. فالمغاربة عرفوا الفقه الروماني والتراث البيزنطي

---

4 ) عبد الله العروي : تاريخ المغرب : صفحة 65.

5 ) العروي : المصدر السابق صفحة 68.

واللغات الحضارية الوافدة قبل الإسلام. وتأثروا بالفينيقيين الذين نقلوا شريعة «حمو رابي» إليهم. فاختيار المذهب المالكي كان ظاهرة أعمق من أن تفسرها التعليلات السطحية.

☆ ☆ ☆

- 6 -

لقد ارتبطت الثقافة المغربية إذن باختيارات وطنية عميقة، سواء تتبعت تراثنا في الفقه أو في اللغة والنحو، أو في التصوف أو في التفسير والحديث أو في علوم المنقول والمعقول. وكانت هذه الثقافة بمثابة الاستقطاب الفكري والروحي للشخصية المغربية. ويكفي أن نمثل لهذا الذي نقول بمثال واحد من تاريخنا الوطني القريب، وهو كون السلفية كتيار إصلاحي ديني كان نواة الحركة الوطنية.

ونعني بذلك أن العلماء المصلحين والمفكرين المجددين هم الذين شعروا بأن الأوضاع الفكرية والأحوال الاجتماعية والروحية قد بلغت من التدهور أمدا بعيدا وأنه إذا لم يتداركها العقلاء والمسؤولون عنها فستؤدي إلى البوار.

ونظن أن بداية اليقظة المغربية أو الانبعاث الفكري قد بدأ من هذه الحركة. وعندما نقرأ «نصيحة الأمة» التي قدمها السلطان سيدي محمد بن عبد الله ناصحا عماله ورعيته، ستجد الاعتراف بما صارت إليه أحوال المسلمين من شيوع الجهل والتهاون في تطبيق أحكام الشريعة، والبعد عن العقيدة الصحيحة في المغرب.[6] منذ قرنين من الزمان.

وإذا جاز لنا أن نعتبر الأدب المغربي تعبيراً قومياً عن النزاعات السائدة في عصر ما قبل الاحتلال الأجنبي لبلادنا، ولاسيما الفرنسي منه، هذا العصر الذي كان يعبر بفكره وبعاطفته معاً عن التوقع والإشفاق عما تؤول إليه الأوضاع بعد احتلال الجزائر (1930) أو بعد حرب تطوان (1860).[7] فإننا سنلمس في قصائد الشعراء وكتابات الكتاب، وربما الأدب الشعبي أيضاً، تلك العواطف المتوجسة، والدعوات المستصرخة، واستنهاض الهمم، والدعوة إلى الإصلاح أو إلى المقاومة.

ومن المؤكد أن الأدب هو تعبير عن موقف ثقافي أو تعبير عن فئة المثقفين، فإذا كانت المواقف التي يعبر عنها مواقف التزام وتعبئة، فإن معنى ذلك أن ثقافة المجتمع كانت معبأة وملتزمة بقضية المجتمع المغربي في توتر إحساسه بما يجري حوله، وقريبا من حدوده، من تآمر على سيادته وتطويق لحريته.

وقد كان معلوماً بالضرورة أن ضعف المغرب كان مرده من بعض الوجوه إلى تفشي الجهل والبعد عن العقيدة، وتخلي العلماء والمثقفين عن رسالتهم في التوعية والتوجيه، وبلورة طموحات الأمة المغربية، وتعبئة الثقافة المغربية الإسلامية في إيقاظ الهمم ونشر الوعي الوطني وتخلف المؤسسات الاجتماعية عن مواكبة التطور والانطواء على الذات، بعيداً عما يجري في االحياة المتقدمة في أوربا، والشك في كل شيء يمكن أن يستفاد من علومها وأساليب تقدمها.

لذلك هرع السلطان المولى الحسن الأول (1290 - 1311) (1873 - 1894) إلى التعلق بالأسباب المفضية إلى التحرر من بعض هاتيك المعوقات والتغلب على مواطن النقص. فشرع في إصلاح التعليم وإرسال البعثات، للارتفاق ببعض أسباب التقدم الأوربي.

وهرع بعض الواعين من الشعراء والمثقفين والعلماء إلى دق الطبول والنفير تجاه ما كان يتهدد المغرب من غزو وأطماع ودسائس توشك أن تجهز عليه.

ونجد أصداء هذه الصرخات الاستنهاضية في شعر محمد بن إدريس العمراوي (م - 1847)[8] والشاعر محمد غريط (م - 1863)[9] (انظر النضال في الشعر العربي بالمغرب للجراري ص 19 /...) ومحمد الشيخ الشنجيطي (م - 1867) والشاعر الطاهر بن محمد الإيفراني (م - 1374).

6 ) الاتحاف لابن زيدون 3 / 216.

7 ) الاستقصاء للناصري 9 / 101.

8 ) عبد الله كنون : أحاديث عن الأدب المغربي 32 - 33.

9 ) الجراري : النضال في الشعر العربي بالمغرب.

والحقيقة أن الثقافة المغربية كانت في العصر الذي سبق الاحتلال ثقافة يطبعها التزمت والتقوقع والتراجع عن كل خطوط المواجهة الصحيحة، فهي ناضبة من الإبداع والفكر المتطور. جامدة على صيغ تقليدية، فاقدة لكل صلة بالحياة الاجتماعية، مرتمية أو مرتم أهلها في اجترار المتون وشروحها وحواشيها، راضية بالانحطاط واعتباره قضاء وقدراً أو ابتلاء ومحنة.

وببداية عهد الحماية والاحتلال، يبدأ ضرب من الإحساس جديد في غمرة الاستسلام، يمثل عمق المد المتحرك في طيات الجزر نفسه.

إنها روح المقاومة الوطنية التي لم تكف عن النبض في قلب النائم.

تحرك الفكر الديني أو الفكر السلفي بموازاة حركات المقاومة المسلحة في الشمال والجنوب. وبقدر ما كان يتلقى المغرب ضربات الاحتلال كانت هذه الضربات توقظ وعيه وتعبئ نفسه.

وقامت الفئات الواعية من الشباب باحتضان تلك السلفية التي أخذت في مناهضة الشعوذة، ومكافحة الروح الانهزامية والتواكلية والجبرية المتفشية يومئذ في أوساط الجماهير. وفي هذا المجال نهضت طائفة من العلماء بتعبئة الثقافة الإسلامية في معركة التصحيح ـ فكان الشيخ شعيب الدكالي (م ـ 1937) علم هذا الاتجاه وصوته الجرئ. وجاء بعده علماء ساروا على نفس الاتجاه، مثل سيدي محمد بن العربي العلوي (م ـ 1964)، وقامت ثلة من العلماء بمسايرة الانبعاث الديني، تعمق الثقافة الإسلامية، وتوسع مدارك الآخذين بها في علوم المنقول والمعقول، في إطار التعليم الأصيل مثل محمد السائح (م ـ 1367) ومحمد الحجوي (م ـ 1376)، والمدني بن الحسني (م ـ 1378).

وقد بلغت هذه الحركة أوجها في المغرب عندما تغذت بالتأثير الشرقي عن طريق ما بثه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، من أفكار فيما صدر لهم من آثار وكتابات في الصحف والمجلات والكتب المطبوعة.

والتقى في الشخص الواحد في بداية هذا القرن أمل التجديد الديني والإصلاح الاجتماعي والعمل السياسي المنظم لمقاومة الاستعمار. فكانت الحركة الوطنية الأولى التي قادها طائفة من الشباب المستنير الغيور على وطنه وعقيدته، هذه الطائفة الرائدة المغمورة في آن واحد، والتي تحدث عنها المرحوم الأستاذ علال الفاسي وذكر لها أسماء في كتابه (الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ص 97)، فامتزجت طموحاتها بالتصوف وبالحماس الشعبي، وأخذت تكتب في بعض الصحف التي كانت تصدر في طنجة أو خارج المغرب مطالبة بالإصلاح ونشر التعليم والمعرفة.

هكذا انطلقت الشعلة الأولى من ثقافة إسلامية، ومن حركة سلفية ومن عقيدة دينية، عززها فيما بعد وصاغها الصياغة العصرية الملائمة التنظيم الحركي للأحزاب السياسية التي ظهرت لمقاومة الاستعمار الأجنبي.

وارتبطت حركة العمل الوطني بالعمل التثقيفي باعتبار الثقافة الصحيحة سلاحاً ماضياً في معركة الصراع بين التخلف والتقدم، والاحتلال والاستقلال فبدأت حركة التنوير إلى جانب محاربة الشعوذة.

وعندما كانت الإدارة الفرنسية تسعى بكل جهد لتوقيف دروس الأستاذ علال الفاسي في القرويين بين سنتي 1933 / 1936، تلك الدروس التي تحولت إلى إذكاء شعلة النضال والاقتباس من الإيمان الصامد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية من سيرة الرسول الأعظم، بسبب ما قدمه عملاؤها من عرائض تتهم علال الفاسي بالنيل في دروسه من بعض الأولياء والصالحين من رجال الطرق، أمر جلالة المغفور له محمد الخامس بتوقيف كل مظاهرات طرق العيساوية والحمدوشية وغيرها، مما دل على أن فكر الملك الراحل محمد الخامس وفكر الشباب الحركي يومئذ كانا

10) عبد الكريم غلاب : تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب 84 ـ 85.

ينبعان من رؤية تحريرية وإصلاحية واحدة. ومن وحدة هذه الرؤية والاختيار التحم نضال الملك والشعب في سبيل التحرير.

لقد ارتبط التثقيف الشعبي والتنوير الفكري بالحركة السياسية المناضلة والتحريرية. فنظمت الدروس الليلية في القرويين، وفي بعض المساجد، ونظمت خلايا التوجيه الثقافي والسياسي داخل البيوت، وكوفحت الأمية. وأنشئت الصحف، وأسست المدارس الحرة. واشترك في الصحف الشرقية واحتفل في كل مناسبة دينية بشكل تتحول معه الاحتفالات إلى مظاهرات للتعبئة الوطنية. وكل ذلك كان يدل على مدى ما كان للثقافة المغربية قبل الاستقلال من تعبئة في مجال المقاومة والإصلاح في وقت واحد.

غير أن نظرة المثقفين (الوطنيين) يومئذ كانت تتميز داخل الحركة السلفية ذاتها عن نظرة السلفيين الذين يقصرون الفكرة السلفية على تنقية العقيدة من الشوائب والخرافات، وعلى تصحيح مفاهيم الدين الإسلامي لدى العامة. فقد كان أولائك المثقفون يدركون مسؤولية المسلم الحقيقي في عالم تقوده تيارات وقوى خارجة عن ديار الإسلام، وتتحكم في مصائره بالتخطيط والتنظيم والسلاح وتوجيه الاقتصاد، والهيمنة على وسائل العرض والطلب والإنتاج والتصريف والاختراع والتأثير. ومن ثم آمنوا بأن الدعوة إلى العودة إلى الإسلام الصحيح مع الاكتفاء باسترجاع تراث الماضي غير كاف لإحداث التغيير المنشود للمجتمع المغربي. ومن ثم أخذ هذا الشباب المثقف يستعمل ثقافته الجديدة في تحليل الحضارة الغربية والانتفاع بمناهجها والاعتبار بتاريخها، للارتفاق بأساليب التنظيم السياسي والاجتماعي الذي أحدثته لنفسها. وأصبح الاستقلال مطلبا (اجرائيا) - إن صح التعبير - لا غير، أي وسيلة لتحقيق نهضة اجتماعية شاملة، وقيادة الأمة نحو المصير الذي تطمح إليه. وكانت الوحدة في الرؤية والسلوك النضالي قائمة بين الملك والقيادات السياسية الحزبية. في كل مرحلة مرحلة. حتى إن خروج الأميرة للا عائشة في أربعينات هذا القرن بدون حجاب (تقليدي) والقاءها خطبا وطنية كان من أدل المواقف المعبرة يومئذ عن الاختيار الذي توحدت فيه رؤية الملك والحركة الوطنية. لأنه كان إيذانا بتحرير المرأة ووجوب اشتراكها في التعبئة الوطنية مع شقيقها الرجل سواء بسواء. وكان تحرير المرأة واشتراكها في التعليم من أعظم الإنجازات التي حققها جلالة المغفور له محمد الخامس بالنظر إلى هيمنة الفكر المحافظ. وبالنظر إلى أن هذا الفكر تحول إلى تيار مضاد بتوجيه السلطة الاستعمارية لإحداث الانقسام في صفوف الشعب المغربي.

وإن المقاومة المسلحة التي خاضها المغاربة في الصحراء والجبال والسهول والشمال والجنوب عقب الاحتلال الفرنسي الإسباني والتي امتدت حتى ثلاثينيات القرن، وكذا المقاومة السياسية التي كانت توازيها، ثم حركة التحرير التي أعقبت إبعاد جلالة المغفور له محمد الخامس عن عرشه كانت موجهة كلها بإرادة مشتركة واحدة. وتنبع من رؤية وطنية ودينية واحدة، مستلهمة تاريخنا المغربي البعيد والقريب. وما تحقق الانتصار لها إلا بفضل ما كانت تتبناه من منطق هذا التاريخ وتراثه وبطولاته. وكانت الثقافة المغربية الممثلة في العلماء والقادة والمفكرين هي حزام الأمن الحقيقي ضد المناورات والإحباطات والمؤمرات، ابتداء من الظهير البربري 1930 إلى إبعاد الملك الشرعي محمد الخامس 1953.

والخلاصة أن ثقافة ما قبل الاستقلال كانت معبأة بكل أطرها وهياكلها ومؤسساتها في سبيل تحرير المغرب واستعادة حريته وكان يعززها إيمان ديني صامد. وفكر إسلامي مجدد، وعقيدةوطنية راسخة واستمرار تاريخي لوحدة المغرب وسيادته ومسؤولياته.

فهل كانت ثقافة ما بعد الاستقلال في هذا المستوى من التعبئة والالتزام ؟

☆ ☆ ☆

- 7 -

تجب الاشارة هنا إلى أن فترة الاستعمار القصيرة المدى نسبيا. كانت قد أحدثت هوة سحيقة بين نمطين من

التعليم : هنا التعليم الأصيل الذي كان قائماً في بلادنا قبل الاستعمار، وبين التعليم العصري الذي أحدثته الإدارة لتكون فيه الأطر المتوسطة للإدارة المغربية في ظل الحماية. أو تكون فيه النخبة المؤهلة للخدمات الاجتماعية والاقتصادية الدائرة في ذلك هذه الإدارة والمصالح الأجنبية، ضمن حركة (التغريب) لشريحة من المجتمع تكون الوسيط الحضاري بين إنسان الدرجة الأولى الأوربي وإنسان الدرجة الثانية (الأهالي).

أما في واقع الأمر فإن هذا التعليم بقدر ما كان يعلق عليه من أمل تطوير الثقافة وتكوين النخبة القيادية العصرية، فإنه كان بواقعه وبرامجه يستهدف تكوين مثقفين أو متعلمين عصريين غرباء عن قوميتهم وأصالتهم، يسايرون حركة التحديث وتوجيه الطبقة الاجتماعية الوسطى لاستهلاك المستوردات الأجنبية مادية ومعنوية. لهذا نشب الصراع بين الفئتين المتعلمتين أو المثقفين، مثقفي التكوين العصري، ومثقفي التكوين الأصيل في المنازع والتوجهات، وفي منطق التفكير قبل كل شيء.

وتكونت بفعل الانفتاح على الأصيل والدخيل معاً فئة ثالثة مزدوجة الثقافة لا ترضى كل الرضى عن روح المحافظة لدى أنصار الأصالة، ولا تجرؤ كل الجرأة على تبني دعوات (التغريب).

وعندما جاء عهد الاستقلال بعد اشتراك كل فئات المثقفين في صفوف النضال الوطني، كل بتصوره ونزعته، انبعثت الثقافة الوطنية الأصيلة بتأثير المد التحرري والتنظيمي الجديد الذي رد الاعتبار للغة العربية، ووضع نصب عينيه أهداف التعريب والمغربة وتوحيد التعليم في أوسع طبقات المجتمع المغربي.

وبفضل الحماس الوطني الذي أعقب تحقيق الاستقلال وعودة المغفور له محمد الخامس، بدا للشعب المغربي مدى انتصار الشعوب الصامدة حينما يتحقق لها الالتحام بين القيادة والقاعدة. فطفق المثقفون ينطلقون في دروب الإبداع والتكتل والتنظيم، وازدحمت الساحة الأدبية والثقافية بالجمعيات والرابطات الثقافية والفرق المسرحية والصحف والمجلات.

واستوجبت حركة النمو المطرد للمغربة والتعريب والتمدرس تكوين مؤسسات جامعية ومعاهد عليا متعددة تستوعب كل التخطيط المرسوم والتوقعات الديمغرافية والاجتماعية.

ولكن انعدام تخطيط للثقافة الوطنية يومئذ، والامتصاص المستمر للمؤثرات الإيديولوجية. وتنوع التكوين التربوي في بلادنا من غير إيجاد قاعدة أساسية للمدرسة المغربية يوحد الأجيال روحياً وفكرياً ووطنياً ، أدى إلى نشوء تناقضات أساسية في تكوين الأفكار والمنطلقات الإيديولوجية؛ بين فئات من المثقفين.

إن تتبع ظواهر الثقافة المغربية خلال العشرين سنة الأخيرة يُفضي لا محالة بالدارس إلى ملاحظة أمرين :

1) الأمر الأول هو كون هذه الثقافة حتى الآن لا تقوم بدورها في تثبيت الشخصية الأصيلة للمواطن المغربي بالقياس إلى الأجيال الصاعدة التي تخضع اليوم لتكوين متنوع متباين، فاقد للقاعدة الروحية والتربوية الإسلامية بالمعنى العميق للتربية.

وقد عبر جلالة الملك الحسن الثاني عن تأكيد خشيته من مسخ «الشخصية المغربية» في كلمته التي ألقاها في وفد قدماء تلاميذ الناظور فقال :

«إن المغرب معرض لخطر واحد هو أن تمسخ شخصيته. المغرب لا يخشى الفقر لأن الله سبحانه وتعالى أعطاه الخيرات... ولا يخشى السيطرة، لأن الله خلق فينا روح الدفاع وروح الكفاح وعدم القبول بأي سيطرة كيفما كانت. ولكن المسخ الحقيقي هو مسخ الشخصية. أخشاها وأخشى المسخ من كل شيء. وذلك لأن بيوتنا انحلت، ولأن الآباء سلموا مقاليد الأمور، ولأن الأسرة أصبحت منعدمة أو متخلية عن مسؤولياتها».[11]

11) انبعاث أمة : ج 24 ص 102.

2) والأمر الثاني هو شيوع روح الانتقاد في الساحة الثقافية والفكرية. ولكن هل هي نزعة واحدة أم نزعات ؟ نعم هناك نزعات متناقضة، فما ينتقده هذا يقع موقع القبول من ذاك. مما يدل على الارتباك في فهم ما ينبغي أن تكون عليه الشخصية الوطنية. وعلى الاستلاب الفكري والتبعية الثقافية.

فنزعة تنتقد البعد عن روح الإسلام وعن قيم الأصالة.

وأخرى تضيق بهذه الأصالة المعبر عنها ذرعاً وتسميها «رجعية».

ونزعة ثالثة تبحث عن شخصية «اثنولوجية» تعتبرها الإطار الأساسي للخصوصية المغربية، بحجة وجود قوام لغوي عريق لهذه الخصوصية.

ونزعات أخرى ظاهرة ومتخفية.

والسؤال الذي تمليه المرحلة والظرف الوطني الذي نعيشه اليوم يتفرع إلى شقين؛ أو سؤالين اثنين :

- هل الثقافة المغربية توازي حالياً من حيث التنظيم والتوجيه والمقومات خط النضال الوطني والتعبئة الشاملة التي يعرفها مغرب اليوم من أجل استكمال وحدته وتنميته الاجتماعية ؟.
- وهل هذه الثقافة عامل موجه لتحقيق النصاب الأدنى من وحدة الفكر المغربي، هذه الوحدة التي لا تتنافى مع الاختلاف في الفروع والتفاصيل والمناهج. ولكنها وحدة ضرورية لا بد منها لأمة يلازمها التحدي بحسب ما لها من موقع حضاري وجغرافي أو جيوسياسي ؟.

وعندما نقول مغرب اليوم نعني على وجه التحديد ما عناه قائد الأمة ورمز وحدتها جلالة الحسن الثاني حين قال في خطابه بعد المسيرة الخضراء مباشرة (خطاب 17 نونبر 1975).

«إن هذه المسيرة خلقت مغرباً جديداً، عليه واجبات جديدة، وعليه التزامات جديدة، فعلينا أن نكون أكفاء لها».

إن استشعار الجدة كما يشعر بها الحسن الثاني واجب وطني. لأنها يجب أن تضفي على كل مواطن روح الجدية والالتزام والإيمان بالوحدة، لا الترابية وحدها، ولكن الفكرية والشخصانية اللتين هما قوام الوجود الوطني.

وهذا ما يُطالَب به المثقفون من العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء والفنانين لينخرطوا في روح «المسيرة». التي لفتت نظر الدنيا إلى أمتنا وأصالتها.

وعندما نقول عن التحدي إنه يلازم أمتنا، فإنما أعني ما عناه جلالة الحسن الثاني حين قال : في رده على خطاب الوزير الأول في حفلة 15 مارس 1980 بمراكش[12] :

(إنني قلت من جملة ما قلت : إن المغاربة يجب أن يكونوا في هذا القرن، وفي القرون الآتية مجندين ملحين دائماً، ذلك أن الله اختار فخلق، وجعل المغرب في ملتقى البحرين، وملتقى البحرين فيه خيره وشره، حلوه ومره.

خيره وحلوه هو الوصل بين الحضارات، بين الأجناس، بين التاريخ والتاريخ، بين الشمال والجنوب، بين أوربا وإفريقيا، بين أوربا والشرق الأوسط.

شره ومره، هو أنه من كان على باب ملتقى البحرين لا بد أن يبقى محسوداً، محط الأطماع والمؤامرات الدولية لزعزعته من قاعدته التاريخية والاجتماعية والبشرية، وهذه الزعزعة عرفها المغرب مراراً وتكراراً طيلةتاريخه، ولكنه وجد دائماً، ولله الحمد، قبل الإسلام في فضيلته البشرية، وبعد الإسلام في فضيلته البشرية أيضاً تلك التي تحلت بالأخلاق الإسلامية والرسالة المحمدية، وجد فيهما معاً ما جعله يقف سداً منيعاً، بل مناوئاً لكل من أراد أن يدوسه بقدمه، وأمام كل من أراد أن يمشي على جثته).

12) انبعاث أمة : ج 25 / ص 126.

والتعليق الذي يمكن أن نقدمه في سياق هذا الموضوع على كلمة جلالة الملك الحسن الثاني المليئة بالمعاني الوطنية المتأججة هو أن القاعدة التاريخية والاجتماعية للمغرب مؤسسة على استمرار ثقافي هو الذي تحدثنا عنه، واعتبرناه حجر الزاوية في كل نهضة حقيقية. فالثقافة والمعرفة أصبحتا أكثر من أي وقت مضى قاعدتي التنمية الاجتماعية والاقتصادية، فضلاً عن كونهما قاعدتي الحضارة والاستمرار التاريخي.

ولا بد هنا من أن نستنير بهذه الكلمة التي قالها جلالته في ندوة إيفرن[13] 28 غشت 1980.

«ها هو المغرب اليوم بنخبته السياسية والعلمية والدينية في مستوى الاستدعاء، والتلاقي والحوار.

ذلك أننا جئنا للحوار، ولم نأت هنا لفرض شيء. ولم نأت هنا بمعجزات في جيبنا، بل جئنا هنا بنية صادقة، وشعور هادف، حتى يرحمنا أبناؤنا في عالم لا يرحم إلا من هو كفء ليعيش فيه، في جو من المنافسات والمسابقات والرهان. لا يرحم ولا يعرف للنية معنى إلا إذا كانت تلك النية يتبعها عمل جاد وخلاق وبناء.

وليس من الغريب أن يأتي اليوم إلى إيفرن من كل حدب وصوب، أقوم الرجال وأعقلهم، لأن مشكلة التعليم بالمغرب ليست مشكلة ينفرد بها المغرب دون غيره، بل هي مشكلة العالم، هي مشكلة القرن الواحد والعشرين، وهذه المشكلة يعرفها الجميع، سواء من ينتمي إلى الأنظمة الليبرالية أو الأنظمة الاشتراكية، سواء الدول الغنية أو الدول النامية، والمغرب يعرف هذه المشكلة من نافذتين : النافذة التي هي نافذة هذه الدول، والأنظمة التي ذكرتها، ويعرفها أيضاً، **لأن العلم والحضارة والثقافة هي مقومات المغرب منذ أن خلقه الله، فإذا نحن أخذنا تاريخنا منذ الرومان والفنيقيين نجد أن العلم ملازمٌ لنا ملازمة الهواء المطلق للأرض التي يعيش عليها الإنسان، فتساؤل المغرب عن مصيره التعليمي هو تساؤل كيف سيكون المغربي رجل القرن الواحد والعشرين ؟ وهو ليس تساؤل القرن وكفى، بل هو إجابة لغريزة فطرية، لأن العلم والثقافة هما الحاسة السادسة للشعب المغربي، لازمته وستلازمه».**

عندما كان جلالة الحسن الثاني يفوه بهذه الكلمات، ولا سيما حين اعتبر الثقافة والفكر بمثابة الحاسة السادسة للشعب المغربي فإنه عبر بدقة عن المنهج الوحيد لخلق مغرب جديد. مغرب يعزز مكانته الحضارية والتاريخية من خلال إبداعه وقبل ذلك من خلال نموه واستقراره. ولا نعتقد أنه يمكن تحقيق نمو بغير علم، ولا استقرار بغير ثقافة، ولا إبداع حضاري بغير الاشتراك الفعال في حركة الفكر المتقدم المبدع.

☆ ☆ ☆

ونعود إلى قضية الاستقرار والاستمرار للوحدة الوطنية، فلا نرى لهما من وجود في غير ظل الثقافة الموحَّدة والموحِّدة. وأقصد بأن نجعل من وحدة الفكر والثقافة في بلادنا حزام أمن يقينا شر التقلبات والانقسامات والتمزق الإيديولوجي الذي يجتاح عالمنا المعاصر. ولنا في الثقافة الإسلامية خير مثال على ما تحقق للآخذين بها من وحدة وتماسك وإشعاع حضاري وإنساني عبر عصور الازدهار، وفي ظروف وملابسات حافلة بالنزاعات والانقسامات والشعوبيات.

إن الثقافة العربية الإسلامية المغربية هي الإطار العام الموحَّد والموحِّد. وهي باختصار المظهر الحقيقي للأصالة الوطنية. وإذا كان هذا الإطار متيناً ومحيطاً وعميقاً فإن كل ما يبدو نشازاً أو مستورداً أو غريباً ستستوعبه تلك الروح الأصيلة وتحوله إلى ذاتها، وتصهره في بوتقها.

فكل شيء قد يعتبر موضوع اختلاف، منهجاً أو فكراً أو إحياء تراث قديم أو تعاطي ثقافة إثنولوجية، ستصهره الروح الموحدة الشاملة في بوتقتها ليقوي فكرنا الوطني وأصالتنا القومية. بفعل الفكر الإسلامي الذي وحد العالم الإسلامي في عنفوان انقسامه إلى إمبراطوريات وحضارات ولغات وسلالات.

13) انبعاث أمة : ج 25 ص 367.

الثقافة المغربية إذن مدعوة إلى التعبئة لإنشاء الفكر المغربي الذي يدعم الوحدة والتضامن والتمازج في عالم يتمزق إيديولوجياً وعرقياً ومادياً. **إنها دعوة إلى مسيرة ثقافية.**

**وعندما أقول المسيرة الثقافية فإنني أعني تعبئة كل المثقفين والعلماء. وأقول العلماء لأن على هذه الطائفة ألا تتخلف. عليها ألا تقع في التراجع والإنطواء. علينا جميعاً ألا نقع ضحية اغتراب عن ركب الحياة المتطورة، وركب الحضارة المتقدم.**

لقد خاطبنا جلالة الحسن الثاني في أول اجتماع عقده مع رؤساء أعضاء المجالس العلمية (فاتح فبراير 1980) قائلاً :

**«إنكم حضرات العلماء ـ ولست أدري ولا أريد أن أدري، من هو المسؤول ؟ هل أنتم، أم الإدارة، أم السياسة، أم البرامج ؟ ـ أصبحتم غائبين عن الميدان اليومي في المغرب، بل يمكنني أن أقول : إنكم أصبحتم غرباء كذلك. ليست تلك الغربة التي يقال فيها : «وطوبى للغرباء». بل هذه الغربة التي نؤدي ثمنها جميعاً، كنا أطفالاً أو شباباً أو كهولاً أو شيوخاً».**

وإذن فعلى الإسلام من خلال ثقافته وعلومه أن يصمد باعتباره حجر الزاوية في ثقافة المغرب. وصموده إنما يأتي من قدرته على التحكم في مقاليد الحياة وتوجيه الحضارة والإسهام في نمائها، لا في تطويقها واعتزالها. وتلك رسالة العلماء.

وكيفما كانت الحال فإن ثقافة مغربية موجهة وملتزمة وواعية يجب أن تعزز مسيرة النماء والبناء التي دخلنا مرحلتها الجديدة فيما بعد المسيرة الخضراء.

**هذه الثقافة المغربية يجب أن تنطلق من وعي واضح بمنهج الإسلام الشامل في حفظ الإنسان وصيانة كرامته، وإحكام نظام حياته. ومن وعي واضح أيضاً بالأصالة المغربية والتراث المغربي الحضاري في كل أشكال تعبيره وإبداعه ومناخاته الشعبية. ومن وعي واضح أيضاً بالمسؤولية التاريخية والحضارية لوطننا الواقع في ملتقى البحرين والحضارتين والقارتين.**

وإن ضمان النجاح لتحقيق هذه التعبئة الثقافية لهو وجود قيادة واعية بهذه الحقائق كلها، وبهذه الشروط التاريخية كلها.

**بل يجب القول بأن هذه القيادة الحسنية الملهمة لما لها من فكر بصير ونظرة مستقبلية نافذة، وبما لهذا الفكر أيضاً من شمولية وفعالية، هذه القيادة تأتي في مقدمة الركائز لتحقيق مسيرة ثقافية قوامها الوحدة والاستمرار.**



# الاحتفال بعيد العرش

## ركيزة أساسية للحفاظ على الوحدة الوطنية

الدكتور حمداتي شبيهنا ماء العينين

عندما تولى جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه عرش أسلافه المنعمين سنة 1927، وجد المغرب مقسما إلى جهات استحدثتها المصالح الاستعمارية، ليسهل عليها التحكم في شتى قدرات هذا الوطن، الذي ظل درعا قويا عرقل زحف الاستعمار الأوربي من الشمال إلى الجنوب.

**فالإرساليات المسيحية ما استطاعت أن تصل إلى أي مكان من القارة الإفريقية، إلا ووجدت أمامها مئذنة، أو زاوية مغربية، أو مجموعة من التجار المسلمين، كلهم أو جلهم من أصل مغربي، ربحهم الأول وغايتهم القصوى تنحصر في نشر الإسلام وتلقين كتاب الله العزيز، إضافة إلى نقل ألوان من الحضارة المغربية،** تاركة بصمات من الفن المعماري المغربي، تتفاعل مع التطور المرحلي الذي أخذت القارة تشهده، بفضل التعامل مع المغرب المسلم فكرا وحضارة ومعتقدا، فلا غرابة إذن إذا شكل الحضور المغربي في أكثر من واجهة حاجزا بين التسللات الأوربية، وبين ابتلاع القارة السمراء بسهولة ويسر.

إن كل من وضع أمامه واقع ذلك المجهود لن يستغرب من كون الاهتمامات الدولية ركزت على المغرب أكثر من غيره، ابتداء من القرن السادس عشر، وحتى اللحظة التي تمت فيها تصفية آخر جيب من جيوب المقاومة الوطنية في الشمال والجنوب.

ولا يستغرب المرء بعد ذلك إذا رأى المغرب موزعا إلى شرائح إدارية تمزقه، لتنتزع من مواطنيه ما أمكن من التمسك بالوحدة الوطنية، حتى تتم تنشئة أجيال ربتهم المدارس الاستعمارية على الشعور بذاتية ضيقة ينزوي أصحابها في إقليمية تم إخضاعها لخدمة أهداف تعاكس مصالح أهلها، بطريقة يمكن تدليسها عليهم.

ويدل على هذا الهدف المسميات التي أدخلت قاموس السياسة المغربية مع مطلع الثلاثينات من هذا القرن، والتي تظهر غاية المستعمر القصوى، الرامية إلى غرس ما أمكن من بذور الشقاق والتنافر بين مختلف فصائل الشعب المغربي من طنجة إلى لكويرة، و يمكن ضرب مثل على ذلك من خلال المسميات التالية :

- نظام الحمايات الأجنبية.
- نظام طنجة.
- المنطقة الخليفية.
- الحماية الفرنسية في الوسط.

- الحماية الإسبانية في طرفاية.
- منطقة نفوذ في الساقية الحمراء.
- منطقة مستعمرة في وادي الذهب.
- منطقة شرقية ألحقت بفرنسا الجزائرية.

وغني عن التوضيح ما يمكن أن ينجم عن هذا الوضع الإداري من تناقضات بين مختلف الجهات، وما يتولد عنه من أحقاد تدفن المصالح الاستعمارية جراثيم بذورها من حين لآخر.

فنظام الحمايات الأجنبية أوجد طبقة من سماسرة الضمير، أجروا أنفسهم لخدمة المصالح الأجنبية على حساب أمن بلدهم واستقلاله سياسيا وماليا، فعن طريقهم تدخل القضاء الأجنبي ليحد من سيادة المحاكم المغربية، وبعمالتهم انفجر نزيف اقتصادي امتص كل الموجودات المالية بالمغرب.

وهذا الإجراء الذي وقع قبل عقد الحماية، تبعه إجراء آخر استخدم كمحاولة لفصل فئة أخرى من المواطنين عن وطنها، وجعلها أداة في يد الدول الأجنبية، وهذه المرة اختير لهذا الهدف سكان مدينة بكاملها هي مدينة طنجة.

ولما تلاحقت الأحداث، وتكالبت الدول الغازية على وطن صمد زهاء ألف سنة في وجه جميع المحاولات الرامية إلى استعباده، والحد من تحكم العقيدة الإسلامية في أبنائه، وعن طريق تماسك صفوف الدول الغازية في مواجهة جبهة داخلية دبّ فيها الوهن، وأصبحت تقاسي من تنكر بعض أبنائها، استطاعت المصالح الأجنبية أن تتوصل موقتا إلى فرض عقد الحماية على المغرب، لتجعل منه لتمزيق الوحدة الوطنية المغربية، حتى يجد المغاربة أنفسهم بعد الاستقلال ومساحة أرضهم تشكل الأقلية من بين أراضي دول المغرب العربي باستثناء تونس، والحال أنه كان يتوفر على أكبر مساحة داخل المجموعة العربية.

ثم أخذت مصالح الاستعمار من مختلف الجنسيات تبث التفرقة، وتدس الدسائس، وتنمي الأحقاد، وتوجه كل شريحة إدارية إلى التفكير في استحداث نواميس اجتماعية خاصة بها، تجعلها متميزة اجتماعيا عن باقي جهات الوطن الأخرى.

وفي خضم هذا التباعد الإداري الرامي إلى نسف ما أمكن من التماسك الوطني روحيا وسياسيا، **أدرك المغاربة أن الملك الموحد الشجاع، هو محمد الخامس طيب الله ثراه، وعندها بادروا بإعلان سنة الاحتفال بعيد العرش مجسدين بذلك تمسك جميع المواطنين ببيعتهم الشرعية لإمام المسلمين**، وتلك هي الشعيرة الوحيدة التي بقيت بأيديهم آنذاك من شعائر الوحدة الوطنية.

ومن خلال هذا الإجراء الذي طغا جانبه الديني في بادئ الأمر على وسائل الاستخبارات الاستعمارية، توصل المغاربة بفضله من وجود فرصة موحدة تمكنهم من الاجتماعات واللقاءات، وتدارس الأوضاع المحيطة بهم ليقيموا نتيجة نضال سنة، وليعدوا برنامج سنة أخرى.

ومن ذلك التاريخ **أصبح عيد العرش المناسبة الوحيدة التي تجمع شمل الأمة وتتيح لها الفرص لبذل مزيد من التضحية من أجل الانعتاق والتحرر.**

ومن هنا تبدو أهمية الاحتفال بعيد العرش السعيد، إذ يترجم كفاح أمة، وفرصتها الوحيدة التي مكنتها من الحفاظ على وحدتها ولم شعث أقاليمها رغم الحواجز المصطنعة ووسائل الاستخبارات المدسوسة.

ولعب عيد العرش من بداية الثلاثينات دورا حاسما في الدفع بعجلة الكفاح الوطني إلى المستوى الذي يجعل المغرب مستقلا استقلالا حقيقيا ينمي المواهب، ويستثمر الكفايات ويحقق المعجزات.

لقد ظل القصر الملكي خلال الثلاثينات والأربعينات مركز اجتماعات الوطنيين، ومصدر توجيهاتهم، بحيث كلما استفحل الخلاف بين مصالح المقيم العام، وجماعة من الوطنيين المغاربة، كان محمد الخامس طيب الله ثراه، يحول بين الوطنيين، وبين أية جهة تحاول مسهم بسوء، ولا

غرابة إذا وجد المؤرخون الأمر يكتسي لونا آخر، ويعرف ديناميكية جديدة، عندما أصبح المنظر الحقيقي للكفاح الوطني، **هو ذاك الأمير الشاب المشبع بثقافة عصره، والمميز بمواهب ما تأتت لأحد من قبله، جمع بين العلوم الإسلامية والقانونية، وصهرته الحضارتان الإسلامية والأوربية ليكون آية إعجازهما، ووسيلة افتخارهما عندما يراد التدليل بعظمة عطائهما للإنسانية، إنه ولي العهد آنذاك، جلالة الملك الحسن الثاني اليوم.** فبفضل مؤازرته لوالده، وبعد نظره، وشجاعة مواقفه، وحسن إدراكه لأبعاد أمور عصره، استعاد المغرب دوره في قيادة كفاح القارة الإفريقية، التي كانت آنذاك تغط في نوم عميق حجب بواسطته عنها الاستعمار الأوربي أي أفق يمكن أن ترى منه أبعاد مستقبلها، فإذا استثنينا مصر التي لا ينكر دورها في العمل من أجل استقلال الدول الإفريقية، وجد المغرب نفسه في ساحة يعمل فيها وحده، وهو مطالب بأن يخوض نضالا مسلحا يمكنه من استرجاع سيادته ووحدة جميع أراضيه، كما أنه مطالب أخلاقيا بأن يوجه جيرانه للعمل من أجل الحصول على استقلالهم، وتكريس ذلك الاستقلال لوحدة جميع شعوب القارة الإفريقية، حتى تستثمر خيراتها لصالح كل أبنائها، وحتى تستعيد مكانتها اللائقة بها.

وفي جهود العرش العلوي المجيد التي تلت استقلال المغرب مباشرة بقيادة جلالة المغفور له محمد الخامس ووارث سره جلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله خير دليل على توجهات عمل المغرب آنذاك، فلقد قام محمد الخامس طيب الله ثراه، بوضع التصورات الأولى للطريقة التي يمكن أن ينقذ بها شعبه وأرضه، من نير العبودية والاستعمار شكلا وجوهرا، كما كان واضحا من خلال تقصي مواقفه التاريخية أنه كان هادفا إلى جعل تحرير المغرب ما هو إلا مرحلة أولى من مراحل تحرير مختلف أراضي وشعوب القارة الإفريقية، وكمنطلق لإنقاذ مختلف شعوب وأراضي دول العالم الثالث، ليتم التوازن الفكري والحضاري لعالم أصبح ضحية تجاذب مختلف التيارات العاتية، يترجم هذا الواقع موقف جلالته من قضية الصراع الذي كاد يعصف باستقلال الكونغو في حرب إقليم كاتانكا، ووقفته الشجاعة تجاه عملية القرصنة التي ذهبت ضحيتها حرية زعماء الثورة الجزائرية، إذ ورغم الظروف الصعبة التي كان يمر بها المغرب، وهو يجتاز مرحلة ما بعد الاستقلال وما شابها من محاولات لعرقلة سير أمور الدولة، لم تكن أيادي دهاقنة الاستعمار منها ببعيدة، برغم ذلك وقف جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، وولي عهده آنذاك جلالة الملك المعظم الحسن الثاني تلك الوقفة الشجاعة التي جعلت المستعمر يدرك أن الثورة الجزائرية ليست وحدها، وأن المغرب الذي عرف المستعمر صلابة مقاتليه وشجاعة نظامه ووطنيته، يضع كل ثقله في مساندة من يسعى لاستقلال جارته الشعب العربي بالجزائر.

وإن كان لم ينطل على كثير من المغاربة أن أبو مدين وجناحه غلب عليهم الحسد والحقد، ولم يستطيعوا إخفاءهما حتى في الفترة التي كانوا يوجدون بها تحت حماية عمالة وجدة، قاعدة المغرب الشرقي، المهم في الأمر هنا هو أن محمد الخامس طيب الله ثراه، وبمساندة ولي عهده آنذاك جلالة الملك الحسن الثاني قد جعلا تحرير القارة الإفريقية هدفا فوق كل اعتبار، ومن هذا المنطلق تبين له أنه لا طريقة لجمع الكلمة وتوحيد الرؤية الإفريقية تجاه مشاكل العصر المتنامية، إلا بقيام نوع من العلاقات الجماعية يسمو على الاتصالات الثنائية بين الدول لتنصهر فيه كل الاهتمامات، والتطلعات الإفريقية، فيسهل بالتالي حمايتها من التناحر والحرب والتشذرم، فاهتدى العرش العلوي المجيد إلى الدعوة إلى قيام وحدة مابين الأقطار الإفريقية، فيدرالية، أو كونفيدرالية، أو اتحاد إقليمي يقوم على أساس تنسيق المواقف، ودراسة العلاقات الإفريقية، ثم علاقات الأفارقة ببقية التكتلات الدولية، والمنظمات العالمية أو الجهوية، وفعلا توصل جلالة المغفور له محمد الخامس هو وولي عهده إلى إقناع جل رؤساء الدول المستقلة آنذاك إلى عقد مؤتمر بالمغرب، يصدر ميثاقا تأسيسيا ينظم طريقة علاقات الدول الإفريقية في إطار نوع من الوحدة.

ورغم مركبات العظمة التي تحكمت في توجهات وأعمال بعض قادة إفريقيات آنذاك «كما هو الشأن اليوم» فإن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والدكتور نيكروما، وسيكتوري وموديبوكيتا، كلهم لم تستقطبهم فكرة تجمعهم تحت سقف بناية واحدة قبل مبادرة جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه، في ذلك المؤتمر الرامي إلى تصفية الاستعمار بجميع أشكاله، ونبذ العنصرية وحماية استقلال دول القارة، وبناء وحدة دولها، وجلاء قوات الاحتلال، ومناهضة التدخل في شؤون دول إفريقية الداخلية.

وبعد مرور 26 سنة على هذا النداء الذي وُجّه للجميع وبمحضر 6 من أبرز الزعماء الذين عرفهم التاريخ الإفريقي، يجد الإفريقي نفسه مضطرا للتساؤل عن مصير هذا النداء الذي تكلم به جلالة محمد الخامس باسم كل رجل وامرأة وطفل إفريقي، لأنه جسّد الطموحات الإفريقية.

وبقطع النظر عن الانحرافات التي عرفتها تلك المنظمة بعد ذلك، **فإن التاريخ سيبقى شاهدا للمغرب، أنه أول من نظم مؤتمرا إفريقيا لدول القارة المستقلة عبر التاريخ.**

لا شك أن المناسبات تكبر بحسب مكانة أصحابها، لذلك فإن عيد العرش إذا كان يعتبر مناسبة يستعيد فيها المغرب أمجاده، ويتذكر ملاحمه، ومفاخره، فإن الكاتب والشاعر، وغيرهما من رجال الفكر، يقف عاجزا عن معرفة الصورة التي يمكن أن يعطيها لشخصية جلالة الملك الحسن الثاني القائد العظيم، والمخطط الملهم، والعالم العامل والسياسي المتبصر، والملك الشجاع، والداعية المخلص.

لقد جمع شتات أمة، وبنى نهضة شعب،
علم وكافح وبنى وشيد.

إن عصرنا اليوم رغم تضارب مصالح أهله وتشعب علاقات دوله، لا ينسى له أنه أبرز أعظم قائد عرفته الأمة الإسلامية بعد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، ألا وهو جلالة الملك الحسن الثاني باني السدود ومشيد الجامعات، وموحد البلاد، والساعي إلى توحيد صفوف المسلمين وموجه الأفارقة إلى ما فيه مصلحتهم، والداعي إلى السلم في عظمة تقهر كل وسائل الدمار.

إن كل ما كتب عن الملك العظيم الحسن الثاني ما زال دون مستوى عظمته، فتنوع مظاهر نبوغ شخصيته، علما وسلوكا، وممارسة لأخلاقيات حضارية جسدتها جرأة في الإقدام على أصعب المواقف ليجني منها شعبه أعظم النتائج تبرز إجماع شعبنا على إعطاء احتفالات عيد العرش مظهره المتميز.

فاحتفالنا بعيد العرش مناسبة نستعيد فيها صوراً من ملاحم بطولات شعبنا، ومرآة تعكس من خلالها لأجيالنا عظمة القائد وعدالة الملك، وعبقرية الموجه.

إنها استعراض لنضالات شعب، وبطولات عظماء، وحكمة مسؤول يترجم احتفاؤنا بعيد عرشه تعلقنا بشخصه، وتفانينا في محبته، إنه عظيم جمع الشمل ووحد الأرض، وأزاح الجهل، واستل شوكة الفقر، وحطم أحلام التوسعيين، وألجم مد المتهورين، فليس بدعا أن يتنامى حبه في أعماق شعبه، ليسمو احتفال أمته بعيد عرشه كل سنة عن تلك التي سبقتها، فالعطاء آخذ في التنوع، ومتميز بالعظمة، ومطبوع باستخراج أحسن النتائج من أعماق المستحيل.

لقد تعلق المغاربة بجلالته وهو أمير صغير، تفاؤلا بحب الدوحة التي انحدر منها، ثم أصبح حبهم لشخصه ينمو ويتأصل، وهم يلاحظون علامات النبوغ تصاحب شخصيته في كل طور من أطوار شبابه، وما إن بلغ سن الرشد، وأخذ زمام المعركة والده المنعم حتى بدأ الكل يدرك أن شبل الأطلس، سيكون أعظم ملك عرفه التاريخ...

وإذا كان جلالة الملك محمد الخامس اعتلى عرش أسلافه المنعمين، والمغرب مقدم إلى تلك الشرائح التي تمت الإشارة إليها أعلاه، فإن جلالة الحسن الثاني اعتلى العرش والمغرب مكبل بنتائج تلك المؤثرات، فلقد وجد القواعد الأجنبية لا زالت جاثمة فوق التراب المغربي، ومدينة سيدي إيفني تحت النفوذ الإسباني، والصحراء المغربية تحاك المؤامرات لابتلاعها وفصلها عن وطنها

المغرب إلى الأبد، إضافة إلى مشاكل الوضع في موريتانيا، والصحراء الشرقية، وما جر كل ذلك من حمل حساد المغرب، وخصومه الذين لا مبرر لهم في أسباب معاكسة هذا البلد، إلا إذا أدركنا أنهم غاظهم ما توفر عليه من رصيد حضاري خلد شعبه وعرشه في طليعة عظماء المسلمين، ذلك الرصيد الذي طواه الزمن في سجلاته الخالدة، وبخل على أعدائنا اليوم من أن يحسب لهم تاريخيا أي حساب، كل ذلك حملهم على مناهضة المغرب في كل شيء.

هذا هو الحال الذي وجد عليه جلالة الملك الرقعة الوطنية، إضافة إلى اختلاف وجهات نظر كثير من القوات الحية حول المستقبل الذي يحلم كل واحد أن يرى عليه وطنه. وما إن تسلم جلالته مقاليد الحكم حتى جعل حدا لوجود القواعد الأجنبية فوق سائر الجزء المستقل من تراب مملكته السعيدة، وبعد حوار مضن، وجهاد عبقري لا يعرف الله ل استرجع مدينة سيد إيفني.

وليفتح باب تعايش أفضل لكل دول المغرب العربي، اعترف بالوضع القائم في القطر الموريتاني الشقيق حتى يكون التشاور والوفاق هما وسيلتي وحدة نمت بتعاليم الإسلام، وحمتها إرادة سكان تم تفاعلهم الحضاري بطريقة أكثر صلابة من أن تذهب ضحية رسم الحدود المستجدة رعيا لمصالح الدول الكبرى فوق أراضي الدول التي حصلت على استقلالها حديثا.

وليستعيد المغرب مكانته الإسلامية دعا إلى عقد أول قمة إسلامية جمعت كل قادة الدول الإسلامية، وإذا أصبح لمحمد الخامس طيب الله ثراه، أجر وميزة العمل على عقد أول قمة عرفها تاريخ القارة الإفريقية، **فلقد أصبح لجلالة وارث سره الملك العظيم الحسن الثاني أجر وميزة عقد أول مؤتمر إسلامي جمع بعد دولة الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين كل أهل الحل والعقد في الأمة الإسلامية، كما قام جلالته بدور فاعل في توجيه القادة العرب إلى نبذ خلافاتهم وتوحيد صفوفهم.**

إن عبقرية الحسن الثاني الملك العظيم أسمى من أن يحيط بجوانبها مقال، أو كتاب، أو قصيدة، ولعل طموحاته لشعبه تبرز من خلال ما قاله في خطاب العرش لسنة 1964 ولم يمض على توليه عرش أسلافه سوى ثلاث سنوات، كانت باكورة إنجازاتها إزاحة القواعد الأجنبية كما تم صد العدوان الجزائري على «حاسي بيضا»، وتمتيع البلاد بدستور يضمن سيرها كدولة عصرية ويصون قيمها كأمة إسلامية، وقد يترجم ذلك الخطاب الآمال الجسيمة التي بدأت تلوح في أفق طموحات ملك شاب جمع أصالة الماضي وعبقرية وجدة الحاضر، فقال جلالته يوم 3 مارس 1964 :

(والله شهيد على أنني كما قال جدي عليه الصلام والسلام : «اللهم إني لا أسألك نفسي ولا فاطمة ابنتي وإني أسألك أمتي».

والله على ما أقول شهيد ووكيل، اللهم إني لا أسألك نفسي ولا مريم ابنتي وإني أسألك شعبي، أسألك أن يستقيم، وأسألك لجميع المسؤولين من جميع الإطارات والمستويات أن يخدموا بلادهم ويحبوها ويرأفوا عليها ويحيطوها بقلوبهم من جميع الأخطار التي تهددها).

إن هذه الجملة من ذلك الخطاب الذي جمع صنوف البديع، واستقطب أحسن الكلام واستعرض جميع المشاكل، وسن أحسن الحلول للتغلب عليها، ليجعلنا نقول بأن جلالة الحسن الثاني لم تخلق مواهبه لنفسه، وإنما خلقت لتكرس لخدمة شعبه، الذي لا يريده شعبا مسلما خاملا، ولا شعبا راقيا منحلا، وإنما يريد أن يكون الشعب المغربي والدولة المغربية ذلك الشعب المسلم الحر الديمقراطي الراقي، الذي يتمسك بتعاليم الإسلام جوهرا، ويتسامى عن الأفكار المتحجرة التي جعلت البعض يقوقع الإسلام في دائرة الخمول، والاكتفاء بتأدية الشعائر بعيدا عن الأهداف العليا للإسلام التي تدعو للعمل وتنبذ الكسل والانحراف والتزمت، فقال جلالته في نفس ذلك الخطاب :

(وإن في تعاليم الإسلام الحنيف، وهدي القرآن الكريم ما يملأ النفوس فضيلة والمحجة نوراً، فلنخلص العمل لربنا، ولنتمسك بتعاليم ديننا، وتقاليد قوميتنا تتحقق لنا الآمال وتثمر الأعمال وتحالفنا السعادة في الحال والمآل).

هذه النظر الإسلامية التي أراد جلالته أن يطبع بها عمل شعبه وسلوك دولته.

فهو يسأل الله لشعبه قبل نفسه، وقبل أبنائه، ولكن في ذلك الابتهال إلى الله لا ينسى واجبه كملك عصري يسعى لتطوير دولته، وتثقيفها.

يسأل الله أن يستقيم الشعب، لأن ظلم الشعوب وخروج أبنائها عن الاستقامة السياسية والدينية مؤذن بزوالها، وتواكلها وخراب قيمها، ونسف أخلاقها، قال أمير الشعراء أحمد شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
وإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فإذا استقام المسؤولون حسب التوجيه الملكي السامي سيستقيم الشعب حتما، لأن المواطن إذا قدم على مسؤول مؤمنا بأن حاجته لن تقضى على حساب آخر، لا على حساب وقته، ولا على حساب ماله، وحتى معنويته، فيشيع الاطمئنان وتركن نفوس الجميع إلى الهدوء، واحترام مرافق الدولة، ليمنحها الجميع ثقتهم، ولينصفوها فيما لم تستطع أن تحقق من حاجاتهم.

ومن الاستقامة التي دعا إليها أيده الله ونصره نزاهة الضمير، وسلامة الطوية، وتسيير مرافق الدولة بعيدا عن الحساسيات الشخصية جهويا أو سلاليا، أو حزبيا، فكل من استخدم الإدارة بعيدا عن الاستقامة، فقد خالف أمر الله عند قوله : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾، فصاحب أمرنا نحن المغاربة جلالة الملك الحسن الثاني، أدى الأمانة وبلغ ما تدعو إليه رسالة جده، واستنكر المنكر ووضح الحق ورسم طريق العدل، تحدى التصرفات الطائشة بقوة القائد المدرك لعدالة موقفه، والقانوني الواعي بشرعية ملفه، وذلك في قضية استرجاع صحرائنا من براثين استعمار ظن أنه وضع اللمسات الأخيرة على لعبة ابتلاعها إلى الأبد، وكم حاول غلاته جر المغرب إلى مواجهة، تجعل المنطقة تغرق في حرب، سرعان ما يجد الكبار أنها بين طرف عربي ومسلم، وبين صليبي مسيحي، فينجذبون كما هي العادة إلى مناصرة الأخير على الأول، وخلق كل المبررات التي تذهب بقداسة الحق في خضم فورة الباطل.

وتحدي جلالة الحسن الثاني من منطلق القوة الفكرية والشجاعة الحربية التي تكيف وسائل الدمار مع أسلوب الإقناع، حتى تم التوصل إلى الحق المغربي مع تجنب المواطنين أفدح الخسائر، وإن كانوا على استعداد لبذل كل تضحية من أجل استرجاع الحق، إلا أن هدر الإمكانيات في أنهار الدم ميزة من مميزات المتوحشين، ومن خلال التحدي العبقري النادر والذي لم يتوفر في هذا القرن على الإطلاق لقائد أو ملك على المستوى الذي حبي به جلالة الملك الحسن الثاني، فإنه تحدى أيضا مخاتلات الجزائر ومراوغاتها مع الجيش الإسباني من أجل تقاسم المصالح في الصحراء، وتفويت سيادة المغرب اللاصقة بكل حبة رمل من رمالها، بمحاولة جره إلى مواجهة عسكرية تستخدم فيها قوات الطرفين، بعد أن فشلت حججهم القانونية أمام محكمة العدل الدولية، ففاجأهم بمعجزة الزمن السياسية المسيرة الخضراء، التي ستبقى معلمة نادرة في تاريخ كفاح الشعوب، وتخطيط العباقرة وتوجهيات الملوك، وقيادة الأبطال.

وبهذا فإن جلالة الملك الحسن الثاني أعظم من وصف القلم، وأجل من حجم العبارات، فكلما مضت السنون وتجددت الذكريات إلا وبدت في مفاخره متجددات تتحدى الزمن حاملة قصة تاريخ أمة وعظمة قائد، وكفاح شعب يسعى لإدراك المثل العليا، فتأتي المنجزات حاملة شموخ الإنجاز وبعد الطموح، تجسد مسيرة أمة استطاعت بفضل عبقرية المخطط والموجه، أن تصل إلى أكبر من حجمها في مجرى الأحداث الدولية، في عالم أصبحت مكانة الدول فيه تقاس بحسب الرصيد المادي الذي جادت

به الأرض، أو تحصل من المجهود الصناعي، إلا أن رصيد المغرب تجلى فوق كل ذلك أنه فكر جلالة الملك الثاني، فرغم ما نثر في طريقة مسيرة نهضته العمرانية والحضارية والديمقراطية من أشواك، وما زرع في درب نضاله من ألغام، فإن الإنجاز أتى وفق الآمال.

وها هي استعراضات المنجزات بمناسبة عيد العرش، وها هو التلاحم الشعبي يعكس الدور الذي لعبه احتفال الأمة بعيد توليه قائدها، تلك الملاحم التي خاضتها وانتصرت فيها بقيادة عرش منحته أريكة حب في أعماق القلوب، وبادلها بذلك جهدا لا يعرف الملل وعزما لا يعرف الكلل، حتى تمت الوحدة وتحققت الديمقراطية، وصينت العقيدة، وقوم التفكير، وحورب الجهل والفقر والمرض، بدل محاربة الإخوة، فليدم جلالة الملك أعظم ملك عرفه التاريخ، ولتدم الوحدة الوطنية، يشكل عيد العرش التذكير بمفاخرها والتباهي بمنجزاتها. في ظل أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني محفوفا بولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد مولاي رشيد وجميع أفراد أسرته الكريمة بفضل الله وعونه، إنه سميع مجيب.

**هذه الذكرى توجب علينا أن نعتز بما مضى، ونعتز كذلك بما سنلاقي في المستقبل، علما منا أن المغرب لا يمكنه أن يخطيء، ولا يمكنه أن يتنكر للأسباب التي جعلت منه بلدا شامخا في التاريخ.**

**إن ذكرى كهذه شعبي العزيز، ذكرى مليئة بالتاريخ والأمجاد، والدروس والحكم، فكيفما كانت قيمتها في نفسي، وكيفما كانت قوة نفسي، لا أستطيع أن أفي تماما بما تخلده فينا جميعا من إحساسات؛**

جلالة الملك الحسن الثاني

# ومن خطاب الملك العالم للعلماء

الأستاذ خليفة المحفوظي

في عيد العرش الأمجد السالف، كنت تطرقت في مساهمتي المتواضعة، في العدد الخاص من مجلة «دعوة الحق» إلى موضوع مشابه لهذا العنوان، هو «الملك العالم يخاطب العلماء» وجعلت مداره خطاب مولانا أمير المؤمنين للعلماء، في الدورة الأولى للمجلس العلمي الأعلى، بعد تأسيس المجالس العلمية في شكلها الجديد.

وقد اكتفيت يومئذ، بتعليقات خفيفة على فقرات فقط، من ذلكم الخطاب الهام الذي تجلت فيه جوانب من العبقرية العلمية الفذة، لصاحب الجلالة الملك العالم وهو يخاطب العلماء.

وما كان العلم أبداً معرفة المسائل والقواعد كلية أو جزئية واستظهارها، ولكنه أيضاً وبالأساس معرفة التصرف فيها واستخدامها، وبيان مجالات التصرف والاستخدام، وربما كان هذا الجانب أبرز ما تميزت به شخصيات ذوي الريادة والصدارة من علمائنا.

وهنا بالذات، تبدو ينابيع الإلهام متدفقة عند جلالة الملك الحسن الثاني، فيقرب عنده ما يبعد عن العاديين، ويهتدي في يسر إلى ما هو عسير، ويضع أصبعه على عين الحقيقة في الموضوع.

ولكن المذهل والعجيب في الفكر الحسني، أن ذلك يأتي ارتجالاً في خطب جلالته، وليس وليد تسويد وتبييض، وإنما تجري القوالب والمعاني عنده عفو الخاطر، في أسلوب أخاذ جذاب، هو السهل الممتنع عند خاصة الخاصة، من الخطباء والكتاب، في عالم البلاغة والبيان.

حقاً إن ذلك كان سليقة في حال الارتجال، عند أصحاب الأمالي من علمائنا، وما هم بالكثرة حين العد حتى في عهود الازدهار، وبخاصة في زمن عزّ فيه التوفيق في التحبير والتخمين.

وليس ذلك في الفكر الحسني من تعليل، إلا أنها الموهبة والتوفيق، وسلامة الطوية وصدق الهدف، ومتى صفا الجنان يعذب ويسمو ما يجري على اللسان، وهذا عطاء الله، وعطاء ربك غير محدود.

وإن اكتفيت فيما مضى بالتعليق، فأكتفي الآن أيضا بالتعليق، وما هو بطبيعة الحال بالشرح، فمجال هذا فيه تحديد وتقييد، بينما الأول مجاله رحب فسيح.

وترتكز مساهمتي الحالية، على فقرة من خطاب آخر، لجلالة الملك حفظه الله، وهو الخطاب الذي ألقاه جلالته في دورة المجلس العلمي الأعلى، في التاسع عشر

من جمادى الأولى، عام أربعة وأربعمائة وألف هجرية (19 / 5 / 1404 هـ موافق : 22 / 2 / 1984).

يشتمل هذا الخطاب الهام على غرر وجواهر، لها المميزات والخصائص نفسها التي لخطب صاحب الجلالة، ويتضمن الفقرات أو المحاور الآتية :

- دور اللغة العربية في نشر الإسلام السُّنّي.
- المحافظة على الأسلوب المغربي في التوجيه الديني.
- انتداب المغاربة للدعوة الإسلامية الحق.
- إيفاد أول سرب مغربي لتعليم العربية في البلاد الإسلامية.
- التنسيق بين الفرقان والسلطان وضبط المساجد.
- برامج التوجيه الديني في الإذاعة والتلفزة.
- شعبة دينية في المعهد العلمي الإسلامي المقترح بناؤه بالرباط.

وليس بخاف أن مقالاً كهذا لا يمكنه أن يستوعب التعليق على هذه المحاور كلها، كما لا أنكر أن مقالي السابق الذي التزمت فيه الإيجاز، والتعليق الخفيف، لم يكن مستوفياً لكل ما يمكن أن يتطرق إليه على هامش الخطاب، وما أصدق الأوائل من البلغاء الذين حصروا مجال القول، في الإيجاز والمساواة والإطناب، وجعلوا في ذلك كله لكل مقام مقالاً.

وبهذا الاعتبار، فإني سأقتصر بالتعليق على الفقرة الأولى من الخطاب الملكي السامي، تاركاً بقية الفقرات أو المحاور، إلى مناسبة غير هذه.

وعن دور اللغة العربية في نشر الإسلام السُّنّي، قال جلالة الملك العالم :

**«وبمجرد ما يفتح كل ذي بال وعقل وتحليل، كتاب الجغرافية، يرى أن الإسلام انتشر شرقاً، وانتشر غرباً، انطلاقاً من شبه الجزيرة العربية، ولكن لم يكن انتشاره في الشرق، كانتشاره في الغرب، ذلك أن الإسلام في الشرق الأقصى وجد نفسه مبنياً على نوع من الرهبانية، ونجد أن الإسلام الذي انتشر غرباً لم يحتج إلى تلك الرهبانية، بل منذ اليوم الأول كان سنياً وبقي سنياً.**

**وما هو السبب في هذا الفرق بين الإسلام الأقصى الشرقي، والإسلام الأقصى الغربي ؟**

**الفرق أو السبب سهل، ويمكن أن نوجزه في كلمة واحدة : عدم التعريف بالعربية.**

**فجهل الناس اللغة العربية، هو الذي نشر في الشرق الأقصى المِلّة، ونشر رجال الدين الذين كانوا يحتكرون اللغة العربية، تلك اللغة التي يجب علينا أن ندركها ونكون ملمين بها، حتى يمكننا الاستفادة من أولي الفكر، ومن العلماء، ومن المدرسين، ومن المحاضرين. فأصبح الإسلام في الشرق الأقصى، إسلاماً يتعبد به الناس، لا يعرفون ولا يحفظون أكثر من الفاتحة، وهنا تقف معرفتهم بالعربية.**

**والنبي ﷺ، وكأنه كان يشم هذا في بداية الإسلام، قال : «(لا رهبانية في الإسلام).**

**والرهبانية هنا نشأت عن جهل أفقي وعمودي للعربية».**

إن هذه الفقرة من الخطاب جامعة مانعة في موضوعها، ونحن نعرف تاريخياً أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، والتحق بربه تاركاً المسلمين على خير معتقد وعمل، بالإسلام عقيدة وشريعة، وبمقتضى ذلك كان الحلال عندهم بيناً والحرام بيناً، وتوضحت عندهم معالم الطريق، على هدى الرسالة الخالدة، مستنيرين بقوله تعالى : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾، وشاعرين بعمق المسؤولية

العظمى في قوله تعالى : ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾، ومعتزين بماودعهم عليه نبيه الكريم في حجة الوداع : «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»، وواثقين ثابتين على المحجة الحق، التي تركهم عليها في قوله عليه السلام : «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك».

وجاءت الفتوح متوالية، فعم بها نور الإسلام أقطاراً وأمصاراً، على امتداد عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم، فانتدب دعاة منهم أنفسهم للتوعية بالعقيدة والشريعة، وتفرقوا في البلاد المفتوحة، وكانت اللغة التي نزل بها القرآن، ودونت بها السنة. وكان الإقبال على تعليمها شديداً، للرغبة الصادقة في المهتدين، وللإخلاص في أمانة التبليغ عند الدعاة.

ومن هنا ندرك كيف أن مُدُناً في أمصار لم تكن لها معرفة باللغة العربية، كتبريز وأصبهان، وجرجان وجوزجان، وبخارى وسمرقند، وسجستان وطوس، وسواها من مراكز الإشعاع الفكري الإسلامي، أصبحت مهداً لأئمة كبار، في اللغة العربية وآدابها، وفي علوم القرآن والحديث والشريعة.

ثم جاء عهد الانتكاس بعد استفحال فتنة الفرق الكلامية، فحاد عن المحجة البيضاء بمزج العقيدة بالسياسة من حاد، وزاغ عن بساطة الاعتقاد في الإسلام بالتفلسف من زاغ، وهام في وهاد الشعوبية لعوامل حقدا على العربية والعرب من هام.

وإن هذا الذي حدث، وإن لم يؤثر على الإسلام كثيراً كوجود، ولدى الأغلبية في جهات من الشرق الأدنى والشرق الأقصى الإسلاميين - بل كان الأخير منه من أهم ميادين الدفاع عن العقيدة من المنظور السني، حيث صرخ من بين أبنائه لسان الحق في شخص الإمام الماتريدي، وتصدر على ساحته نخبة من تلاميذ الإمام الأشعري لدحض أباطيل الانحراف - فإنه أثر على مكانة اللغة العربية حتى في المراكز العلمية التي سبقت الإشارة إليها. وما جاء عصر أبي حامد الغزالي حتى ظهرت مؤلفات إسلامية علمية بلغات محلية، وهذا الإمام نفسه مع فضله وعطائه ودفاعه عن السنة، فإنه ألف رسائل وكتباً لهذه اللغات المحلية.

وبانحسار اللغة العربية التدريجي لدى عامة المسلمين، بدت للوجود ظاهرة جديدة هي احتكار اللغة العربية من لدن طبقة معينة، هي طبقة رجال الدين، حيث تحول هذا الاحتكار فيما بعد، إلى استغلال شنيع للدين الإسلامي، بحكم أنهم المرجع في فهم الإسلام لدرايتهم بالقرآن والحديث، في معرفتهم اللغة العربية.

ثم خلف من بعد هؤلاء خلف أضاعوا التضلع، بله التمكن من اللغة العربية، على النحو الذي كان لأسلافهم من التضلع والرسوخ، وصاحب هذا مغالاة في التشييع، انقلبت أحياناً إلى تعصب يخالف العقل والدين.

وآل الاحتكار في جهات إلى ارتزاق مقيت، بالقيم والشعائر الدينية، وظهرت رتب في الدين والتصوف، وكأن الأمر يتعلق بمؤسسة عسكرية، فهناك الملات أو الملالي، وهناك الآيات والحجات، ثم هناك المشيخات وتوابعها، عند بعض الطرق التي تنسب نفسها إلى التصوف، وعلم هؤلاء وأولائك عند الله.

إن الإسلام واضح عند كل من غمر قلبه الإيمان، وإن ما انساقت إليه فئات لعوامل شتى، وفي مقدمتها احتكار اللغة العربية، هو نوع من الرهبانية، ولا رهبانية في الإسلام، كما ورد في الحديث الشريف.

ثم إن الإسلام هو القرآن الكريم، وهو السنة المطهرة.

وما خالف الدين عقيدة وشريعة، هو البدعة وهو الضلالة.

لا إسلام في الانحراف عن الدين الحق. والمسلم ليس في حاجة إلى واسطة بينه وبين الله، فصلته بربه صلة

مباشرة، وقد خاطب نبيه عليه السلام بقوله تعالى : ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعاني**﴾

فأي مبرر بعد هذا يبقى للدجالين في خداع البسطاء من الناس ؟

وكأنه لا يكفي ما تكالب على ديار الإسلام من هجمات التسلط والاستعمار، وما جر معه من نزعات الإلحاد كالشيوعية وتوابعها، وما تولد من طوائف انتحلت الإسلام للفتك بأهله من الداخل، كالبهائية والقاذيانية، وسواهما.

لقد كان الإسلام في انطلاقته بالغرب الأقصى، كما ورد في الخطاب الملكي، إسلامياً سنياً، لأنه كان مبنياً على تعلم العربية أيضاً، ولكن مسلمي الغرب الإسلامي حافظوا على العربية، وعملوا على انتشارها، وبنوا لها معالم خالدة تكفلت بصيانتها، ومن بواقيها الصامدة جامعتا القرويين والزيتونة، كما وجدت لدى الأجيال المتأخرة من أبنائهم عناية باللغة العربية، ففرضوا وجودها بالمدارس، حتى في عهد الاحتلال الأجنبي، وبخاصة في المملكة المغربية وتونس.

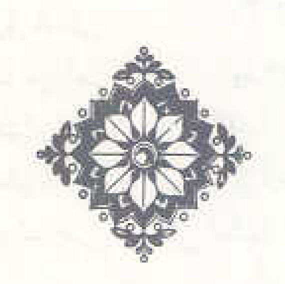
وبشيوع لغة القرآن بين الناس، باءت بالفشل كل محاولة لتمكين أي بادرة للرهبانية في هذه الديار، بل أصبحت مركزاً هاماً للسلفية المبنية على العلم، التي تدعو إلى الله بالتي هي أحسن، فلا تصم الناس بكفر ولا شرك، ولكن تدعوهم إلى الالتزام بدين الله، كما جاء في القرآن الحديث.

وبعد، إن للغة العربية دوراً بارزاً في تنمية الوعي بحقيقة الإسلام، فعلى المؤسسات التعليمية والعلمية في البلاد الإسلامية، أن توفر للمسلمين الأداة التي يفهم بها الإسلام فهماً صحيحاً، لتضمن سلامة الأجيال من نزعات الإلحاد، ومن ارتزاق الرهبانية المحدثة وجنوحها، ومن طوائف الأدعياء والوسطاء والدجالين، وكل من يبتغي الوسيلة إلى الله بغير القرآن، ومتى سلم المجتمع من هذه الأدران، يكون من حيث الروح في المستوى المطلوب، الذي يواكب جهود البلاد الإسلامية، في إرساء قواعد التقدم العلمي والتكنولوجي، فيصبح المسلم بهذا وذاك، إنسان اليوم وإنسان الغد.

ثم إن الخطاب الملكي السامي، اكتفى بالإيجاز عن الإطناب، لأن الملك كان عالماً يخاطب العلماء، والمختار عند أصحاب الصناعة هنا، الاكتفاء بالإشارة والتلميح، والكناية، والاهتمام بتوضيح المعالم وتبيين المقاصد. وما كان جلالته في حاجة إلى ما سرت فيه بين الإجمال والتفصيل، فما آلت إليه العربية في البلاد الإسلامية من الشرق الأقصى، والبعض من الشرق الأدنى، فمقام خطاب رسمي سام من ملك عالم للعلماء، هو غير مقام مقال يكتب لمجلة في مناسبة غالية.

إن من نعم الله على المغرب كمملكة إسلامية، أن يكون عاهله وملكه عالماً مكتمل الشخصية العلمية، ومعتزاً كل الاعتزاز بالإسلام ولغته، ومهتماً بقضايا الإسلام والمسلمين.

فليُدم الله علينا هذه النعمة بحفظه، وليبق بلادنا دار عروبة وإسلام، وكل عيد ومولانا وشعبه على خير حال.



# العرش العلوي المجيد

## ميثاق ديني وروحي وعقائدي

الدكتور
ادريس
العلوي العبدلاوي
رئيس
جامعة القرويين

العرش، كلمة رائعة عظيمة خالدة...

العرش، رباط مقدس بين الحب والقلب، وعروة وثقى بين الملك والشعب.

العرش، رمز العمل المتواصل الجاد، والتضحية والتفاني الدؤوب والجهاد، من أجل إقرار العدل، ونصرة الحق وخدمة مصالح الرعية والبلاد.

العرش، شعار الاستمرار والقوة والتحدي والصمود.

العرش، عنوان الحرية والكرامة والأصالة لهذا الوطن العربي المسلم.

العرش، به نعتز ونفتخر ونسعد، فلولاه ما خفقت قلوبنا ولا فرحت ولا سرت ولا اتقدت حماسا نفوسنا، ولا رفرفت في دنيا السعادة والبشائر أرواحنا، ولا تطلعت إلى آفاق المستقبل المشرق السعيد آمالنا وأمانينا، ولا هفت إلى البناء الشامخ، والمجد الباذخ والعطاء المتدفق الدائم عقولنا وأفكارنا وجهودنا.

العرش، إصرار على التحدي تلو إصرار، من أجل الثبات على المبدأ السليم وحتمية الاختيار.

العرش، نفس دائم متجدد للصيرورة النضالية، لاستمرارية الرباط المقدس، في علاقة محبة صوفية روحية بين الملك والشعب، صنعت معارك الاستقلال والتحرر والتشييد، وصنعت عطاءات الخير والبركات.

العرش، ضمان للوحدة والسلم والأمن والتلاحم، ومهد للكفاح وبؤرة للملاحم.

العرش، يجسد أماني وأحلام المواطنين جميعا، ويقف في الصف الأول قائدا ومرشدا وهاديا ومدافعا عن حقوق الوطن والمواطنين، وساعيا إلى خيرهم وسعادتهم.

وللعرش ذكرى عزيزة غالية، وللعرش عيد فريد مجيد، يأتي كل سنة مشرقا بأمل جديد، حافلا بالبشائر والمنى، متطلعا نحو الغد القريب، والمستقبل البعيد السعيد.

إيه أيها العيد السعيد، يا أجمل الأعياد في حياتنا، ويا سر سعادتنا ورمز سيادتنا ووحدتنا، هو ذا يومك الربيعي الباسم قد أشرق، فأشرق معه تاريخ الماضي الحافل يروي للحاضر المقيم مآثر البناة الخالدين. فيبعث الشوق في قلب المستقبل الآتي يخلد أكثر وأكثر، فأية فرحة تغمر القلوب، وأية نسمة تعانق الأرواح، وأية بسمة تسطرها المسرة على الشفاه، أجمل وأغلى من ذكرى عزيزة. وأية ذكرى أعز وأخلد من ذكرى هذا اليوم الأغر المشرق الزاهر المتألق في صفحات تاريخنا المجيد. ذكرى خالدة تتعاقب خلفا عن سلف، وجيلا بعد جيل على مر العصور والأحقاب، تؤلف بين القلوب في حب وصفاء، وتعلق وولاء، حب لا أقوى منه ولا أسمى، ورباط لا أمتن منه ولا أمكن، وإخلاص

وتجاوب عميقين بفضلهما نحمي وحدتنا، ونرصص صفوفنا، ونحقق انتصارا بعد انتصار، محطمين جدار التخلف، ومكسرين قيود العراقيل حتى نشيد صرح حضارتنا الأصيلة في تحد وإصرار.

ذكرى عزيزة غالية، أزكى من الربيع وأنضر، وأرق من النسيم وأعطر.

تشرق اليوم أنوارها علينا طافحة بالمعاني والقيم الجليلة، يشدو بها التاريخ ويفتخر، ويهلل لمقدمها هذا الكون ويكبر، فما أروع الذكرى، وما أكبر الفرحة، وما أحلى ما يتغنى به اللسان ويشعر.

إنها الذكرى السادسة والعشرون لتربع مولانا أمير المومنين وحامي حمى الوطن والدين جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين والتي تعتبر أغلى الذكريات وأعزها، وأثمن المناسبات وأجلها.

ولا غرو فهي ذكرى متأصلة في نفس كل مغربي وروحه منذ سنوات عديدة، تبرهن بحق وصدق عن التلاحم المتين بين الشعب والعرش المكين، وتعبر عن تجديد البيعة والولاء... والاستمرار والإخلاص والوفاء.

فماذا تعني ستة وعشرون عاما مرت على تربع جلالة الحسن الثاني على عرش أسلافه الكرام ؟

وماذا يعني الاحتفال بعيد العرش السعيد ؟

كل ذلك يعني الاستمرارية، قمة وقاعدة، لصوغ حياة جديدة تهيمن على معالمها البشرية كل مظاهر العمل والتشييد والبناء، والتنمية والتقدم والارتقاء.

والاحتفال بذكرى عيد العرش المجيد، ليس بالحدث الوطني الذي يستغرقه زمان محدود، ولكنه في جوهره تأكيد لقوة ومكانة المغرب، ولأصالة اختياراته، وطموح آماله، وتقييم لحصيلة تلك الأشواط التي قطعتها المسيرة النضالية للمغرب خلال ربع قرن، تلك المسيرة التي تختزل تاريخا متكاملا لمسيرة عرش وشعب تعاهدا على المحبة والوفاء والتضحية، وإن هذا المغزى العميق لمفهوم الاحتفال بعيد العرش المجيد هو ما يستوحي نفسه من قول جلالة الملك نصره الله :

(إن عيدنا الوطني الذي نحتفل به اليوم، ليس عيد ذكرى جلوسنا على عرش أسلافنا المقدسين فحسب، وإنما هو عيد نحيي باحتفالنا له أصدق وأخلص تحية تلك القيم السامية الثابتة المستقرة في أعماق كياننا، ونخلد ذكريات وأمجاد تلاحقت على امتداد ماضينا، وتألقت صفحاتها في عرض تاريخنا الطويل).

ثلاثة قرون أو تزيد، تلك حصيلة الزمان من عمر العرش العلوي المجيد، عقود مضت، وأخرى آتية... والعروة الوثقى بإذن الله باقية، فهي سر التجاوب الروحي والتلقائي بين العرش والشعب بين القاعدة والقمة. والتي تعطى الدليل الواضح على أن هذا العرش العظيم مطبوع بطابع الخلافة الإسلامية القائمة على رباط البيعة المقدس، ذلك الرباط الذي يعطي جلالة الملك بعده الديني فيقول :

(إن روابطنا وأسس تعاملنا ليست تلك الأسس المصطنعة التي خلقها التاريخ صدفة. بل هي قبل كل شيء ترابط وتعامل مبني على أعز ما هو في أنفسنا، وأقدس ما في أرواحنا وهو الإيمان بالله).

ولعل أغلب الناس يخطئون عندما يفهمون من عيد العرش مثلما يفهمون من مطلق الأعياد الجارية والمناسبات المتوالية، فعيد العرش يسمو على الذكريات كلها، وينطوي على المعاني بأسرها، وله معنى أدق وأعمق، ومرمى أجل وأبعد، كما أنه نسيج وحده، وفريد من نوعه، في صورة عديمة المثال على الإطلاق. ذلك أن علاقة العرش بالشعب في هذه الدولة المغربية التي تحكمها الملكية الدستورية كنظام سياسي إسلامي علاقة روحية ووجدانية وقلبية قبل أن تكون مجرد علاقة سياسية ونظامية، وإذا كان ما يعلق بالروح والقلب أدوم وأبقى، فإن طبيعة هذه العلاقة تعني الدوام والاستمرار والتجدد، ويكفي كدليل على ذلك صورتان فريدتان في التاريخ، ليس لهما نظير في أي حكم في العالم.

**الأولى** : عندما امتدت يد المستعمر الغاشمة إلى نفي جلالة الملك الراحل محمد الخامس طيب الله ثراه، حينما ارتضى النفي والإبعاد عن الوطن إيمانا بالعقيدة، وثباتا على

المبدأ من أجل الدفاع عن حرمة هذا الوطن وكيانه، فقام الشعب المغربي كافة يضحي بروحه وماله، وبريق دم أبنائه كبارا وصغارا تعلقا بالعرش، واستماتة في حب ملكه الذي لا يرضى به بديلا، قام يكافح ويناضل بكل ما أوتي من قوة وسلاح في ثورة عارمة يطالب بإرجاع الملك الشرعي إلى عرشه، في صورة أذهلت المستعمر، وقهرت قواه، وأجبرته على الخضوع للحق، وجاء اليوم الذي انزاح فيه ظلام العبودية، وعاد الملك حاملا في قلبه وبين كفيه بشرى الاستقلال والحرية.

**أما الصورة الثانية :** فهي عندما دعا جلالة الملك الحسن الثاني الشعب كله إلى القيام بمسيرة خضراء لاسترجاع الصحراء؛ تلك المعجزة الفريدة في التاريخ المغربي، ففرح الشعب قاطبة، وهب ملبيا طائعا عن طواعية وتلقائية في فرح واستبشار، سائراً على الخطة الرشيدة التي رسمها جلالة الملك الملهم خطوة خطوة، وعندما تأكد جلالته أن المسيرة بلغت غايتها، وحققت المراد منها، نادى شعبه بالتوقف والعودة من حيث أتى، فكانت أيضا الاستجابة الفورية في إطار من النظام والانتظام، كما أرادها جلالة الملك نصره الله.

أليس في هذا ما يدعو إلى الاندهاش ويثير الإعجاب بعظمة هذا العرش ورسوخه والتي هي مستمدة من عظمة الجالس عليه، هذا الملك الملهم الذي اعتلى عرش القلوب، كما اعتلى عرش أسلافه المنعمين، تحرسه العناية الإلهية، وتمده بالعون والنصر والتوفيق، وبذلك السر الرباني الذي يجعل حكمه يمتاز بالقوة وتحقيق الغايات في نجاح مطرد ومدهش لصلاح الدين والدنيا. هكذا نرى أن العرش العلوي المجيد ليس نظاما سياسيا فحسب، ولكنه ميثاق ديني وروحي وعقائدي، ولولا هذا الالتحام الوثيق والدائم بين العرش والشعب، ذلك التلاحم الذي يستمد مقوماته من تضحيات العرش من أجل ضمان عزة وكرامة هذا البلد، ومن حب ووفاء وتعلق هذا الشعب بأهداب العرش والجالس عليه، لم يكن للمغرب أن يحتل هذه المكانة المتميزة بين الأمم والشعوب.

وها نحن اليوم وعلى مسيرة ست وعشرين سنة امتدادا لثلاثة قرون أو تزيد من عمر الدولة العلوية المجيدة، وفي عهد جلالة الملك الحسن الثاني الزاهر، نجني ثمار هذا التلاحم، ونلمس عن كثب ما تحقق لهذا البلد على يديه الكريمتين الخيرتين من مكاسب، ونقيم حصيلة هذه النهضة وهذا الانبعاث على الصعيدين الداخلي والخارجي، ومن أجل هذا التقييم لحصيلة هذه المسيرة المباركة في تاريخنا المشرق، نحتفل بعيد العرش السعيد في ذكراه المجيدة الرائعة، ونرحب في حرارة واشتياق بمقدمها. نحتفل لنعبر عما نكنه لجلالة الحسن الثاني حامي الملة والدين، وضامن الديمقراطية، ومبدع عبقريتنا، وباعث حضارتنا، والذي لا تسمح الصفحات مهما تراكمت لإحصاء محاسنه على أمته المغربية وأخواتها في الشرق وفي إفريقيا، فما شئنا من إصلاحات، حقق ما لم نكن نحلم به، وما شئنا من رفاهية رفلنا في حللها، وما كنا نعيش فيه من جهل فاش وضآلة في التعليم عالجه بالمعاهد المختلفة، والجامعات العديدة، وما كان يتهددنا من مخاطر الطبيعة، دافعه عنا ببناء السدود وإصلاح الأراضي، كما جلب الصنائع، وأقام المصانع، وأنشأ المختبرات، وسلط الدراسات على خيرات البلاد، واكتشف مدخراتها. ففي أقل من ربع قرن صارت القرى مدنا، وصارت المدن جنات غناء يحلو بها المقام ويطيب، وتشرق عليها شمس السعادة التي لا تغيب.

ولعل أبرز معلمة في مسيرة جلالته حفظه الله هذا التوافق المحكم بين التشبث بالعقيدة الإسلامية، والتمسك بالكتاب والسنة، وبين الأخذ بأحدث أساليب الحكم والإدارة والتسيير والاستفادة من كل ما يستند على العلم والتكنولوجيا، مما من شأنه أن يثري نهضتنا العلمية، والاقتصادية، ويرفع مقامنا كدولة ذات حضارة ومجد ورسالة ودور بالغ الأهمية والإيجابية في الإشعاع والتنوير.

والحق الذي لا مراء فيه، أن جلالته منذ تحمل أعباء المسؤولية، والتزم بأدائها بصدق وأمانة، وجريا على سبيل أسلافه الغر الميامين، وحفاظا منه على دين جده سيد المرسلين، وجلالته يحرص كل الحرص على نشر هذا الدين

وزرعه في النفوس شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، سواء داخل الوطن أو خارجه، إذ هو الأساس الذي تبنى عليه صروح كل عمل وإصلاح، وفي ذلك يقول جلالته في نطق ملكي كريم :

(...ففي إطار ديننا الإسلامي السمح سنصوغ كل عمل وكل إصلاح، لأن المكاسب الدنيوية ليست غاية في حد ذاتها، لأنها مكاسب محدودة، أما المكاسب الروحية فليست لها حدود، لأنها هي الوجود، ولأنها هي التي تمكن الفرد من حسن التصرف في مكاسبه الدنيوية، وتكيف تصرفه بالخصال الحميدة، حتى لا تكون في المجتمع شحناء ولا بغضاء ولا تفرقة).

وإن المتتبع لخطوات جلالته في سبيل إحياء القيم الإسلامية في هذه المملكة المغربية السعيدة، يرى أن في عهده الزاهر أطال الله عمره ـ قد أحدثت كتاتيب قرآنية في جميع جهات المملكة، يتلقى فيها النشء أول ما يتجه لدراسته تلقين القرآن الكريم، كما أصدر أوامره السامية المطاعة بوجوب الاهتمام بالدراسات الإسْلامية في الجامعات المغربية، وأنشأ المعاهد والمؤسسات التي تدرس بها العلوم الإسلامية، كما أحيا ما رث وتقادم منها بتوالي الأحداث والسنين، وأحاط برعايته وعنايته الشاملة مالا يزال منها باقيا محفوظا خالدا بخلود التاريخ وقدمه، رغم عوادي المحن، وتقلبات الزمن، وأعني بذلك «جامعة القرويين»: التاريخية العريقة الأصيلة التي دوى اسمها عبر القرون، حافلا بالأمجاد والمفاخر، وكلما تحرك اللسان لينطق بـــه ذاب الشعور في نشوة الفخر والاعتزاز، «القرويين» ذلك الجسر الشامخ الذي ربط بين الثقافتين الغربية والشرقية، ومهد السبيل لحركة فكرية ما تزال إشعاعاتها تنير عقول الباحثين والمفكرين المعاصرين.

«القرويين» التي تكسرت على أسوارهـــا القرون والأعوام، وما زادها تقادم الزمان إلا روعة وجمالاً.

«القرويين» التي لعبت منذ نشأتها وتأسيسها سنة 245 هـ على يد المحسنة الجليلة السيدة فاطمة أم البنين الفهرية دورا بارزاً، وأثرت التاريخ أيما إثراء، بما قدمته من جوانب حضارته الكبرى في نشر الثقافة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس، ثم في كل مناطق غرب إفريقيا بعد ذلك.

«جامعة القرويين» العتيقة التي تعد بشهادة التاريخ، أقدم جامعة في العالم، والتي طالما كابدت مكاييد المستعمرين الذين قاوموا عروبتها وإسلاميتها، باعتبارها مبعث الحركات الإصلاحية، والتطورات الاجتماعية، ومنطلق الثورات السياسية التي تقف في وجه الظلم، وتضع حدا لتصرفات ولاة الجور في كل عصر.

فكان جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه، وهو حامي الملة والدين ينافح عنها بعزيمته التي لا تلين، وإرادته الصلبة التي قهرت قوى الشر والطغيان، حتى إذا انتهى عصر الحجر والحمايـــة، وأشرقت شمس الحريـــة والاستقلال، اهتم بتنظيمها تنظيما عصريا.

وإذا كان جلالة الملك الحسن الثاني رجل الفكر والثقافة ـ خير خلف لخير سلف ـ فقد جبل بطبيعة تفكيره، أن يرعىْ الثقافة في المغرب، وأن يحرس النهضة العلمية.

وإذا كان عهده الزاهر قد اتسم بإنشاء العديد من الجامعات والكليات والمعاهد العصرية التي تعرف تدفقا مستمرا في أفواج المتخرجين في مختلف العلوم والتخصصات التي تعتمد عليها البلاد كأطر عليا تسير بركبها نحو التقدم والازدهار، فإن عنايته حفظه الله بجانب ذلك قد توجهت وبصفة خاصة إلى المحافظة على كيان الحضارة والثقافة الإسلامية، وقد اصطفاه الله ليقوم بهذه الرسالة الشريفة خير قيام، بعدما خلف والده المنعم في تحمل المسؤولية، وها هو ذا نجده رعاه الله يعلي البناء، ويسير بالأمة نحو الأمل المنشود، في ظل تعاليم الإسلام الخالدة، وتقاليدنا الطيبة الموروثة.

وفي هذا النطاق، جدد جلالته لجامعة القرويين نظامها، وأرساه على قواعد ثابتة، تضمن لهـا السير في طريقها الأرشد، وتصم مناهجها بما تدعو إليه وضعية الكفاح الفكري المتجدد، وتحيى مـا اندرس من فنون أصبحت من ضروريات العصر التقني الـذي نعيشه، مع

المحافظة على قداسة الرسالة الخالدة التي حملت الجامعة مشعلها منذ سنوات عديدة.

كما تجده حفظه الله، وتحقيقا لهذه الغاية الشريفة المنتظرة من جامعة القرويين، يجعل لها رئاسة ترعى مصالحها، وتتحمل مسؤوليتها حتى تؤدي هذا الدور العظيم المنوط بها.

وللعلماء في المغرب المكانة السامية والمنزلة الرفيعة لدى جلالته، لما جبل عليه حفظه الله من حب للعلم والعلماء.

ومن أبرز البراهين وأسطع الأدلة على ذلك، إنشاؤه لدار الحديث الحسنية على تقوى من الله ورضوان، وتشريفها باسمه الكريم، شعورا من جلالته بالدور العظيم والرائد الذي يجب أن تقوم به كمثيلتها جامعة القرويين في تكوين علماء يكونون الأطر العليا في العلوم الإسلامية، وتكون عاملا من عوامل التقدم العلمي في بلادنا، ومنارا يهتدي به المسلمون في أرجاء العالم الإسلامي.

كما يكفينا أن نشير على سبيل المثال لا الحصر، لإثبات هذه الجهود الإسلامية المباركة، في الاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم، وإلى الرسالة الملكية إلى الأمة الإسلامية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري (والتي أجمع الملاحظون في الداخل والخارج على أهميتها القصوى، باعتبارها منهج عمل طرحه العاهل الكريم في الوقت المناسب، إسهاما منه حفظه الله في إيجاد حلول لمشاكل العصر، وتقديم دلائل للأمة، لتكون لها عونا للخروج من طور التخلف والتيه والضياع).

وإلى الحلقات المتوالية للدروس الحسنية كلما حل شهر رمضان المعظم، والتي يشرفها جلالته بأحاديثه الدينية القيمة من حين لآخر.

وإلى إكرام العلم والعلماء بإحداث مجالس علمية إقليمية في جميع أنحاء المملكة يضمها مجلس علمي أعلى برئاسة جلالته، عهد إليها في مجال تنظيم الدعوة الإسلامية بالقيام بدور إيجابي وفعال في تنوير الأمة، وتوعيتها وتوجيهها بتعاليم الإسلام عقائديا وروحيا وأخلاقيا لصالح الدين والدنيا.

وسعيا من جلالته حفظه الله في تكثيف هذه الجهود الإسلامية، وإحياءً للتراث والفكر الإسلاميين، وتطويراً للحياة الفكرية، وإغناء للبحث والاستقصاء والدراسة في ميادين الفقه والعلوم والفكر والثقافة والمعرفة شهدت بلادنا حدثين هامين :

- تأسيس أكاديمية المملكة المغربية تحت شعار «حمل الأمانة الربانية الملقاة على عاتق الإنسان، والإسهام في التقارب بين الشعوب».

- إقامة مهرجان «ندوة الإمام مالك بن أنس» أحد عظماء الإسلام الأعلام، تكريما لشخصه، وتقديرا لفضله على الإسلام والمسلمين، وغيرها من الندوات واللقاءات، وتوجت تلك الجهود المباركة، وتكللت بفوز عظيم حينما استطاعت شخصيته العظيمة حفظه الله، أن تجمع كلمة المسلمين في أول مؤتمر قمة إسلامي في التاريخ عقب إحراق المجسد الأقصى، كان له الأثر البالغ على سمعة البلاد، بالإضافة إلى استضافة عدة مؤتمرات عربية أخرى.

ويكفينا فخرا واعتزازا أن يكون من روائع جلالته تلك المعجزة التي فاقت أحداث التاريخ، لتفسح المجال لحدث القرن وحديث الأجيال، إنها المسيرة الخضراء الحسنية السلمية التي كان إبداعها إلهاما من الله وتوفيقا لجلالته، خصه به جلت قدرته، ليكون دليلا على أنه الملك المختار والزعيم المقتدر، والقائد المنتصر، الذي صدق فيه قوله تعالى : ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم**﴾.

وعلى الصعيد الخارجي يضطلع المغرب بقيادته الرشيدة بدور فعال على المستويات العربية، والإسلامية، والإفريقية، والدولية.

ولعل تحمل جلالته أعباء ومسؤولية رئاسة لجنة القدس ورئاسة مؤتمر القمة العربي، واللجنة العربية السباعية المنبثقة عن الإجماع العربي في فاس لدليل ساطع على مدى الاحترام والتقدير الذي يكنه لجلالته حفظه الله كافة الملوك والرؤساء الذين ائتمنوه على حاضر ومستقبل القدس الشريف، فكان خير من يؤتمن، وخير من يدافع، وخير من يعيد العزة، ويصون الكرامة.

وإذا كان عيد العرش مناسبة للتعرف على طبيعة المعركة اليومية الرائعة التي يخوضها الشعب بقيادة العرش والجالس عليه، وللوقوف قليلا لمراجعة حساب الأمس، واستجلاء صورة الغد، فإننا نجد أنفسنا مطالبين بحساب قائمة المنجزات الكثيرة الرائعة العظيمة التي حققناها ونحققها يوميا في كفاحنا المستمر وراء قائدنا العظيم، ولكن طموحنا أكبر، ورغبتنا في الوصول إلى الهدف تشدنا إلى الأمام إلى أبعد المسافات التي يمكن أن نقطعها أكثر مما تدفعنا للوقوف والنظر إلى الوراء، وإلى كم قطعنا من مسافات.

ونجد أنفسنا أيضا ملزمين بحكم هذا الطموح أن نجعل يومنا أفضل من أمسنا، وغدنا أفضل من يومنا.

وحينما يقيم الشعب المغربي قاطبة من طنجة إلى الكَويرة أعراس الأفراح والمسرات والمهرجانات احتفالا واحتفاء وابتهاجا بحلول هذا العيد السعيد، إعلانا للولاء والوفاء لصاحب العرش المفدى أمير المومنين، وتقديسا للعرش المكين، عرش العزة والإباء، عرش الكفاح من أجل بقاء العقيدة الإسلامية، ووحدة الأمة المغربية تحت رايتها مرصوصة الصف مرهوبة الجانب.

حينما يحتفل هذا الشعب الكريم احتفالا كبيرا رائعا بهذا العيد الأكبر العظيم، فإنما يحتفل في الواقع والأساس بالعرش العلوي الخالد رمز المملكة المغربية الزاهرة، وبصاحب العرش المكين، عقد اليواقيت ومفخرة الدولة العلوية الشريفة، جلالة الحسن الثاني العظيم.

لله يوم مدى الأعوام نرقبه ... إذ فيه للعهد تذكير وتجديد

وحبل أمتنا بالعرش مرتبط ... بآل بيت رسول الله مشدود

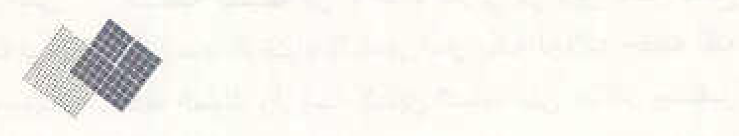
اثنان في الحب لم نشرك بهم أحدا ... الله والحسن الثاني ذاك توحيد

فالعرش العلوي رمز الدولة المغربية، والحسن الثاني رمز هذا العرش، وفريد في التاريخ، فريد في المحاسن والمفاخر، أمين على الأمانة لاتحصى له مآثر.

وإن الحديث عن العرش، وتمجيد العرش ما هو في الحقيقة إلا حديث عن صاحب العرش مولانا الإمام جلالة الحسن الثاني الهمام، وتمجيد وتكريم لأعماله الجليلة التي لا تحد، ومكرماته النبيلة التي لاتعد، بحرها زاخر، وعطاؤها وافر، يعم خيرها القريب والبعيد، الداني والقاصي، ولا يزيدها توالي الأيام إلا امتدادا ومدا.

فعلى بركة الله نواصل مسيرتنا الظافرة إلى الأمام، وراء قائدنا الهمام، نصره الله وأيده على الدوام، مستمسكين بحبل الله المتين، ومتعلقين بأهداب العرش العلوي المكين.

وأهلا بهذا العيد المبارك المجيد، وهنيئا لمؤلانا الإمام بحلوله الميمون السعيد. وحيا الله الأسرة الملكية الشريفة، وفي طليعتها ولي العهد المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد المولى الرشيد، وعاش الشعب المغربي النبيل راقلا في حلل السعادة والهناء في ظل عرشنا الخالد، رمز عزنا وفخرنا ومجدنا الأثيل.



بمناسبة عيد العرش السّعيد

# ستّون عامًا من التّحدّي

للأستاذ محمد الحاج ناصر

لست أدري لو أن جلالة الملك ـ حفظه الله ـ أراد أن يجد عنوانا غير «التحدي» للكتاب الذي أصدره وضمّنه جانبا من مذكراته، أيعثر على كلمة تجسد مضمون كتابه نصا وروحا كما جسدته كلمة التحدي ؟! بل أعتقد أنه ما من مؤرخ يريد أن يكون صادقا ودقيقا في التعبير عما ينشئه وهو يكتب تاريخ المغرب عامة، وتاريخه في هذا القرن خاصة ـ تدوينا أو دراسة ـ يجد كلمة يعنون بها ما يكتب توازي كلمة «التحدي» دقة تعبير، وصدق بيان، فلا أعرف للمغرب حقبة من تاريخه لم يكن طابعها المميز «التحدي»، ولا أعرف وصفا للشعب المغربي منذ كان وإلى الآن، أدق من أنه شعب «التحدي»، ولو قد مضيت في ضرب الأمثال لتبيان ذلك وتأكيده لما فرغت ـ بعد الانتقاء ومع الإيجاز ـ قبل أن أكون قد أمليت مجلدا ضخما، وليس ذلك من شأني الآن، وما أحسبني قد أستطيع أن أفرغ له يوما، ثم إني لست مؤرخا متخصصا، بيد أني أريد في هذا المجال أن أقف عند العقود الستة الأخيرة من «التحدي» المغربي عرشا وشعبا، أستشف بعض الملابسات، وأستلهم بعض الأحداث، وقد أستشرف بعض المعقبات، ويخيل إلي، أن تاريخ هذه العقود بحاجة إلى وقفات من هذا القبيل، أكثر من حاجته إلى جمع الأحداث المفصلة وتدوينها، إذ أن معظمها موزع هنا وهناك، بعضها في الصحف والدوريات، وبعضها فيما كتبه معاصرون بدافع علمي أو إعلامي.

وهذه العقود الستة، ترتبط حلقاتها، وتتشابك أحداثها ارتباطا وتشابكا يميزها عن غيرها من عقود التاريخ المغربي عامة، وتاريخ الدولة العلوية خاصة، تمييزا يبرز مياسمها إبرازا خاصا دون أن يفصلها عن جذورها ومصادرها التاريخية، ليجعل منها حقبة غريبة أو طارئة.

إنها في طبيعتها امتداد طبيعي أصيل النسب، عريق الجذور للتاريخ المغربي، واستمرار سوي السبيل. بيّن الهدف، منتظم الخطوات لمسار الشعب المغربي وتطوره، وما كان المغرب منذ إدريس الأول ـ رحمه الله ـ في تركيبه الحضاري، إلا قوة حضارية متكونة تكونا متمازجا متكاملا من العرش والشعب، فلم يحدث يوما أن كان هنالك شعب وعرش يتميز أحدهما عن الآخر، بل لم يحدث يوما أن خفت أو انغمر في وعيه الارتباط العضوي بالعترة النبوية الطاهرة ارتباطا يشبه أن يكون نمطا من الحب الصوفي، وحتى حين تولت مقاليده ـ لعوامل سياسية عارضة ـ أيد لا تنتمي بوشيجة إلى العترة النبوية الطاهرة ـ باستثناء العقيدة ـ كان في أعماق سرائره يتقبل تلك

العوارض دون أن يعتبرها إلا عوارض، مترصدا أن تعود أوضاعه إلى طبيعتها، وأن ترجع مقاليده إلى من يراهم أولي الأمر الشرعيين من سلائل العترة النبوية، وآية ذلك أن المرابطين دأبوا يخطبون في منابرهم للخليفة العباسي، وتحرج أمراؤهم من أن يتلقب الواحد منهم بأمير المؤمنين، فاتخذوا لقب أمير المسلمين، وكانت فترة الموحدين والمرينيين فترة عارضة، ما لبث الشعب المغربي بعدها أن أعاد مقاليده إلى من انتسبوا إلى العترة النبوية، ثم إلى من كان نسبهم إليها بينا أكيدا وطيدا إلى السلالة العلوية. ومن يومئذ، وبالرغم من تطاول العصور، وما حفلت به من زعازع وأعاصير دأب يجد عصمته، ويلتمس سلامته ونجاته في صدق الولاء الذي عبر عنه مرات متعددة بألوان من التضحية والفداء لسلائل فاطمة الزهراء - رضي الله عنها -.

ومن عجب أن فرنسا في عنفوان طغيانها الاستعماري أدركت هذه الحقيقة في أزمتين متواليتين، فلم تحاول أن تغامر بتحدي شعب التحدي في أقدس أقداسه السياسية، فتصرف مقاليده - مع أنها عندئذ كانت قد أصبحت شبه رمزية - إلى غير السلالة العلوية، وما أكثر من كانت توسوس لهم نفوسهم، بل وكان بعضهم يهمهم ويجمجم بالطموح إلى أن يتلقف ذلك الرمز، بل وأن يقلص منه إن كان تقليصه سيحقق له طمعه.

ولست أدري هل ندم دهاقنة السياسة الاستعمارية الفرنسية على تصرفهم في الأزمة الأولى غداة تنازل السلطان عبد الحفيظ - رحمه الله - عن العرش استنكافا من أن يعمل تحت الحماية الفرنسية، وعلى تصرفهم في الأزمة الثانية غداة اعتدائهم الفاضح المشين على كرامة المغرب وسيادته بنفي الملك محمد الخامس - رحمه الله - وأسرته ؟! أم أنهم كانوا من عمق الإدراك ودقة التقدير بحيث وازنوا بين الاختيارات المختلفة وما يترتب عن كل واحد منها، فآثروا ما بدا لهم أخف الضررين، وهو فعلا المخرج الوحيد الذي يسر لهم التملص من المأزقين بأدنى خسارة ممكنة، ومهما يكن تقديرهم فما أحسب أبعدهم نظرا وأحصفهم رأيا وأقدرهم على استشراف المستقبل كان يمكن أن يفترض - وإن في لحظة تجلي - أن الابن الثالث للسلطان «مولاي يوسف» حين بويع خلفا له هو الذي سيخلخل، ثم يقوض الوجود الفرنسي، ليس من المغرب فحسب، ولكن من القارة الإفريقية قاطبة، بيد أن القدر وحده ولا شيء غيره، بالإضافة إلى طبيعة التحدي في المغرب شعبا وعرشا كان يسخر من تدبيرهم فيما يسخرهم لتنفيذ ما يشاء.

وأكبر الظن أنهم كانوا يحلمون عندما نقلوا السلطان الشاب محمداً الخامس - غداة بيعته خلفا لوالده - إلى فرنسا، أنه - وما فتئ في عنفوان الحداثة وبواكير الشباب - سيفتتن بما يشهده في بلاد الدولة الحامية، لا سيما إذا قارنه مع ما نشأ فيه في بلاده، وستتكيف مواجده ومداركه بهذه الفتنة وما سيصحبها من تصاريف من سيعايشهم من المستشارين والمقيمين وكبار الموظفين الذين تعيّنهم الدولة الحامية، بعد اختيار دقيق، ذلك بأني لا أرى غير هذا الهدف حافزا لحكومة باريس إلى دعوة السلطان الشاب عقب بيعته مباشرة لزيارة فرنسا، بيد أن الأيام ما لبثت أن صدمت دهاقنة السياسة الاستعمارية الفرنسية بحقيقة لم يكونوا يحسبون لها حسابا، هي أن السلطان الشاب لم يكن كغيره من عامة الشباب تبهره البوارق، وتستهويه النزوات، وإنما كان سليل ملك أصيل، عصمته نشأته الإسلامية العربية المكينة من الاغترار بمظاهر، إن أبهجت النظرة الأولى، فإنما بهجتها تلك : قناع لغايات كان متهيأ لإدراكها، وتقدير عواقبها، بما صنعته فرنسا نفسها من حوله، وما كان ليخفى عنه منذ أخذ يدرج من اليفاعة إلى الحداثة. فما من شك في أنه كان يعلم أن مرض والده - رحمه الله - من أسبابه ما كان بينه - أو بالأحرى بين الشعب المغربي قاطبة - وبين الإقامة العامة من صراع حول الأرض، منشؤه إدراك المغربي اهتداء بإدراك سلطانه أن الأرض هي القاعدة الشرعية لوجود الإنسان عليها، ولحضارته واستمراره، كان التحدي قد ابتدأ بالصراع على الأرض، وما يزال السلطان الشاب بعيدا حتى عن ولاية العهد، فهو الابن الثالث للجالس على العرش، ولكن ما كان ليخفى عليه.

وكانت أنباء الثورات العارمة على الاحتلال الفرنسي ما بين الأطلس الكبير والريف حديث المغرب كله، وخاصة القصر السلطاني، وما من شك في أن الابن الثالث الفتى للجالس على العرش كان يستوعبها بالعقلية الإسلامية العربية التي ينشأ عليها، وأكاد أجزم بأن اختياره لولاية العرش دون أخويه أشعره بعظم المسؤولية، فأخذ منذ اللحظة الأولى يستلهم ما كان يستوعبه من الأحاديث الرائجة في القصر عن مختلف الأحداث بالأمس القريب، وهو بعيد عن المسؤولية وما تزال أنباؤه تترى، وما تزال أحداثه تشتد وتتعقد، وما تزال عواقبه تزداد انكشافا وجلاء، لكن دهاقنة السياسة الاستعمارية الفرنسية لم ينتبهوا إلى شيء من ذلك، فحسبوا السلطان الشاب شخصا عاديا تستهويه بهرجة المظاهر ونزوات الشباب.

على أنه لم يواجه التركة الضخمة التي ورثها حين ولي العرش بالمجابهة الصريحة بادي الأمر، فقد أهلته الأقدار بطبع حصيف ونظر بعيد ورأي لا يعتمد اللمحة الفطرة، وإنما يعتمد الرؤية المستأنية المجتلية على مكث لجميع الملابسات والمعقبات، فانزوى هونا في قصره يرصد ويتأمل ويحلل ويعلل، ويحاول استكشاف مواقع القوة في شعبه، ليحسن تقدير ما يمكن أن يرتكن إليه، ومكامن المخادعة من خصمه، ليحسن تدبير ما ينبغي أن يواجهه به، وما وقر في نفسه أن المفارقة بين شعبه وخصمه، هو أن شعبه متخلف علما عن خصمه، وأن تخلفه هو الذي يسر الهيمنة عليه، كما أهله للخضوع إلى حين.

وبدأ السلطان الشاب المرحلة الأولى من التحدي، إذ قرر أن يسحب تدريجيا من تحت أقدام خصمه بساط التخلف الذي مكن له استغلاله من الهيمنة على شعبه، وبحركة هادئة خافتة بقدر ما هي عميقة الحصافة، بعيدة الهدف، مضى يعمل على إيقاظ عقول شعبه بنشر المعرفة. كان يدرك أن المغرب في حاجة إلى نوعين من المعرفة : تلك التي تعيده إلى أصالته وتعيد إليه أصالته، وتلك الأخرى التي تلحقه حضاريا بالركب العالمي، وقد تقدمه بأشواط هي في عداد الزمن قرون، على أنه كان يدرك أن التقنية وهي ما تقدم به المهيمنون وتخلف عنه المغرب، يمكن طي المراحل إلى اكتسابه إذا ما استرجع المغرب هويته الحضارية الأصيلة، فأخذ يعمل على إنشاء المدارس العربية الحرة لتكون روافد لكل من جامعة القرويين، والبعثات التي راح يشجعها إلى جامعات مصر وغيرها من البلاد العربية، فيما يناضل بهدوء عجيب من أجل إحداث مدارس عصرية تتيح لنفر من المغاربة التأهل للحاق بالجامعات الأوربية، لتواكب إعادة إبراز الهوية المغربية مع السعي لاستعادة المغرب موقعه في الموكب الحضاري الإنساني، واستئناف رسالته في تكييف الحضارة الإنسانية تكييفا يؤكد صبغتها الإنسانية بما يقيمها عليه من معادلة مكينة بين التطور المادي والتوجيه الروحي.

وإلى جانب هذا العمل الهادئ المتجه بخطى ثابتة بين معالم واضحة إلى أهداف محددة، كان السلطان الشاب ينمي في شعبه الوعي بحقيقة أمره وبطبيعة ما يدبره له ويحفزه به إلى إحباط تدابير خصومه، ولكن بوعي عميق وحصافة مهيمنة وأناة عاصمة ونظر بعيد، فكان تحديه للوجود الفرنسي في المغرب قائما على ثلاث قواعد :

**تجديد الهوية المغربية.**

**وتحديث الأهلية الحضارية المغربية.**

**وإيقاظ الوعي السياسي المغربي الحصيف.**

وكان يمضي في خطته هذه متوخيا اجتناب الاصطدام مع خصومه المتربصين به وبشعبه داخل بلاده إلى أن يحين الأوان.

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية شعر بأن الغطرسة الفرنسية قد تحطمت، وإن تظاهرت بالانتعاش، وبأن وقت الإسفار عن بعض غاياته قد آن، فأعلن تأييده للمطالبة بالاستقلال التي أوعز بها هو إلى من حرروا

عرائضها وتقدموا إليه بها، وجلهم كان من الناشئة التي يسر لها أسباب التعليم والتثقيف والتوعية، فبدأت المرحلة الثانية من التحدي الذي طبع حياته السياسية كلها، وكان في هذه المرحلة لينا لطيفا لبقا مع من كانوا من ساسة الاستعمار يتقنعون بقناع لين لبق لطيف، فلما دفعت ظروف فرنسا التي خلخلتها حرب الهند الصينية إلى اتخاذ مظهر التنمُّر والاستئساد، مزج لباقته ولينه بمزاج عجب من الصلابة والصمود، وما لبث أن اضطر إلى الاصطدام الصريح مع الإقامة العامة، ومن ورائها حكومات باريس التي كانت تتساقط بتوالي الشهور اصطداما انتهى إلى نهايته الحتمية، وهي بداية المرحلة الثالثة من مراحل التحدي في تاريخ المغرب الحديث وسلطانه الذي لم يعد غض الشباب بل أخذ يدلف إلى الكهولة، وقد استكمل نضجه واتضحت لعينيه جميع السرائر والخفايا، واستطاعت مراصده أن تتعقب كل نبضة وخلجة، فلا تكاد تفلت شيئا، فكان النفي له ولأسرته التجسيد الطبيعي لهذا التحدي الذي صار إليه الأمر بين المغرب وفرنسا، والذي استمر سنتين وثلاثة أشهر تقريبا، يتفاعل في صراع من أعجب ما عرفه التاريخ السياسي للإنسانية كلها من أنواع الصراع.

كان محمد الخامس ملكاً على عرش ليس هو العرش الذي عرفه الناس له ولغيره، وإنما هو عرش آخر تألف من ملايين القلوب، من قلوب شعبه قاطبة، ومن قلوب الأمة العربية والإسلامية كافة، وكان أعزل في منفاه، مضيقا عليه في رزقه، ورزق أسرته، بيد أنه كان أقوى قوة واجهتها فرنسا طيلة حياتها، كانت قوته إرادة الأحرار من شعبه وكل شعبه أحرار، تدعمها مساندة الأحرار في كل مكان من العالم، وتساعدها العوامل المختلفة التي كانت تهز قواعد وجود فرنسا كدولة ذات نفوذ ومركز مرموق في العالم هزا يتزايد مع الأيام عنفا، بعضها يتمثل في الصراع الحزبي الداخلي الذي جعل من حكوماتها ما يشبه أوراق الأشجار في الخريف العاصف، وبعضها يتمثل فيما صارت إليه حربها في الهند الصينية، وبعضها يتمثل فيما نتج عن هذه وتلك من تدهور أوضاعها المادية والاقتصادية، تدهوراً اضطرها إلى أن تصبح دولة متخلفة عن زميلاتها الثلاث : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا، وحتى الدولتين اللتين كانت تعد نفسها من الدول التي غلبتهما : ألمانيا واليابان.

وهنالك عامل آخر كان قد أخذ ينجم تدريجيا هو التململ المتربص المتزايد مع الأيام المخلخل لوجودها في كافة مستعمراتها الإفريقية من الشمال إلى وسط إفريقيا، ما وراء الصحراء إلى القرن الإفريقي الشرقي.

وذلك تدبير القدر الذي هيأ لمحمد الخامس كل أسباب النجاح في التحدي، فما لبث أن عاد إلى عرشه في بلاده محمولا على طائرة فرنسية كتلك التي ذهبت به إلى المنفى منذ سنتين وثلاث أشهر تقريبا، ولكنه في هذه المرة لم يكن محروسا باعتباره أسيرا، وإنما كان مخفورا باعتباره ملكا منتصرا، ومن عجب أن أعداءه الذين انتصر عليهم كانوا يخفرونه ويحرصون على سلامته، لقد أدركوا - وإن بعد حين - أنه عدو لهم حقا، بيد أنه عدو حصيف كريم.

وما كاد يفرغ إلى نفسه ومهامه من تلقي تحيات شعبه المعربد بهجة بالانتصار، وبعودة الحبيب، حتى راح يخطط وينفذ للمرحلة الجديدة من التحدي، وفي هذه المرة كان يخطط وينفذ في آن واحد، فالأمر أعجل من أن يفصل للحظة زمنية بين التخطيط والتنفيذ، كان عليه أن يعيد بناء الدولة المغربية من أنقاض متراكمة، منها ما هو من عهود التخلف، ومنها ما هو من تدبير الاحتلال الأجنبي، وكان عليه وهو يعيد البناء ويزيل تلك الأنقاض أن يزيل أيضا أنقاضا، إزالتها أعسر وأشد إرهاقا، هي أنقاض ثلاث وأربعين سنة من الكراهية المتجذرة في شرايين الشعب المغربي الأبي لأولائك المحتلين الذين لقي منهم أبشع ألوان الإرهاق والإذلال والابتزاز، فالملك المنتصر لم تغير الأحداث من طبعه الكريم، بل زادت طبعه كرما على كرم، إنه لا يحب أن يذل خصومه، بل لا يرضى أن يشعر شعبه بأنه انتصر على خصم ذليل، فالقوي حقا يستخزي ألا

يكون خصمه قويا، ثم إنه من قبل ومن بعد ملك مسلم، مطبوع على الكرم والكرامة لشعب مسلم، شريعته الخلقية الكرم والكرامة، فواجبه ساعة النصر أن ينسى وأن يبدل السلاح من يمينه بالمصافحة المعبرة عن أصالة الكرامة والإسماح، وأحسب هذا النوع من التحدي الذي يعالج حالات نفسية كيفتها الأحداث الأليمة المتوالية لأمدٍ طويل بألوان من التشنج والتوتر أصعب تحد واجهه محمد الخامس، بيد أن حصافته في التصرف وعمق ثقة شعبه به وحبه له يسرا له آخر الأمر وفي أمد قصير أن ينتصر أيضا في هذا التحدي، ولقد كان انتصاره عجبا في هذا المجال، كان انتصار العقل الحكيم، والنفس الكريمة، والقلب الرحيم، والرأي السديد، في إعادة تكييف خلق الملايين من الغاضبين والحاقدين والموتورين، تكييفا يرجع بها إلى أصالتها من الكرامة الكريمة، والطبع السمح النبيل، فما لبث المغاربة بهدي من ملكهم أن فتحوا مع أولائك الذين يقتلونهم بالأمس، وينكلون بهم سجلا جديدا لا يحتفظ بشيء من الماضي، وإنما يحفظ نفسه كله لإقامة مستقبل من التعاون والصداقة والاحترام.

وأحسب نجاحه في هذا التحدي أعظم من نجاحه العظيم في إعادة بناء صرح الدولة المغربية، ورسم معالم السلوك بها، وتحديد طبيعة سيرها، حتى استكملت تشييد أركانها، وترسيخ قواعدها، وتشريع سبلها استكمالا بلغ تمامه أو كاد خلال ما يزيد قليلا عن خمسة أعوام، لحق في نهايتها محمد الخامس بجوار ربه، ولكن بعد أن كفل الاستمرار لكل ما عمله، استمرارا موصول التجدد، ثابت الخطى، بيّن الأهداف.

على أن أهم شيء يميز تحديه ـ رحمه الله ـ لما واجهه طيلة عهده بالملك من معوقات هو ـ في تقديري ـ إحباط جميع المحاولات الاستعمارية الصليبية الجاهدة الحاشدة من أجل تغيير هوية المغرب، إما بالتمسيح أو بالعلمنة، ذلك بأنه ـ رحمه الله ـ لم يقتصر في مجابهة تلك المحاولات على بذل أكبر الجهد في تنشئة جيل عربي أصيل مهيأ لتسلم مقاليد الدولة المغربية، وإنما صدع بالهوية الإسلامية العربية للمغرب بصورة خلخلت دعائم الاستعمار الصليبي من قواعدها، وأضاعت بقية رشده، إن كان له رشد يوما، وذلك في خطابه التاريخي بطنجة، في رحلته تلك التي أكد فيها أمرين اثنين :

**هوية المغرب العربية الإسلامية.**

**ووحدة التراب المغربي وحدة لا تقبل أية مساومة من أي نوع كان.**

ثم لما استطاع أن ينتزع من الاستعمار الصليبي ما كان قد اغتصبه بمعاهدة الحماية من مظاهر مقومات الدولة وخصائص السيادة عندما اضطره إلى الاعتراف بانتهاء عهد الاغتصاب وبزوغ فجر الاستقلال، لم يسكن إلى النتائج الرائعة التي حققها بجهاده الجاهد العجيب، وإنما قرر ـ بتصميم ـ أن يضفي على المغرب صبغة الدولة العصرية، بتشريع شرائع الحريات العامة، ومبادئ الدستور اللذين تضمنهما كل من قانون الحريات العامة والإعلان الدستوري. ومع أن هذه الشريعة هي من صميم تراث المغرب؛ الدولة العربية المسلمة، إذ هي من جوهر التعاليم السياسية للإسلام، فإن صياغتها في النصين المشار إليهما آنفا كانت دمغا لكل ادعاء قد يحاول وصم الدولة المغربية بالتخلف، وقضاء على كل محاولة لتوجيه المغرب الوجهة التي كانت مهيمنة يومئذ على عدد من الأقطار العربية والإسلامية استوردها زعماء تلك الأقطار من المعسكر الشرقي، وهي إعطاء دكتاتورية الحزب الوحيد لقب الديموقراطية الشعبية وفرضها على الدولة المغربية.

وما من شك في أنه ـ رحمه الله ـ بذل في هذا النمط من التحدي من الجهد ما هو أشد عنتا وإرهاقا، من ذلك الذي بذله في خلخلة ثم تقويض دعائم الاستعمار الصليبي وإنهاء عهد الاغتصاب. فمواجهة خصم غير غريب أصعب بكثير وأشد إرهاقا وإعناتا من مواجهة عدوّ أجنبي جاهر العداء.

فلما صار الأمر إلى ولي عهده، جلالة الملك الحسن، حفظه الله ـ كان أول ما شرع فيه من تنفيذ «عهده»

تطوير هذا التحدي بحيث يستكمل المميزات الدستورية تشريعا وتطبيقا.

وإلى جانب ذلك مضى في تحد آخر هو - في تقديري - استمرار لتحدي والده برحلته إلى طنجة، وكان رفيقا له إليها، وذلك بأن شرع في محاولة استكمال تحرير ما بقي من جيوب محتلة من التراب المغربي بالوسائل السلمية، استمرارا لسياسة والده - رحمه الله - التي تؤثر السلم ما استطاعت إليها سبيلا، حتى إذا استنفذت جميع وسائلها لجأت إلى الحرب مضطرة خلقا، غير وَجِلَةٍ خلقا أيضا.

وما من أحد أياً كان منهجه في دراسة التاريخ تخفي عليه ظاهرة الاستمرار وهو يدرس هذه العقود الستة، من حياة المغرب المعاصر، ما كان منها بقيادة محمد الخامس و «وزارة مولاي الحسن»، وما هو منها حتى الآن وإلى أمد نرجو أن يمد الله فيه، ويمده بالتوفيق والتسديد، وما هو منها حتى الآن بقيادة الحسن الثاني - حفظه الله - مهما اختلفت مظاهره وأساليبه وميادينه وطرائق تنفيذه والأهداف المعلنة له، والتي تأجل إعلانها إلى حين.

والأمل قوي في الله أن تتواصل انتصارات المغرب في جهاده السياسي والاقتصادي تواصلا محتفظا بنفس التوفيق الذي وسمها منذ بداية العقد الأول من هذه العقود الستة الميمونة وحتى الآن، وما خاب الرجاء في الله، وما خذل الله من ينطلق في جهاده من تعاليم شريعته ولإعلاء كلمته.

• • اقتضت حكمة الله أن يضع على عاتق خلفاء المسلمين وأمرائهم أمانة خلافته في الأرض فجعل بذلك على رأس مهامهم مسؤولية الذود عن الشريعة والحفاظ على الدين وحماية المجتمع الإسلامي من كل زيغ أو ضلال مبين وقد امتاز المغرب الإسلامي بتعاقب ملوك بررة جعلوا الحفاظ على الإسلام والدفاع عنه فيما وراء البحار، ونشره فيما جاوره من الأقطار مهمتهم الأولى. وتثبيت تعاليمه في النفوس غايتهم المثلى. ومن بينهم ملوك شرفاء من آل البيت الكرام. في طليعتهم أسلافنا الملوك العلويون المنعمون في دار السلام • •

**جلالة الملك الحسن الثاني**

# قيام الدولة العلوية على السنة ورعايتها لها

الدكتور يوسف الكتاني

لقد قامت الدولة العلوية على أساس الدين، وحكمت المغرب باسم الإسلام، استمراراً لما كان عليه الحال منذ إدريس الفاتح إلى المولى الشريف الذي اشتهر بين الناس بالفضيلة والدين، والجهاد في سبيل رب العالمين، قبل أن يعلن تأسيس دولته ورفع رايته.

ولم يكد يستقر الأمر للدولة العلوية ويستتب أمنها ونظامها، حتى سارعت إلى إرساء قواعد الحكم، ونظام الملك على أساس الكتاب والسنة، باعتبارهما الأصلين العظيمين الخالدين من أصول الإسلام.

لقد قام نظام الدولة على عهد العلويين على أساس العقيدة الإسلامية الصحيحة، وعلى مذهب أهل السنة، البعيد عن الأهواء والفرق والأحزاب، وسارت أمور الدولة وشؤونها، على أساس الكتاب الكريم، وهدي السنة النبوية الشريفة، وظهر ذلك واضحاً، في أنظمتها، وتشريعاتها، وسياستها، وجميع خططها.

ولم تقتصر عناية الدولة العلوية على تأسيس الدولة، وتسيير شؤون المملكة على هدي الإسلام وتعاليمه، بل تعدى ذلك إلى عناية الملوك العلويين وشدة اهتمامهم، بنشر السنة وإحياء ما اندثر منها، وبرز هذا الاهتمام والنشاط في إحياء عادة تنظيم الدروس التفسيرية والحديثية، إذ كانت تعقد المجالس والحلقات سواء بالقصر الملكي وبرئاسة الملك، أو في مختلف المساجد الكبرى والجامعات الشهيرة، كالقرويين وابن يوسف أو في الزوايا الكبرى ومختلف الأضرحة، خاصة في شهور رجب وشعبان ورمضان من كل سنة.

ولقد كان يحضر هذه المجالس العلماء والأعيان وكبار رجال الدولة، فتسرد الأحاديث بصوت رخيم جميل حسن، وتفتتح المناقشات في حديث من الأحاديث المسرودة ليدلي كل عالم برأيه في الدروس الحديثية التي كانت تعقد في حضرته.

كما ظهر هذا الاهتمام والعناية بنشر كتب السنة وطبعها، والعمل على إذاعتها بين الناس، وفي إصدار مراسيم وظهائر تدعو المواطنين إلى التمسك بالسنة وتعاليمها، ونبذ البدع والخرافات الخارجة عن الدين.

☆ ☆ ☆

ففي عهد المولى الرشيد بلغ الاهتمام بالسنة وكتبها ومدارسها مداه، إذ أسست المعاهد لتعليم الكتاب والسنة، وانتشرت الخزائن في أنحاء البلاد، وعمت المجالس الحديثية الأرجاء، والتي كان يحضرها المولى الرشيد بنفسه، ويجمع إليها العلماء ويشاركهم المناقشة والمناظرة.

أما المولى إسماعيل العظيم فقد كان أكثر شغفاً بالحديث والمحدثين، الذين كان يستقدمهم من أطراف المغرب وغيره، وكان يكرمهم ويبالغ في إكرامهم إثر كل مجلس، حتى إنه كان يصب الماء على أيدي العلماء، ويقوم بتوزيع الجوائز عليهم في احتفالات كان يقيمهما لهم بالقصر الملكي تكريماً وتعظيما.

وقد كانت لديه نسخة ممتازة من صحيح البخاري، كتب عليها إسم العبيد الذين اتخذ منهم جيشاً وبطانة، وقد عقد معهم العهد والميثاق على هذه النسخة، وأقسم معهم قسماً تاريخياً تضمن تعلقه بالسنة والعمل بها، واتخاذها أساساً لحكمه ونظامه، وهذا نص القسم مع «عبيد البخاري» كما سماهم بنفسه :

«أنا وأنتم عبيد سنة رسول الله ﷺ وشرعه، المجموع في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله، وكل ما نهى عنه نتركه، وعليه نقاتل».

فعاهدوه على ذلك، وأمرهم بالاحتفاظ بهذه النسخة، وأن يحملوها عند ركوبهم، ويقدموها أمام حروبهم، ومن ثم سموا «عبيد البخاري» وسرى عليهم لقب البواخر إلى الآن.

☆ ☆ ☆

أما سيدي محمد بن عبد الله فقد كان عالماً محدثاً حافظاً، حيث أقبل بشغف كبير على الحديث وأهله، فنظم مجالس الحديث، وعين لها أوقاتاً مخصوصة، واستجلب من الشرق مسانيد الأئمة الثلاثة، واشتغل هو نفسه بدراسة الحديث والتأليف فيه.

وإن أول ما يثير انتباه الدارس لحياة هذا الملك العظيم هو حبه للعلم وإقباله عليه منذ نعومة أظفاره، وتكريمه للعلماء ومحبتهم ورعايتهم، يؤيد ذلك ويؤكده، أنه بمجرد بيعته ودخوله إلى فاس، كان أول ما فعل هو اتصاله بالعلماء والفقهاء، والتعرف عليهم واحداً واحدا.

لقد ابتدأ محمد الثالث حياته بالإقبال على كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر، حتى اشتهر شغفه بكتاب «الأغاني» فكان يحفظه ويستظهره، ويستشهد في مجالسه بنوادره وأمثاله وأشعاره.

غير أن هذا الاتجاه إلى الأدب والتاريخ تحول منذ صار ملكاً، فقد أقبل على كتب الحديث والسيرة، وأخذ يدرسها ويدارسها العلماء، ولم يقتصر على الموجود منها بالمغرب، فاستجلب من المشرق المسانيد، واستقدم العلماء لحضرته، وانتقى منهم الكبراء لمجالسته ومذاكرته، واتخذ لهم مجلساً حديثياً رسمياً، فكان يجلس إليهم بعد صلاة الجمعة بمقصورة الجامع بمراكش، يدارسهم الحديث ويشرحه وهم يدونون ويكتبون، وممن كان يضمهم مجلسه الحديثي العظيم، الشيخ حمدون بلحاج، وأبو عبد الله محمد الغربي الرباطي، وأبو عبد الله محمد المير السلوي، وأبو عبد الله محمد الكامل الرشيدي، وأبو زيد عبد الرحمان بوخريص وغيرهم كثير.

وقد رتب لمجالسه العلمية أوقاتاً مضبوطة لا تتقدم ولا تتأخر، حضراً وسفراً، سلماً وحرباً، وكان يحذو في ذلك حذو أستاذه وقدوته أحمد المنصورالذهبي يجد فيها من اللذة والمتعة ما يثلج صدره، ويملأ عقله، حتى كان يقول : «لقد ضيعنا عمرنا في البطالة».

ويتحرق على ما فاته من لذة العلم أيام الشباب.

كما قام بنقل العلماء إلى مراكش من فاس، ومكناس وسلا وغيرها، وفرقهم على المساجد، فكانوا يدرسون بها ويعلمون الناس، ثم يحضرون مجلسه الحديثي يوم الجمعة.

ومن طرائف مجالسه العلمية، أنه كان ذات يوم في مجلسه الحديثي مع جماعة من العلماء وفيهم الشيخ حمدون بلحاج، فناوله وصيفه ميمون كأس الشاي، وكان جالساً على اليسار، فابتدره قائلاً : إذن يقول الشيخ حمدون :

صددت الكأس يا ميمون عنا
وكان الكأس مجراها اليمينا

فقال الشيخ حمدون :نعم وأزيد :

ولم تعمل بحكم الشرع فينا
كما جلاه خير المرسلينا
رسول الله فيما صح عنه
من أنه قال ناولها يمينا

ولم تقف همته عند هذا الحد، بل كان يأمر العلماء بالتأليف في الحديث والتفسير وغيرهما، ويرغبهم في ذلك، ويشجعهم عليه، فقد كلف ثلاثة من العلماء بشرح «مشارق الصغاني»، حيث شرح الشيخ التاودي بنسودة ثلثه الأول، والشيخ عبد القادر بوخريص الثلث الثاني، والحافظ إدريس العراقي الثلث الأخير، إلا أن الموت تخطفه ولم يمهله لإتمام عمله، فقام ولده عبد الله بإتمام شرح والده حتى جاء الشرح في عدة أسفار.

كما تكلف الشيخ التهامي بن عمرو بشرح الأربعين النووية، والأديب الغزال بتدوين رحلته إلى الأندلس فكتبها وسماها «نتيجة الاجتهاد».

وأمر ابن عثمان بكتابة رحلته الحجازية، فكتبها وسماها «إحراز المعلي والرقيب».

ولم تقف همته العالية ونفسه الأبية عند هذا الحد، بل ربط الصلات مع علماء الشرق وكتابه، وخاصة علماء مصر وكتابها، وعلماء آل عثمان، وكان يكاتبهم ويراسلهم حتى امتدت إليهم كتبه ورسائله وهداياه.

ومن أعظم ما يذكر في هذا الباب، الهدية التي تلقاها من السلطان عبد المجيد، وهي عبارة عن سفر واحد، يشتمل على صحيح البخاري، ومسلم والموطأ، والمسانيد الستة، والشمائل وعمل اليوم والليلة وقد جمعت هذه الكتب كلها في سفر واحد كان السلطان يعتز به دائماً.

على أن الملك محمداً الثالث لم يقتصر على محبة العلم، وتكريم العلماء، وجمعهم، ومناقشتهم، وتشجيعهم على التأليف، وترغيبهم فيه، بل قام هو نفسه بتأليف كثير من الكتب بمساعدة علماء حضرته، حيث أثرى الخزانة العلمية المغربية بمؤلفات تشهد بطول باعه، وعميق معرفته، من هذه المؤلفات :

- الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد.
- مواهب المنان مما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان.
- الفتوحات الإلاهية الصغرى.
- الفتوحات الإلاهية الكبرى.
- طبق الأرطاب فيما اقتطفناه من مسانيد الأئمة وكتب مشاهير المالكية والإمام الحطاب.

وأحسن قول في هذا الباب، قول الحافظ محمد بن جعفر الكتاني في «سلوة الأنفاس» :

لقد كان سيدي محمد بن عبد الله علامة دراكة، فاضلاً محدثاً، تاريخياً كاملاً، محباً للعلماء، مجالساً للفقهاء.

☆ ☆ ☆

وكذلك استمرت العناية والاهتمام بالحديث والمحدثين على عهد السلطان المولى سليمان، إذ نبغ في عهده ثلة كبيرة من العلماء، نذكر منهم :

- الشيخ الطيب بن كيران.
- والشيخ أبا الفيض حمدون بن الحاج، صاحب كتاب «نفحة المسك الداري لقاري صحيح البخاري» وكتاب «رياض الورد».
- والشيخ عبد القادر بنشقرون.
- والشيخ محمد بنيس.

ومن مظاهر عناية هذا الملك العظيم بكتب السنة، أنه سمع بوجود أصل أبي علي الصدفي بطرابلس الغرب عند بعض الناس، وذلك بواسطة المحدث الحافظ أبي عبد الله، الناصري الذي خوفه من ضياع هذا الأصل العظيم فاهتم للأمر اهتماماً بالغاً، وكتب في شأنه غير ما مرة، ووجه إلى من هو بيده ألف مثقال يشتريه منه.

قال الحافظ ابن عبد السلام الناصري في كتابه «المزايا» بعد أن تكلم على نسخة ابن سعادة : وقد عثرت على أصل شيخه الحافظ الصدفي الذي طاف به البلاد، بخطه بطرابلس في مجلد واحد مدموج، لا نقط فيه أصلا على عادة الصدفي وبعض الكتاب، إلا أن بالهامش منه كثرة اختلاف الروايات والرمز عليها.

وفي آخره سماع عياض وغيره من الشيخ بخطه.

وفي أوله كتابة بخط ابن جماعة، والحافظ الدمياطي، وابن العطار، والسخاوي، قائلا : هذا الأصل هو الذي ظفر به شيخنا ابن حجر العسقلاني وبنى عليه شرحه الفتح، واعتمد عليه، لانه طيف به في مشارق الأرض

ومغاربها، الحرمين ومصر والشام والعراق والمغرب، فكان الأولى بالاعتبار كرواية تلميذه ابن سعادة.

ولقد بذلت لمن اشتراه في عدة كتب من أهل طرابلس الغرب باسطنبول بثمن تافه «صرة ذهب»، فأبى بيعه، وكان من مدح ابن العطار له بخطه ما نصه :

قد دام بالصدفى العلم منتشرا
وجل قدر عياض الطاهر السلف
ولا عجيب إذا أبدى لنا دررا
ما الدر مظهره إلا من الصدف

وفي عهد سيدي محمد بن عبد الرحمان استمرت العناية بالحديث وأهله، وكان السلطان يصطحب معه في أسفاره ورحلاته، نسخة ابن سعادة، ولا تكاد تفارقه، وعند ما فقد من خزانة القرويين الجزء الأول منه، اهتم للأمر، وكلف من يبحث عن الجزء الضائع، ولما لم يحصل له على أثر، أمر باستنساخ جزء آخر بدله وكلف خطاطاً ماهراً بذلك، وأصدر ظهيراً شريفاً يقول فيه :

لما كان الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المنتسخ بخط الحافظ المحدث أبي عمران موسى بن سعادة محبساً بخزانة القرويين - عمره الله - وضاع منه الخمس الأول، وبحث عنه أشد البحث فلم يوجد، أمرنا بانتساخ آخر بدله من نسخة معروفة بفاس «بالشيخة» من الأصل المذكور، وهو هذا المكتوب عليه، وألحقناه بباقي أجزاء الأصل المذكور، فمن بدل أو غير فالله حسيبه وولي الانتقام منه، والسلام في عشري جمادى الأولى عام 1228 هـ.

☆ ☆ ☆

وكذلك استمر الأمر على عهد السلطان الحسن الأول إذ زادت العناية بالحديث والمحدثين، واستمرت عادة عقد المجالس الحديثية، وظل السلطان يحضرها بنفسه ويستدعي إليها العلماء من كل حدب، حتى إنه لما بنى قصره بالرباط كانت أول حفلة أقامها لتدشينه، هي مجلس قراءة صحيح البخاري بمحضر العلماء والوزراء ورجال الدولة، وقد كان عمل المولى الحسن استقر على ستة وثلاثين درساً، خلال الأشهر الثلاثة من كل عام، وهي رجب وشعبان ورمضان، وذلك طوال مدة ملكه، وكانت هذه المجالس الحديثية قائمة مستمرة، يقيمها حاضراً ومسافراً، وفي ذلك يقول ابن زيدان في «الإتحاف» : «وعلى هذا كان العمل جارياً من لدن الدولة الرشيدية، إلى أواسط الدولة اليوسفية، وكان من العادة تقديم الطعام للعلماء إثر انتهاء الدرس، وفي الختام تلقى القصائد تمجيداً وتعظيماً للمناسبة، وفي عهد المولى الحسن أجزلت لهم العطايا والهدايا وزيدت لهم في المبرات.

☆ ☆ ☆

وفي عهد المولى عبد الحفيظ زادت العناية بالحديث وأهله، لكون هذا السلطان كان عالماً شغوفاً بكتب الحديث وبعلوم السنة، واستمر يعقد المجالس والمناظرات، ويشارك فيها بنفسه، وقد ظهر في عهده محدثون كبار كالشيخ أحمد بن الخياط الزكاري، والشيخ عبد الكبير الكتاني، صاحب كتاب «حواشي على البخاري» والعلامة البطاوري الرباطي، وجدنا الشيخ أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني وعمنا الحافظ محمد بن جعفر الكتاني، ومن شدة عنايته بالحديث ونشره في الآفاق : إنشاؤه قراءة صحيح البخاري بالضريح الإدريسي شروق كل يوم وعيّن لذلك العلماء، أمثال : القاضي عبد السلام الهواري، ومولاي جعفر الكتاني وغيرهما.

وعندما تأسست مطبعة فاس أصدر أمره بتقديم طبع كتب الحديث، فطبعت حواشي الشيخ التاودي ابن سودة، وابن زكري على البخاري، ونظم المتناثر لسيدي محمد بن جعفر الكتاني، وغير ذلك من كتب الحديث.

وفي عهد سيدي محمد الخامس ظلت العناية بالحديث قائمة مترسلة، كما استمرت المجالس الحديثية إلا أنها اقتصرت على شهر رمضان عند صلاة الظهر، وكان يرأس هذه المجالس السلطان، ويستدعى لها كبار العلماء والمحدثين، أمثال الشيخ المدني بن الحسني صاحب كتاب «مفتاح الصحيحين» وكتاب «مقدمة الرعيل لجحفل محمد

بن إسماعيل»، والعلامة محمد الحجوي، والعلامة محمد السائح وغيرهم.

☆ ☆ ☆

وفي عهد الحسن الثاني العظيم ازدهرت السنة وعلومها، وزادت العناية بالحديث، ولم تبق المجالس الحديثية مقتصرة على شهر رمضان، بل تعدتها إلى بقية الشهور، حيث أصبح أمير المؤمنين يعقد مجلساً حديثياً شهرياً وفي مختلف بلاد المملكة، وقد أضفى على هذه المجالس مهابة وجلالة، حيث استقدم لها العلماء من مختلف أقطار العالم الإسلامي، وهو أول ملوك الدولة العلوية الذي اختص بدرس حديثي مستقل عن العلماء، يلقيه بنفسه شأنه في ذلك شأن العلماء.

وقد أكدت هذه الدروس عظمة هذا الملك ومراميه البعيدة، كما زاد في أهمية هذه المجالس وقيمتها نقلها بمختلف وسائل الإعلام، لتكون الفائدة أعم والأثر أشمل.

ومن اهتمام جلالته بعلم الحديث، أنه أمر وزيره في الأوقاف والشؤون الإسلامية بإجراء مباراة في كل سنة لحفاظ الحديث، وإعطاء جائزة مالية مهمة لمن يحفظ كمية وافرة من صحيح البخاري أو من موطأ الإمام مالك، وقد حصلنا عى نتائج كبيرة في هذا الميدان، فقد ظهر عندنا حفاظ من الشباب، استطاع واحد مرة بأن يسرد ألفاً وخمسمائة حديث بأسانيدها، واستطاع اثنان من قبيلة زعير أن يسردا ألفي حديث بالرواية عن الصحابي.

ولا تقتصر هذه المباراة على حفظ السنة، بل تجرى حتى في تحصيل القراءات السبع.

ومن رعاية الحسن الثاني للحديث وأهله، تأسيسه لدار الحديث الحسنية، لتكون معهداً عالياً لتدريس السنة وعلومها، ولتخريج أفواج من العلماء يحيون سنة رسول الله، ويعملون على نشرها وخدمتها، وقد كتب الله لي شرف الانتساب إليها، والتخرج في أول أفواجها.

وقد أثمرت هذه الدار الكريمة ثماراً يانعة وأصبحت إحدى معالم بلادنا، وانتشر ذكرها في شتى بلاد الإسلام، حيث تخرج من ربوعها أزيد من مائتين وخمسين عالماً متخصصاً، في القرآن وعلومه، والسنة وعلومها، كما ملأ خريجوها مختلف كلياتنا وجامعاتنا، ومختلف مؤسساتنا الثقافية، بل إلى بعض جامعات الدول الإسلامية، يبثون فيها المعرفة، يفقهون الأجيال الصاعدة بلغتهم ودينهم، وتراثهم الأصيل.

وفي هذا العهد الحسني ازدادت العناية والاهتمام بنشر التراث، وإحياء كتب السنة، إذ قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بطبع كتب التفسير والحديث وتحقيقها ونشرها.

ومن هذه الكتب القيمة المنشورة المحققة :

كتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» للقاضي عياض.

وكتاب «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» لعياض.

و «الصوارم والأسنة في الذب عن السنة» للشيخ المرحوم محمد بن أبي مدين الشنجيطي.

وكتاب «أربعون حديثاً في اصطناع المعروف» لأبي محمد عبد القوي المنذري.

ومعجم المحدثين والمفسرين والقراء بالمغرب الأقصى» للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله.

إلى غير ذلك مما نشر وحقق برعاية الوزارة المذكورة.

ومن مميزات هذا العهد الحسني أن جلالة الملك أخذ يركز في جميع خطبه وندواته وتوجيهاته إلى الأمة على الكتاب والسنة، ويتخذهما نبراساً وموجهاً وأساساً في جميع الأوامر والأعمال التي يصدر عنها، وناهيك بمعجزة القرن وحدث العصر، «المسيرة الخضراء» فقد اقتبسها من حادث الحديبية، ويكفيها فخراً أن شعارها وسلاحها ورمزها كان كتاب الله، دستورنا الخالد.

# فَرَدْوسُ الحَسَن

الأستاذ علي الصقلي

كالنسمة، كالحلم الأخضر

كربيع مؤتلق أنضرْ

كاللحن يفجر منبعه

ليلَ هوى بسامَ أزهرْ

كخميلة شعر نافحة

عبر الأعماق شذىً أعطرْ

أتملى حسنك ياوطني

لا ! بل إنك منها أكبرْ !

☆

وطني يا فردوس الحسن

ياوترا في عود الزمن

يا أنشودة عزم صاف

ما شيب بأكدار الوهن

هذا شعبك أصدق حبا

في السر وفى لك والعلن

يتغنى مجدك ليس له

إلا أنت بأعلى القُنَن

☆ ☆ ☆

حــدث عنــك الكــون الرحبــا
قــل كيف محضنــاك الحبــا
كيف صنعنــا أجنحــة من
شمســك كي نرتــاد الشهبــا !
كيف دعــانــا الحسن الغــالي
فقطعنــا أجمعنــا الــدربــا
يــا مــلء العين سنى، أومــا
نــورنــا بسنــاك القلبــا ؟!

☆ ☆

في وجهــك تضحــك لي الشمس
فيشــع بــأعمــاقي الأنس
وأعيش حيــاتي أحــلامــا
في ظلتهــا تغفــو النفس
كم كــاس سنى من كفــك، مــا
إن تعــد لهــا أبــدا كــاس
من فيض منى الحسن الثــانى
عــاش الشعب لهــا يحســو

☆ ☆ ☆

أشرق، أشرق، وطني، نــورا
يشرق كــل الكــون حبــورا
وكعهــدي بــك روضــا أنفــا
لتقــدم أغنى الأرض زهــورا
تهــدي عطرك شــلال شــذى
مــا أكرمهــا منــك عطــورا !
بــاسم الحسن الثــاني أسرت
بعثــا لمــآثرنــا ونشــورا

# الأسطورة الحيّة

الأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

لـك الحمدُ، يـا خـالقي والثنـاءْ — على مـا بـذلْتَ لنـا من عطـاءْ
على بلـدٍ طيبٍ مـا لَـهُ — مثيـلٌ يُـدانيـه تحت السمـاءْ

☆

وشعبٍ أصيـلٍ، عريـق الجـذور، — ومـا زال في عنفُـوان الشبـابْ
على الأرض أقْـدامـه ثـابتـات — ولكنّ هـامتَـهُ في السحـابْ

☆

على مَلِـكٍ لا كَكُـلّ الملـوك — تقمّص أمّتَـه مُنْـذُ كـانْ
فكـان لهـا الروحَ، والعقْـلَ، والـ — ـفُـؤادَ، ومُقْلَتَهـا، واللسـانْ

☆

لشعْبـكَ عِشْ، يـا أعـزّ حبيب ! — ودُمْ في مقـامِـك ذاكَ الرفيـعْ
فمجـدكَ مجـدٌ لـه خـالـدٌ، — وفي حبّـه لـك حِصْنٌ مَنيـعْ

☆ ☆ ☆

جعلْتَ بـلادَكَ نـافـذَةً — يرى مـا بـداخِلِهـا مَنْ يشـاء
ولَيْسَ يرى غير مـا يشتهيـه — الحبيبُ، ويكرهُـهُ ذو العـداء

☆

سـلام، وأمن، وحريـة، يُـؤازرُهـا عمـلٌ وبنـاءْ
وحبٌّ يـوحّـدُنَـا حـول عرش نريـدُ الخلـودَ لـه والبقـاء

☆

إذا هـاب يقظـةَ شعبٍ زعيمٌ وأسلَمَـهُ لسُبَـاتٍ عميـق
فـأنت تُنـاديـه، والليل داجٍ، وتُـذْكِي حمَـاسَتَـهُ ليُفيـق !

☆

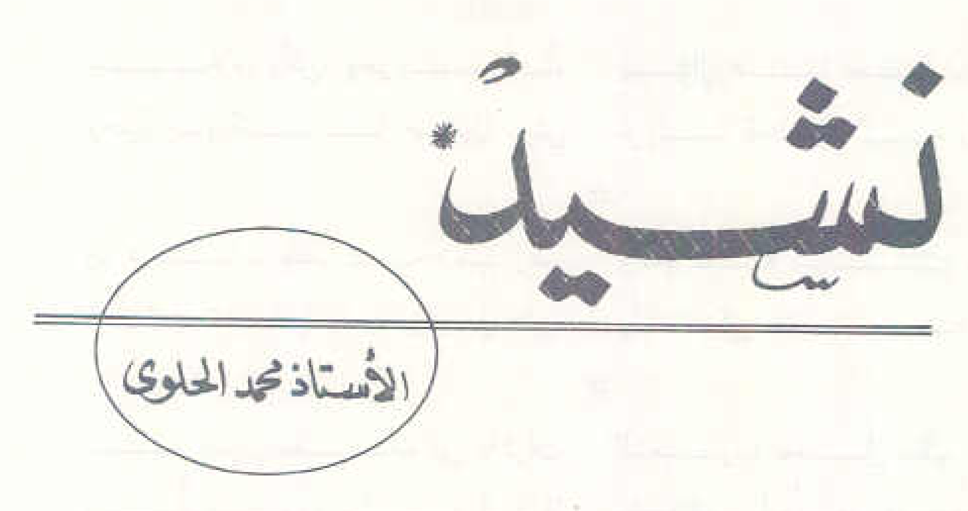
قـد اقتَرَنَ اسمُـكَ في ذاكراتِ الشعـوبِ بفعـلٍ عظيمٍ جليـلْ
بـأُسطـورة حيَّـةٍ لم يَرَوْا مثيلاتهـا منـذُ عهـدٍ طـويـلْ

☆

وَتَرْنُـو إليـكَ الملـوكُ العظـامُ وتَحْسُـدُنَـا بـكَ كـلُّ الشُّعُـوبْ
يريـدُون إدْراكَ سِرِّ عُـلاكَ، وكَيْفَ مَلَكْتَ جميـعَ القلُـوبْ

●● تاريخ المغرب كله يظهر لكم تعلق المغاربة بحرية الفكر، وذلك ما يجعلنا نحترم تفكيرهم واتجاهاتهم على شرط أن لا تمس مقدسات الدين ونظام الدولة. أما ما عدا ذلك من اراد مثلا التحدث عن التاميم فليتحدث ويكتب ما يشاء، وعندما تجتمع آراء الأمة كلها على أن التأميم هو الصالح نقول له طيب يد الله مع الجماعة. لنجرب التأميم وإذا كان آخرون يقولون ويكتبون بأن الحرية الاقتصادية هي النظام الأحسن واللائق وشعرنا بأن الأغلبية مجموعة على ذلك فإننا نؤيد الاجماع، والملاحظ أنه منذ الاستقلال إلى يومنا هذا لم تأت في الالقاب الوزارية، وزارة باسم الإرشاد القومي أو التوجيه، لأن المغاربة يعتقدون أنهم في غنى عن المرشد ليختاروا هذا المذهب أو ذاك، وهم يعيشون التجربة بأنفسهم ليقرروا الخطأ أو الصواب ●●

جلالة الملك الحسن الثاني




يا أخي في السلاح يا أخي في الكفاح
ضع يدك في يدي وافتخر وانشد
نحن ضباط الغد دائما نفتدي
بالدماء الوطن

نحن جند الحمى نحن أسدُ العرينْ
نحن رمز الفدى والعماد الحصين
إن دعانا الوطن لعوادي الزمن
اقتحمنا الخطوب وامتطينا المحن
في سبيل البلاد
اللازمة

☆ ○ ☆

قد كتبنا على صفحات الخلود
وضمنا إلى ما بناه الجدود
آية في الفدى اهتز منها الوجود
وتغنت ربا ه بها والنجود
في سبيل البلاد
اللازمة

☆ ○ ☆

*) كتب هذا النشيد للأكاديمية الملكية العسكرية سنة 1955، وكرم الشاعر بإهدائه وسام التقدير.

بعوالي القنا وغوالي الدماء
شاد آباؤنا مجدهم في السماء
وبقوتنا وعروبتنا
وبطولتنا وبذاك الإباء

سوف نحمي البلاد

اللازمة

☆ ○ ☆

فاقصفي يا رعود واقدفي بالحمم
وازأري يا أُسود في الربى والأجم
فثبات الجنود يتحدى الهمم
ويلاقي الخصوب ساخرا بالألم

عاصفا بالأعاد

اللازمة

☆ ○ ☆

نحن جند البلاد في الربى والوهاد
في الفلا والقرى في الصحاري الشداد
أرضنا جنة وارف ظلها
وهي قبر لمن جاء يحتلها

نحن فيها العماد

اللازمة

☆ ○ ☆

سر بنا دائما خلف قائدنا
وارفع العلما رمز أمجادنا
نحن شعب له ملك مرتضى
وزمان العبيد مضى وانقضى .

يا هناء البلاد

اللازمة

# التجاوبُ الحَقّ

الأستاذ عبد الواحد اخريف

العيدُ عادَ وثغْرُ المجدِ مبتسمُ ... يشْدُو أهازيج نصر ظل يزدحم
بحلة كست الأيام بهجتها ... جمالها بالسنا الوضاح مرتسم
وكلها زهرات من محاسنه ... لذاك أعيادنا من جوده عمم
فإنه واهب للغير منحته ... لكنه فوقها المصباح والعلم

☆ ☆ ☆

يا عيد هل من سبيل يقتفيه إلى ... علياك شعر له بالصدق متسم
وأنت فوق خيال الشاعرين ولو ... بثوا من الصور العذراء فيضهم
فمن جلالك ما يغري مواهبهم ... ومن جمالك ما يرنو له الحلم
وعذرهم إن كسا التقصير صنعتهم ... حب به تنتشي الأفكار والكلم
والشعر إن نسج الإخلاص حبكته ... تهتز من حسنه الأذواق والنغم

☆ ☆ ☆

يا عيد أنت ربيع القلب مبتهجا ... والأرض فيها ربيع العام ملتئم
لنا ربيعان قد ضا جمالهما ... فكانت الفرحة الكبرى لها ديم
وإن على مسرح الدنيا جرت متع ... للقلب والعين فالجنات بينهم

يا عيد بالعرش نلت المجد مؤتلقا ... والعرش قلب لهـذا الشعب منتظم
ذكراه حلت حلول اليمن في وطن ... العرش والشعب فيه وحدة ودم
يمجد الشعب عرشا دأبه عمل ... ويخدم العرش شعبا حبه ذمم
وما علاه مدى التاريخ غير فتى ... أحبه من هداه الناس كلهم
ومذ تبوأه بالله معتصما ... سبط الرسول الرضى العلامة الفهم
العاهل «الحسن الثاني» غدا وطني ... كقدوة يحتذيها العرب والعجم

☆ ☆ ☆

مولاي أدركت شأوا ليس يبلغه ... في الناس من خبروا الدنيا ومن حكموا
أوتيت علما وتقوى واصطحاب هدىً ... وحكمة تنحني عن أفقها الحكم
شجاعة الرأي خير نلت حرمته ... وتلك ميزة من فاقوا ومن عظموا
فما كرأيك رأي في إصابته ... وما كجهرك حق بات يحترم
إذا خطبت فسحر القول منهمر ... والفكر مبتكر والنطق منسجم
بلاغة اللفظ والمعنى لديك معا ... إذا نطقت جرى بالبينات فم
يكفي تريد فينهل البيان على ... لسانك الطلق لا صحفٌ ولا قلم
تبني لشعبك في أوج العلا سندا ... لم ينبه أبدا شعب ولا أُمم
إن الفلاحة لم تشهد تقدمها ... إلا بهديك فانسابت بها النعم
هاذي السدود تروي أرضها غدقا ... شيدتها قمما تنأى بها النقم
أما الصناعة في ضاحي مصانعها ... فكا لفلاحة يكسو وجهها العظم
والعلم - وهو سبيل العز مكتملا ... كل إلى نبعه قد خف يغتنم
شذاه يعبق في ساح الحمى جذلاً ... ينال منه حظوظا من له همم
تدعو إليه وتبني من معاهده ... ما يطرد الجهل حتى تنجلي الظلم

☆ ☆ ☆

مولاي حررت جزءا طاهرا فهفت ... إليك فيه شداد البأس والبهم
أسودنا الزرق في الصحراء قد عقدوا ... على الولاء عهودا شدها القسم
عادوا إلى الوطن المأمون تكلأهم ... عناية منك وهي الحصن والدعم

مـولاي وحـدت صفَّ العرب قـاطبـة ... وكـان قـد فت فيـه الخلف والسقم
لكن هنـالـك من يلـوي بـوحـدتهم ... كـأنهم بعـد مـا ملـوا ولا اختصمـوا
واصل جهـودك فـالرحمن يعضـدهـا ... فسـوف يثمر منهـا السعي والشيم
عودتنـا النجح في كـل الأمـور فـلا ... نرتـاب أنـك بـالتـوفيـق معتصم
إن الـدعـاة إلى المثلى وان نـدروا ... فـأنت رائـدهم والمرجـع الحكم

☆ ☆ ☆

مـولاي عيدك عيد الشعب أجمعـه ... يهـل بـدرا فيحلـو الشعر والنغم
أفراحـه بـالسنـا اللمـاع ضـاحكـة ... تعبيرهـا فوق من خطـوا ومن نظمـوا
اسلُـك بشعبـك نهج الصـالحين ودم ... لمجـده خير بـان حفّـه الشمم
وعشت تمنـح للـدنيـا عطـاء هـدى ... يغـار منـه عطـاء البحر والكرم
وعـاش شبلـك في حضن الصلاح كمـا ... تشـاء تحرسـه الآداب والقيم
وصنـوه في ذرى عـز وتكرمـة ... وآل بيتـك في حفـظ لـه حرم

**من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله**

**●● يحكى أن النبي ﷺ جاءه رجل سأله عن عواطف أمرته نحوه فأجابه النبي ﷺ وقال.. استفت قلبك. وشعبي العزيز هو قلبي النابض وحينما أستفتيه دائما يرد علي بنعم وبالاستجابة وبالاستجابات السريعة الفاهمة العاقلة المتعقلة ●●**

# الإمامة والمذهب

الأستاذ المدني الحمراوي

مولاي ! عشت وثغر الدهر مبتسم    والنصر متسق، والشمل ملتئم

تستقبل العيد بعد العيد في فرح    وعهدك الزاهر الميمون منتظم

ترى وتسمع ما يرضيك مغتبطا    والشعب في ظلك الممتد ملتحم

فقد بنيت له الأمجاد باهرة    وكنت كالغيث بالخيرات ينسجم

بوأته الرتبة العلياء شامخة    وصنت وحدته والكيد محتدم

☆ □ ☆

مسيرة الفتح لم يحلم بها بشر    ولا تسامت إلى آفاقها همم

حتى برزت بها عذراء رائعة    تقول : ها أناذا؛ فلتشهد الأمم

أنا من الحسن الثاني وفطنته    سر سيتعب فيه الفكر والقلم

وهذه أمة المنصور قد حشدت    جموعها كعباب الموج يلتطم

تنساب كالسيل في عزم وفي ثقة    وفي يدها كتاب الله والعلم

والأرض في مشرق الدنيا ومغربها      تقول : كيف يصير واقعا حلم
لكنه الواقع الملموس حققه      شعب طموح على العلياء يزدحم
لبى نداء من المنصور مبتدرا      ولم يثبطه تهويل ولا تهم
بل قال لبيك والأفواج زاحفة      والأرض تعجب، والأفكار تصطدم
والحاقد الأبله المخذول منتكس      يجتر إحنته الحرى ويحتدم
فلم يرعه سوى نجح به رجعت      صحراؤنا: فغدت في السلك تنتظم
فثار ثائره الباغي وباطله      وظل ينهب من جمر فيلتهم
وجيشنا يحرس الصحراء سالمة      وللحياة بها خصب ومزدحم
وقد بناها حبيب الشعب زاهرة      خضراء تزخر في أرجائها نعم
وهمة الحسن الثاني إذا عزمت      رأيت مالم يكن في الوهم ينبرم
يعنو له كل صعب من رغائبه      ولا يداخله وهن ولا سأم
ولا يفارقه التوفيق في خطط      نرى نتائجها تجنى وتغتنم
مواهب الله قد خصت قريحته      بحكمة تنطوي في سرها حكم
وهذه منجزات منه باهرة      بها يصان الحمى والدين والحرم
ولا كفتح به الآمال ظاهرة      به تواصلت الأحساب والرحم

☆ □ ☆

حمدا لمن بك يا مولاي أكرمنا      ومن بجوده قد صحت لك القيم
فأنت نعمته الجلى وحكمته      وأنت ـ بعده ـ الأوطان معتصم
لك المفاخر لا تحصى روائعها      من رام إحصاءها زلت به القدم
الشعر والنثر قد أعجزت سحرهما      لكنه الحب في الأحشاء يضطرم
فاقبل مدائح قد ألهمت قائلها      بما حبتك به الأمجاد والشيم
وما بنيت لشعب ظل منتشيا      بسيرة لك في الآفاق تحترم
وما شغلت به التاريخ من عبر      ومن ملاحم بالتخليد تتسم
فكيف يطمع في شأو ظفرت به      ذيل، ويسعى إلى ما نلته قزم ؟
هيهات ! فالحسن الثاني مشاربه      صفو، وأعراقه بالطهر تلتحم
إماما، وأمير المؤمنين: فلا      نحيد عن مذهب ترسى به القيم

ونحن من علّم الــدنيـــا ولقّنهـــا … فـــلا يعلمْنـــــا مغرور، ومتّهم

ولـلأصــالـة في أحســابنـــا مــدد … وللحضـــارة في تـــاريخنـــا ذمم

خـلافـة الـدين في أوطـانـنـا جثمت … والمـــذهب المـــالكي راسـخ حكَم

تلـك الحقيقـة؛ فليعرف شـواهـدهـا … من ظـــل ينطـــح صخرا ليس ينثلم

وليتّهم عقلـــه من رامنـــا سفهـــا … وضللت فهمـــه الأوهـــام والظلم

وظن مغربنـــا ســوقـا تروج بهـــا … بضــاعـة لم يعــد يخفى لهـــا سقم

فنحن في قلعـــة عـــزت منـــاعتهـــا … وكــل من رامهـــا يخـــزى وينهـــزم

☆ □ ☆

مــولاي عشت لـــدين اللـــه تكـــلأه … وللعروبـــــــة لا تجفى وتهتضم

وعـــاش شبــلاك والألطـــاف راعيـــة … بيت الخـــلافـــة، والتـــأييـــد ملتـــزم

وبـــارك اللـــه في شعب تـــدبره … حتى عـــلا قمّـــة من دونهـــا قمم

وصـــانـك اللـــه في حـــل ومرتحـل … وعرشـك الشـامخ المحروس يحتكم

وعيـد عرشـك لـلأوطـان معلمـة … على طريـق العلى يعلـو لهـــا شمم

بجـــاه جـــدك والقرآن عـــزتنـــا … وبـــالجمـــاعـــة والإســلام نعتصم

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

لعل أجمع وأنفع وصية يوصي بها كل مسلم أخاه في بداية القرن الجديد هي أن نطبع فكرنا وحياتنا وسلوكنا الخاص والعام بالطابع المميز لحضارتنا الإسلامية الذي ارتضاه الله لنا، ألا وهو طابع الاعتدال والوسط، المنافي لكل إسراف وشطط، والمترفع عن كل تهريج ولغط، ففي نطاق المبدإ الإسلامي «الوسط» والحد الفطري «الوسط» لا كبت ولا إباحية، وإنما علاقات شرعية أخلاقية.

# هيَ الهِمَمُ الكبْرى فقُمْ لجَلالها

الأستاذ أحمد
بن محمد
البورقادي

هي الهمم الكبرى فقم لجـلالهـا ... فـدهرك لا يسخـو لنـا بمثـالهـا

يروق الـزمانَ الفـذ أن يملأ الـدنى ... بـذكر سجـايـاهـا وطيب فعـالهـا

فـإن ترم الظـل الظليـل فهـذه ... حـدائقهـا فلْتنعمَنْ بظـلالهـا

وإن ترد الجـو المؤرج بـالشـذى ... ففي أرضها تحظى بطيب اعتـدالهـا

وإن رمت حسنـا لا يقـاس جمـالـه ... فعن حسنها فـاسـأل وهِمْ بجمـالهـا

فقـد سبت العشـاق في كـل محفـل ... بحسن محيـاهـا وغنـج دلالهـا

يرومـون قربـا من حمـاهـا لـوصلهم ... وأينَهُمُ من وصلهـا ووصـالهـا ؟

فـإن تلتمس سر الجمـال بشخصهـا ... فـإن المفـدّى هـو سر جمـالهـا

هـو الحسن الثـاني سليـل أمـاجـد ... لـه عـزمـات عـزَّ دَرْكُ مَنـالهـا

ورائـد أمجـاد وقـائـد أمـة ... وقطب مـزايـاهـا وبحر نـوالهـا

فقـد شهـد التـاريـخ أن مضـاءه ... وحكمتـه عينٌ لفيض زلالهـا

فبـورك في الأعمـال وهي جليلـة ... وبـورك في أصحـابهـا ورجـالهـا

وإذا النفـوس العـامـلات تحملت ... أمـانتهـا فـالخير عنـد احتمـالهـا

وبـورك في أمجـاد أمتنـا التي ... تـدين بها للمَلْكِ في كـل حـالهـا

فـلا مجد في التـاريـخ إلا صنيعـة ... لعـزم أكيـد يبتنيـه لآلهـا

مليـــك بنى بـــالعـــزم أمتـــه التي | تســـامت بـــه تـــوّاً لأوج كمـــا لهـــا
فـإن تسـل التـاريخ عن عزمـاتـه | يجبـــك بـــأن الخير حلفُ نضـــالهـــا
فإن كنت في شك فخذ منجزاتها | دليلا على رجحان صدق مقـالهـا
فكم من فتـوحـــات وكم مفـــاخر | وكم من أيـادٍ فـذة في مجـالهـا
وكم كليـات شنت الحرب فـانمحت | من الجهـل أشبـاح بفعـل قتـالهـا
وكم من سدود أخصب الأرضَ ماؤها | فـأعطت بـلا حـدٍّ لفرط غـلالهـا
وكم من مشاريعَ اقتصاديةٍ بدت | ففكت بـلادي من قيـود عقـالهـا
وكم مسجـدٍ رَدَّ الجمـوع لهـديهـا | وأبعـدهـا عن غيهـا وضـلالهـا
فللـه من تلـك المـواهب إنهـا | لتُلهمـه رشـداً بحسن امتثـالهـا
فتـاتيـه إلهـامـاً وخير مـواهبٍ | تجيء على عفـوٍ بغير ســؤالهـا
فما شئت من علم وما شئت من هدى | وحكمة نطقٍ مُفصحٍ عن صقـالهـا
فسل عنه في الأقصى ولجنة قدسه | وسل عنه في الصحرا وخَبَّ رمالها
وسل عنـه في كـل المحـافل إنـه | خبير بهـا في حـالهـا ومـآلهـا
فللـه مـا أسمى مـواقف ملكنـا | فقـد بهر الـدنيـا بحـل عُضـالهـا
لـه الهمـة القعسـاء والجَلَـدُ الـذي | يرودُ بـه الآمـال عنـد اختيـالهـا
رعى اللـه فيـه خلقـه وصفـاتـه | وأكرمـه منهـا بحسن خـلالهـا
وليحفـظ اللـه بـدور سمائـه | كحفـظ النجوم الزُّهْرِ بَيْنَ هـلالهـا



# بلادُ الخيرْ

الأستاذ محمد شهاب

| | |
|---|---|
| تسمو البلاد بعلمها وهداها | وتعز حين يسوسها حكماها |
| الله يحرسها بوافر فضله | ويرد عنها كيد من يقلاها |
| ويقيمها فوق المشارق راية | خفاقة... دوح الضياء ضياها |
| يحيا على النعماء طاهر روضها | ويعم بالخير الرحيب ثراها |
| وتكون للأزمان وجه هداية | وتفيض إشراقا بفضل تقاها |
| هي ذي ترابط في مشارف عزها | ويذب عنها أسدها وظباها |
| وتسير هامات يطاول شأوها | أعناق مجد لا يطال حماها |
| ترقى إلى قمم العلاء بهمة | لا ترتضي غير العلا دنياها |
| وبحكمة تستل ظاهر حقها | وتبينه شمسا بلون ضحاها |
| فتذود عن أرض إذا ما غاصب | أغراه عطر من كريم نداها |

☆ □ ☆

| | |
|---|---|
| وعلى مدى ربواتها يجري الصبا | متغنيا يطري رقيق هواها |
| في كل نبضة حبة من رملها | قلب يبارك طلعها ونماها |
| ما مثل «مغرب» في البلاد سماحة | أو مثلها في الرشد إذ تتباهى |
| جل المكارم تحت شمس سمائها | حيث انبرى طرف فثم يراها |
| يستل من روض النقاء أريجها | ويطاول النجم البعيد مداها |
| فليهنإ الشعب العظيم بعاهل | بانٍ يسدد في الحياة خطاها |

ويـزيـل طـائفـة الظـلام بعلمـه     وبحكمــه يعلي شريف لـواهـــا
وبنهجـــه يحيي مــــآثر أمــــة     من يعرب... هبت تعيد صبـاهـا
فيريـدهـا تجلي هـويــة عقلهـا     ويريـدهـا وجهـا يبين بهـاهـا
ويريـدهـا للحـق ترفـع هـامـة     ويريـدهـا يغـزو العقول حجـاهـا
فمن اغتـدى والحـق غـايـة همـه     أولتـه آفــاق الحيـاة عـلاهـا
فـأتت إليـه تجر عـاطر صبحهـا     فـأباح بـالإحسـان حسن شـذاهـا
يرقى إلى نيـل العـلاء بهمـة     من سـابـق الأمجـاد في مسراهـا
فتقبـل البسمـــات رائـع ثغره     وتبثـــه من حبهـــا نجـواهــــا
تلـك البـلاد الخير في جنبـاتهـا     ومنــابر للحـق تحت سماهـــا
أنى تلفت نــــاظر سرحت بــه     نعم الهـدايـة في عظيم هـداهـا
فـأظلهـا دين رشـــاد نهجـــه     وأحــالهـا رحبـاء في معنـاهـا
وأثـابهـا حتى تميـز قصـدهـا     عن سـائر الأمصـار في مرمـاهـا
ستظـل محبيـــة لكـلّ كريمـــة     تـولي الفضـائـل من كريم قراهـا
وتظـل في كـون العروبـة شمسهـا،     تبـدي وتثري وجههـا وبهـاهـا
في ظـل من مـلأ القلوب شجـاعـة     وأزال من جهـل النفـوس غـواهـا
وأحب يعرب أن تفـك قيـودهـا     وأحبهـــا تحيى ربيـع ذراهـا
لا رايـــة كسرت ولطـخ لـونهــا     وغـدا على كـل الـدروب بكـاهـا
فـأبى لهـا أن تستبـاح معـاقـلا     ويهـان منهـا بحرهـا وفـلاهـا
وتظـل خـامـدة الفـؤاد حـزينـة     مغلـولـة... رهن القيـود يـداهـا
فيغـط في النوم العميق صبـاحهـا     ويغـوص في بحر السـواد مسـاهـا
وتحير لا تــدري إلى أين الخطى...     أين الطريـق... وكيف ضـاع وتـاهـا
فتحـولت من أمــــة فـوق النجـو     م محلهـا... ثـوب الفخـار رداهـا
وتشرذمت... مـزق التنـافر دأبهـا     فكـأنمـا غشّى الرمـاد دمـاهـا
إن الشجــاعـــة لا تحركهـــا يـــد     نـامت على خـدر الـوعـود قـواهـا
ليست بـذاك الـوهم غير خـديعـة     زينت بتســآم الكـلام شفـاهـا
إن الشجــاعـــة أن يقـوم بحقهـا     رأي وحـزم... يـوقـدان لظـاهـا
الحر يعرفهــا.. وتعرف أنــــه     ربـانهـا... ومليكهـا.. وفتـاهـا
وكـذا الأعـاظم من رجـال نخبـة     وكـذا الأزاهر يصطفى أشـذاهـا

# المسؤولية الإسلامية في الرسالة الملكية

الأستاذ أحمد أفزاز

أتابع في هذا الحديث بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين لتربع جلالة الحسن الثاني على عرش أسلافه الكرام التعليق على بعض الفقرات الواردة في رسالة أمير المؤمنين إلى الأمة الإسلامية المحررة بفاس يوم الأحد فاتح محرم 1401 هـ (1980/11/9) بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري.

لقد جاء في الصفحة العاشرة من الرسالة الملكية مايلي :

«إن الإسلام دين ترتكز فيه الحياة كلها على مبدإ المسؤولية وهي في مفهومه فردية وجماعية، فما من أحد منا إلا وهو يتحمل حظا منها يضيق أو يتسع بقدر ما يوضع بين يديه ويتصرف فيه من مرافق خاصة أو عامة، وإن مراقبة الله أو الشعور بالمسؤولية أمام خلقه لحافز كبير على أداء الحقوق والأمانات إلى أهلها، ودافع قوي للقيام بالتكاليف والواجبات في وقتها والمبادرة بتدارك مافات منها، ولن تؤتي المسؤولية أكلها إلا إذا كان المسؤول يقدر مسؤوليته حق قدرها، ولا يفرط مطلقا في أمرها، وإلا إذا أعطى القدوة الحسنة من نفسه للقريب والبعيد، وصرف أكبر حظ من نشاطه في العمل المفيد والقول السديد، وإن الخطر كل الخطر في إهمال المسؤولية بعد حملها، أو وضعها في أيدي المتطفلين عليها ومن ليسوا من أهلها إذ بذلك تضيع الحقوق، وتتعرض المصالح المشروعة للإهمال ويختل نظام المجتمع ويصاب بالتفكك والانحلال».

إن هذه الجمل في الرسالة الملكية تبين المدى البعيد للمسؤولية الإسلامية في الحياة الاجتماعية، فمبدأ المسؤولية الإنسانية أصل من أصول الحياة في الإسلام، وعلى كل مسلم أن يتكيف مع هذه المسؤولية حتى يؤدي أمانتها على الوجه المطلوب، وعلى الصفة التي حددتها أحكام الشريعة الإسلامية وقواعدها.

والمسؤولية الإسلامية قد تكون فردية وقد تكون جماعية، فهناك منطقة المسؤولية التي يتعين على الفرد أن يلتزم بموجبها كإنسان مسلم محكوم بقواعد الشريعة الإسلامية، وهناك دائرة المسؤولية الجماعية التي تلتزم فيها الجماعة الإسلامية كأمة، فتعمل على حماية حدودها، والوقوف على الالتزام بأحكامها.

والاعتماد على مبدإ المسؤولية في الإسلام واعتبارها فردية وجماعية ينص عليه الحديث الشريف الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ

يقول : «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده، ومسؤول عن رعيته، قال : وحسبت أن قد قال: والرجل راع في مال أبيه، ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته».[1]

والراعي هو الإنسان الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وهو ما تحت نظره، وعليه أن يقوم فيه بالعدل وما تقتضيه المصلحة الدينية والدنيوية.

فالرسول ﷺ يبين في الحديث أن الإسلام دين وشريعة تقوم على مبدإ المسؤولية، فما من فرد إلا وهو مسؤول عما هو موجود بين يديه من أشياء، مادية كانت أو أدبية ومعنوية.

فتتسع دائرة المسؤولية أحيانا بقدر ما يوضع بين يدي المسؤول من مرافق خاصة أو عامة، وأحياناً تضيق دائرة المسؤولية الفردية، فتبقى محصورة في منطقة معينة، وفي أشياء محددة، كمسؤولية الأجير في مال مؤجره، ومسؤولية الإبن في إدارة مال أبيه، ومسؤولية الزوجة في حماية بيت زوجها.

لكن كيف يتأتى للإنسان المسلم أن يقوم بأداء واجبات المسؤولية على وجهها الصحيح، أو كيف نخلق فيه تقدير المسؤولية التي حمل حظاً منها في حياته الفردية أو في حياته الجماعية.

إن الرسالة الملكية في توجيهها الإسلامي لا تضع سيفا على عاتق المسؤول ليقوم بتنفيذ مقتضيات مسؤوليته لأن هذا الأمر يصعب في الحياة المستمرة، ولكنها تضع المسؤول أمام أمرين لتحقيق أمانة المسؤولية.

**الأمر الأول** : مخافة الله عز وجل، وهي مواجهة مباشرة للإنسان مع خالقه، فإذا كان المسلم يؤدي عمله وهو عالم بأن الله يراقبه، ويطلع على سلوكه، وخائف منه أن ينحرف فيه، لابد أن تستقيم حياته وحياة الجماعة التي تشاطره المسؤولية، في أي جانب من جوانبها.

**والأمر الثاني** : هو الشعور بالمسؤولية أمام المجتمع الذي جعل الله أمر مسؤوليته بين يديه، فيعود الإنسان إلى ضميره الحي ليستمد منه الطاقة القوية لأداء أمانة المسؤولية على الطريقة التي يجب أن تؤدى بها.

الإنسان المسلم عندما يتحمل المسؤولية، ويجعل مراقبة الله له، والشعور بالمسؤولية أمام خلقه بين عينيه، فإن ذلك سيؤدي به حتماً إلى الأمور الثلاثة التي تعرضت لها الرسالة الحسنية :

1) **الالتزام بأداء الحقوق والأمانات**، فما من حق كان المسلم مكلفا بأدائه، أو أمانة كانت في عنقه إلا ويعمل على أن تبلغ إلى صاحبها في أحسن الظروف ودون مماطلة أو تسويف.

2) **أداء التكاليف والواجبات في وقتها**، فمراقبة الله عز وجل والشعور بالمسؤولية لا يحثان على أداء الحقوق والواجبات فقط، ولكنهما يخلفان في الإنسان المسلم ليقوم بتنفيذ حدود مسؤولية ما كلف به في الوقت المناسب، فلا يؤجل عمل اليوم إلى الغد دون مبرر شرعي، لأن أمانة المسؤولية تفرض الالتزام بظروف الأداء في الوقت المحدد والمناسب.

والالتزام بأداء التكاليف والواجبات في وقتها لا تهم الإنسان المسلم في حياته الاجتماعية فقط، بل حتى في حياته الفردية تجاه مسؤوليته أمام الله في أداء الفروض والواجبات التي تعود إلى الالتزام بأصول الإسلام.

فمسؤولية المسلم في إقامة الصلاة مثلا، تجعله ملتزما بأدائها على الصفة التي شرعها الله وفي الوقت المحدد لها من الشارع، والشعور بوجود الرقابة الإلاهية على المسلم باستمرار تجعله متمسكا بسلوك المنهج الإسلامي بكامله.

1) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة - باب الجمعة في القرى والمدن، وفي الاستقراض وفي العتق وفي الوصايا، وفي النكاح، وفي الأحكام، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، وأخرجه الدارمي، والترمذي وأحمد.

إن التزام المسلم ـ في إطار تقرير تحمل المسؤولية ـ وانضباطه في أداء الحقوق والواجبات المرتبطة بالعبادة يجعله أكثر انضباطاً في قيامه بواجباته الدنيوية، وفي معاملاته الاجتماعية ضمن نطاق مسؤوليته المتسعة النطاق أو الضيقة الدائرة..

3) **والأمر الثالث** الذي أشارت له الرسالة الملكية في الموضوع كنتيجة للشعور بالمراقبة الإلاهية أن المسؤول المسلم إذا حصل له مانع واقعي في قيامه بأداء الواجبات الملقاة على عاتقه بسبب النسيان أو الخطأ أو أي عائق آخر يقبل شرعاً كعذر فإن استمرار الخشية من الله في وجدانه يحفز على تدارك ما فات وقضاء ما كان يجب أن يؤدى في وقت سابق في حقوق والتزامات.

إن المسؤول المسلم لا يهمل القيام بأي عمل من الأعمال التي تعلقت به، وارتبطت بحياته في نطاق مسؤوليته سواء كان ذلك العمل يتعلق بنفع عام، كمسؤول في مرفق عام، أو كان يتعلق بنفع خاص عندما يعمل الإنسان في قطاع خاص يعود نفعه عليه بصفة مباشرة وعلى مجتمعه الصغير أو الكبير بصفة غير مباشرة.

ومن أجل أن يجني الإنسان ثمار جهده وعمله في إطار مسؤوليته يجب أن يراعى العناصر الآتية :

أ) «تقدير المسؤولية حق قدرها» ويتم ذلك بشعور المسلم بأن ذمته عامرة بأداء واجبات والتزامات تكون حقوقا للغير وتنتفع بها جهات خاصة أو عامة، فردا كانت أو جماعة، وكلما ازداد الشعور بتقدير المسؤولية حق قدرها كلما ازداد عطاء المسؤول وإنتاجه، وازدادت إيجابيات تصرفاته وقلت سلبياتها.

ب) والعنصر الثاني الذي توضحه الرسالة الملكية من أجل الوصول إلى الغاية المرجوة من المسؤولية هو إعطاء المسؤول القدوة الحسنة في نفسه للقريب والبعيد.

إن الالتزام «بالقدوة الحسنة» أصل من أصول الشريعة الإسلامية في السلوك الاجتماعي للإنسان، وهو عبارة عن تعبير عملي وتطبيق واقعي للتوجيهات الإسلامية في الحياة العامة والخاصة.

لقد كان أول إنسان في الإسلام جعل نفسه قدوة حسنة هو الرسول ﷺ، وسجل ذلك الكتاب الكريم في هذه الآية : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة**﴾[2] وكان قبله سيدنا إبراهيم عليه السلام القدوة الحسنة في قومه ﴿**قد كانت لكم إسوة حسنة في إبراهيم والذين معه**﴾.[3]

فالمسؤولية التي كان يتحملها رسول الله ﷺ بتبليغ الرسالة الإسلامية ونشرها بين الناس وتأسيس الأمة المحمدية على قواعد راسخة في الاعتقاد والعمل، كان من مناهجها ومن سبل أداء أمانتها اعتباره ﷺ القدوة الحسنة في الحياة الإسلامية، فما من عمل يأمر به الإسلام إلا ونجده ﷺ أول من يقوم بتطبيقه وتنفيذه، وكان يربي أصحابه وأهله وأمته على التمسك بذلك المنهج، كانت الآية تنزل في أمر من الأمور فتجد الصحابة يطبقونها فور سماعها، وتصبح قاعدة ونظاما في الحياة الفردية والجماعية، وبذلك أصبح الإسلام سلوكا ومنهجا حيا يعيش في المجتمع الإسلامي.

إن واجبات القدوة الحسنة تفرض على المقتدى به أن يكون في تصرفاته وعلاقاته وسلوكه، التطبيق العملي للمنهج الذي يعمل في دائرته وللمسؤولية التي يخدم في نطاقها.

والقدوة الحسنة في المسؤول المسلم تجعل منه حصن الأمان للمواطنين ومصدر الثقة والاطمئنان إليه، وتخلق في من دونه وتحت إشرافه من العاملين طاقة قوية وينبوعا يتفجر حماسة وثقة واعتزازاً وتفانيا في العمل والجهد.

وتضيف الرسالة الملكية أن القدوة الحسنة يجب أن لا تكون ظرفية أو خاصة بحال دون آخر، بل يتعين أن تكون سلوكاً دائما مستمرا تجاه القريب والبعيد.

2) الآية رقم 21 من سورة الأحزاب.
3) الآية رقم 4 من سورة الممتحنة.

ج) والعنصر الثالث الذي تؤسس عليه الرسالة توجيهاتها الإسلامية اقتران القول السديد بالعمل المفيد، ذلك أن المسؤول المسلم الذي يكون القدوة الحسنة يتعين عليه أن يترجم أقواله السديدة بالعمل النافع المفيد المنتج الإيجابي.

ان الإسلام الذي تستمد منه الأمة الإسلامية مسؤولياتها يكون منهج حياة كامل جاهز للتنفيذ والتطبيق، والفرد المسلم الذي يتحمل جزءاً من تلك المسؤولية في مرفق خاص أو عام يجب أن يكون توجيهه القولي مقترنا بالعمل المفيد.

فالإسلام جاء ليبني أمة، ويؤسس دولة، وليحقق معنى الخلافة الإنسانية في الأرض، في أجمل صورة وأقوم منهج، وبناء الأمة بأفرادها وجماعاتها طبقا للنظام الذي جاء به الإسلام يحتم اقتران القول بالعمل، حتى تكون الغلبة للمنهج الإسلامي في الحياة الاجتماعية، ويصبح جزءا من واقع المسلم المسؤول، والأمران معا ـ القول والعمل ـ يتحركان في آن واحد ويتجهان في قناة واحدة.

فإذا كان الإسلام نظام حياة شامل للفرد والجماعة فانه ليس له مكان في الضمير والقلب فقط، ولكنه بجانب ذلك وفي نفس الوقت يظهر في صورة الفعل والحركة والعمل والسلوك حتى لا يقع المسلم تحت قوله تعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾**.[4]

ولهذا حثت الرسالة الملكية المسؤول المسلم على «صرف أكبر حظ من نشاطه في العمل المفيد والقول السديد».

إن الإنسان وهو بشر في طبيعته، مركب من عناصر إيجابية ومن عناصر سلبية، وإذا كان المسلم مطلوبا منه بحكم إيمانه بشريعة الإسلام الاهتمام بتقوية الجانب الإيجابي فيه، ليتجه للبناء والتعمير والإنتاج والإبداع والترقي في السلوك والعمل ليتقوى الجانب الإيماني ويضعف الجانب المقابل، فإن الحالة الأخرى قد تظهر في المجتمع من حين لآخر، لأسباب وعوامل متعددة، فنجد :

I) إهمال المسؤولية بعد حملها، فالمسلم الذي تناط به مهام في مجتمعه، ليحقق فيه المنهج المقرر ويطبق فيه النظام المتخذ لضمان صلاح الفرد والمجتمع، عندما يهمل مسؤوليته ولا يقدرها حق قدرها، ويجعلها مطية لمصالحه لا لمصلحة مجتمعه، فإنه يعرض أمته للخطر الجسيم ويعرض المرفق المسؤول عنه للشلل والعلل، فينتشر فيه الانحلال، ويختل التوازن الذي به تقوم الحياة، وقد حددت الرسالة الملكية هذا الجانب في جملة قصيرة «إن الخطر كل الخطر في إهمال المسؤولية بعد حملها».

II) في بعض الأحيان لا نجد إهمالا في المسؤولية ولكننا نجد المسؤول متطفلا على المسؤولية، لأنه ليس من أهلها.

إن المجتمع الإسلامي لا يضره أن يتفاوت فيه أفراده في الملكات على التحصيل، وفي القدرة على التفكير والتعمق فيه، وفي الحصول على كفايات متعددة الأشكال والأنواع.

إن تعدد الكفاءات واختلاف مظاهرها جزء من الحياة البشرية في الأرض، ولكن الشيء الخطير في النظام الحياتي للجماعة، هو وضع المسؤولية في جهة لا تكون أهلا لها، فوضع الإنسان المناسب في المكان المناسب تبعاً لأهلية كل واحد هو السبيل الأمثل للنهوض بالأمة والقيام بأعباء المسؤولية، وهذا ماركزت عليه رسالة أمير المؤمنين إلى الأمة الإسلامية في الموضوع.

وعندما لا يعتبر هذا العيار الموضوعي في إسناد المسؤولية، ويقوم فقط على الاعتبارات الشخصية أو القرابة أو غيرهما من العوامل الأخرى فإن نتيجة ذلك تظهر في الآثار التالية :

- ضياع الحقوق، لأن المسؤول إذا كان غير مؤهل لما وضع تحت يده من أمانة المسؤولية، فإنه لن يحسن التصرف فيها، ولن يؤدي واجبها، وبالتالي تضيع حقوق المواطن بسبب قصور وعجز المسؤول، وضياع حقوق

4) الآية رقم 2 من سورة الصف.

المواطن ضياع للأمة بكاملها وتأخر في السير بها نحو التقدم والازدهار وتحقيق الأهداف المشروعة المنشودة.

٢ - تعرض المصالح المشروعة للإهمال، فقد يكون المسؤول في مرفق عام أو خاص ليست له علاقة مباشرة مع المواطنين، وإنما تمر قضاياهم إليه بواسطة قنوات تحتية، فإذاكان غير أهل للأمانة التي تحملها في تسيير ما أسند إليه، فإن المصالح المشروعة للأمة التي تمر على يديه، أو تحتاج إلى قراره أو تتوقف على مساندته ستتعرض للإهمال، وقد يكون عذر المسؤول انه لا يمكن أن يعطي أكثر مما عنده أو ينتج أكثر من طاقته. لأن مسؤوليته أكبر منه، ويكون السبب في تعثر مسيرة العمل والإنتاج هو وضع المسؤولية في يد من ليس أهلا لها.

٣ - والنتيجة النهائية لهذا المظهر في توزيع المسؤولية هي اختلال نظام المجتمع، لأن معركة الحياة تتطلب الحركة الإيجابية المنتجة، فالمجتمع الإسلامي بما يقوم عليه من نظام شامل يكفل التقدم في جميع مظاهر الحياة، طبق أصوله وقواعده وأحكامه، لا يقبل الرجوع إلى الوراء في أداء الواجبات، لأن كل اختلال في سير نظام المجتمع لا يعتبر توقفا فحسب، ولكنه يشكل خطوات إلى الخلف، وهو الأمر الذي لا يرضاه المجتمع الإسلامي لنفسه.

٤ - والحالة الرابعة التي يؤدي إليها إسناد المسؤولية لمن ليس أهلا لها تفكك المجتمع وانحلاله، فالمسؤول العاجز عن تحمل أمانة المهام التي وكلت إليه يجب عليه التخلي عنها، وعجز المسؤول قد يكون ناتجا عن ابتعاد تخصصه وتكوينه عن المهام التي كلف بها، وقد تكون كفايته محدودة بينما المسؤولية التي أعطيت له أكثرمن قدرته الذهنية وطاقته الاستيعابية، وفي الحالتين معا سيصاب المجتمع بشلل في حركته، وتفكك في روابطه، وانحلال في سلوكه وتصرفاته.

إن التوجيهات الملكية في الوضوع وهي تتحدث إلى العالم الإسلامي وضعت المعايير الأساسية لتحمل المسؤولية وتوزيع أمانتها.

وبسلوكها، واتباع سبيلها يمكن للأمة الإسلامية أن تتبوأ من جديد مكانتها في التاريخ، وهي التي وضعت شريعتها أصول العلاقات وأخلاق المعاملات البشرية القائمة على العدل والحق والفضيلة.

**من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله**

**إن من تيسير الله لنا في معالجة شؤون الدنيا وشؤون الدين، أن جعل الشريعة الإسلامية التي أكرمنا بها شريعة فطرية في مبادئها، منطقية في أحكامها، قادرة على استيعاب مراحل التطور بأجمعها، مستجيبة لحاجيات المجتمعات على اختلاف مستوياتها وأنواعها، صالحة للتطبيق في كل عصر وجيل، دون حاجة إلى إدخال أي تغيير على مبادئها أو تبديل.**

# الحسن الثاني المثل الكامل
## في الدفاع عن الإسلام وترسيخ قواعده

الأستاذ الشيخ ماء العينين لاراباس

لقد تناولت القلم لأنثر دررا غالية من شمائل ولد الرسول محمد ﷺ أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني، ولأنبه الأجيال الصاعدة من وطننا ومن الأمة الإسلامية بصفة عامة على ما لهذا العظيم من تضحيات جسام، دفاعا عن الحق، وعملا من أجل تدعيم قواعده، وترسيخ مبادئه في نفوس البشرية.

لقد تربى جلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني في كنف أبي الحرية، ورافع مشعلها، والمدافع عن الأفراد والشعوب المضطهدة: جلالة المغفور له محمد الخامس، فمن معين مشربه الصافي تضلع، ومن مدرسته المثالية الخلقية السلفية القرآنية تخرج، فكان ساعد والده الأيمن في الكفاح، فضحى وناهض العدو، وواجه المخاطر الجسام، من أجل حريتنا، ومن أجل استكمال وحدتنا، والحفاظ على كرامتنا، فكان المجاهد الأكبر العظيم، والداعية المثالي المستقيم، والراعي لمصالح الأمة الأمين، والمحافظ على قيمها وأصالتها، والحامل لعبئها وكلها، والمنافح عن شرفها وحرمها، والصائن لمجدها وحرمتها، رغم ما تعاني منه هذه الأمة من محاربة، وما تواجهه من مناهضة؛ من أعدائها المتربصين بها والمستعملين في سبيل غزوها جميع الوسائل بكل ذكاء.

فلقد تفطن، أعزه الله، لهذا الغزو المدمر الذي استعمل له العدو جميع الواجهات، فجرد له العزم، وواجهه بإيمان لا يقهر، وعقيدة لا تتزعزع، وفكر ثاقب، وحنكة سياسية، وتجربة صادقة، فتحدى أعداء الإنسانية، عشاق الحرب والهيمنة، ودعا إلى السلم والإخاء والوحدة والصفاء، مبرزا في نشره للمودة وترسيخه للمحبة بين أفراد البشرية ما يدعو له الدين الحنيف، من نشر السلم، ومناهضة الحرب، واللطف بعباد الله، على مختلف أذواقهم، وعلى تباين مشاربهم، وتشاكس عقائدهم.

وبأسلوب جلالته الحكيم والمرن واللطيف والقوي في نفس الوقت الذي لا يتساهل في التخلي عن العدالة والحق - استطاع في هذا الوقت العصيب والذي جرف كثيرا من الأفراد والجماعات عن المصلحة العامة - أن يكون أعزه الله - محل إجماع من الشعوب وقاداتها، على أنه دام علاه، هو رجل الساعة، الذي بآرائه الصائبة، وبأفكاره الثاقبة، يمكن لهذا العالم الإسلامي أن يتعامل مع غيره من البشرية بالأسلوب الذي يحث عليه ديننا الحنيف، ألا وهو المعاملة بالتي هي أحسن، وحفظ العهد، والوقوف عند السبيل المستقيم.

إن جلالة الملك الحسن الثاني مجدد لدين جده، ومدافع عن القيم الإنسانية، وباعث لنهضة الإسلام في اللون السلفي الجذاب، ذلك اللون الطبيعي الذي لا تغيره الحوادث ولا تقلبات الطبيعة، ولما له من أصالة وانسجام مع تفاعلات الحياة، ولما يمتاز به المنهج المحمدي من مرونة وتوافق كامل وشامل مع طبيعة البشرية ولما حبى الله به المنهاج الإسلامي الذي يدعو له سيدنا من تجاوب مع نواميس الحياة، فجند سيدنا، دام علاه، ما له من مواهب وطاقات فكرية خلاقة لإبراز مكانة الإسلام، وإفهام الذين اشتبهت عليهم حقيقته من جراء ما كتب عنه مناهضوه الذين ألصقوا بالرسالة الإسلامية ما الإسلام براء منه، ليتأخذ عنه الكل نظرة قاتمة، فاستطاع أن يبلغ محاسن الإسلام، ويعيد مكانته في نفوس الذين كانوا يجهلون واقعه الإنساني...

ولقد استطاع أن يقنع ملوك ورؤساء الكثير من الدول الإسلامية والعربية بجدوى الالتحام، ومردودية التآخي، فكان لتوجيهاته الصدى المحمود في النفوس، وأعطى للدعوة إلى القيم المثالية التي يدعو لها الإسلام بعدها ووزنها اللائقين.

إن جلالة الملك الحسن الثاني داعية إسلامي ورسول محبة وسلام، ورائد مجد وكمال، وشمس هداية، فمنهاجه في هذه الحياة نور يستضيء به الفكر للسبيل المستقيم، وحصن منيع يحمي العقيدة مما يتسرب للنفوس من أوهام تحيد بها عن الحياة السليمة.

لقد من الله علينا بقيادة جلالته الرشيدة، فكل جهده كرسه لإبقاء الحق منتصرا على الباطل في جميع المجالات.

فلا يرضى لنا بالتخلف الفكري والعملي، إذ يدعونا إلى العمل البناء والجد والاجتهاد، جاعلا نصب عينيه الكريمتين تركيز العقيدة الإسلامية في نفوسنا، وتعميق ما تدعو له في أجيالنا الصاعدة.

ويعمل ـ أعزه الله ـ على نشر الإسلام السلفي، المبني في شكله وجوهره على الكتاب والسنة، وتثبيت دعائمه في المعمور كافة، وفي بلدنا هذا بصفة أخص.

فمن دور كلامه الغالية : (وسيبقى[1] بلدنا بحول الله وقوته ذلك البلد المسلم الأصيل المتشبث بدينه القويم، المحافظ على أركانه وواجباته، المدافع عن مقدساته وحرماته، المتحلي بمكارمه وفضائله، قائما على تثبيت دعائمه وصيانة معالمه وإعلاء كلمته التي قال فيها جل جلاله : ﴿**وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم**﴾.

هذا ما يهدف له جلالة الملك الذي نحتفي بجلوس جلالته على عرش أسلافه الميامين حول هذا البلد الأمين.

ففي الحديث ما معناه «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم».

ورجاؤنا أن يكون الشعب المغربي من تلك الطائفة المدافعة عن الإسلام بقيادة حامي حماه والساهر على أمنه وكرامته جلالة الملك الحسن الثاني، لا زال محفوظا بسر السبع المثاني، قرير العين بولي العهد الأمجد سمو الأمير مولاي سيدي محمد، وبصنوه الرشيد سمو الأمير مولاي رشيد، وبكافة أفراد أسرته الكريمة، إنه مجيب الدعوات، وأعاد هذا العيد على جلالته مرات تلو مرات، وهو يرفل في ثوب العز والنصر والتمكين، محققا ما يصبو إليه من جمع كلمة العرب والمسلمين، ونشر السلم بين أفراد الإنسانية أجمعين.

إنه ولي التوفيق.

---

1) من رسالة وجهها جلالة الملك إلى الحجاج المغاربة تلاها عليهم سيادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري في يوم الخميس 1 غشت 1985م موافق 13 ذي القعدة 1405 هـ.

# العرش العلويّ رمز الاستقرار والسّيادة

الأستاذ مقدم بوزيان

## 1 ـ مقدمة :

إن الاستقرار والسيادة بالنسبة لكل شعب وكل أمة، هما الركيزتان الأساسيتان لبناء هيكل الدولة، وضمان استمرارها وتطورها وازدهارها اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا.

وأية دولة من دول المعمور، لم تتمتع بالاستقرار في بلدها، ولم تمارس سيادتها ممارسة كاملة غير منقوصة في وطنها، لهي دولة جديرة بأن يرثى لحالها، باعتبارها فاقدة لأهم مقوم من مقوماتها الأساسية، وأركانها المعروفة قانونيا وهي : الشعب والأرض والسيادة.

ومن هنا كان الاستقرار والسيادة هي الغاية المنشودة التي تتوخاها وتعمل من أجلها كل الأمم، لإسعاد مواطنيها ورعاياها على أساس أنهما أمران ضروريان متلازمان، أحدهما مكمل للآخر، حيث لا استقرار بلا سيادة، ولا سيادة بلا استقرار.

## 2 ـ مظاهر الاستقرار والسيادة في عهد القيادة الحسنية الرشيدة :

وتبدو نتائج هذا الاستقرار وهذه السيادة وهذه القيادة الحسنية الرشيدة في مظاهر متعددة، ومجالات مختلفة، وميادين عامة، يحسها المواطن المغربي في أمور حياته، ديموقراطيا واقتصاديا واجتماعيا ومعنويا، في الداخل والخارج، ما دام أنه لا ستقرار ولا سيادة ولا قيادة رشيدة بحق، إلا مع توفير الحاجيات الضرورية للمواطن، الحاجيات التي من شأنها يشعر فعلا بالأمن والأمان والاطمئنان والسلام، ماديا ومعنويا، نفسيا وواقعيا، وتلك هي الغاية الجوهرية المتوخاة شرعا من عهد البيعة بين الراعي والرعية. والتي كانت وما تزال المعبر أصدق تعبير عن هذا التلاحم وهذا الوفاء، وهذا الولاء الصادق المتزايد بين القمة والقاعدة، بين العرش والشعب.

والمغرب كبلد عربي مسلم يمتاز بموقعه الإستراتيجي كهمزة وصل بين الشرق والغرب من جهة، وبين الشمال والجنوب من جهة أخرى، لم يحظ بما حظي به من استقرار سياسي داخلي ثابت، وسيادة محترمة لها مكانتها التاريخية العظيمة في الداخل والخارج عبر القرون والعصور، إلا لكونه يتوفر على «قيادة» رشيدة وحكيمة، كانت وما تزال تعمل جاهدة من أجل المحافظة على رفعة المغرب وسموه وعلو مكانته، وتشريف سمعته داخليا وخارجيا... تلك القيادة السديدة الحكيمة القائمة على أسس إنسانية نبيلة، والمبنية على أصول تعاليم الإسلام، وتشريعاته السمحة النيرة الرامية إلى نشر الأمان ومراعاة حقوق المواطن وكرامته....

وترجع أسباب وجود هذه القيادة الإيجابية الرشيدة التي ينفرد بها المغرب والتي كانت السبب في الاستقرار السياسي، والسيادة المحترمة دوليا لدرجة أنه محسود عليها أحيانا من طرف البعض، إلى جذور عميقة وأصيلة في تاريخنا المغربي العام، يمكن إرجاعها إلى فجر التاريخ حين استقل المغرب سياسيا لا روحيا عن الخلاف في المشرق، وحين بايع المغاربة أول ملك عليهم رضوه واختاروه لتسيير دفة قيادتهم تسييرا قياديا رشيدا، وهو المولى إدريس الأزهر السبط الخامس لرسول الله محمد ﷺ.

ثم ازدادت أواصر الولاء والمحبة والطاعة والصدق والوفاء تباعا بين المغاربة كرعايا، وملوكهم، وخاصة مع بداية الدولة العلوية الشريفة، وفي أيام المحنة الاستعمارية في عهد المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه إلى أن بلغ هذا الالتحام أوجه وذروته في عصرنا الحالي ـ عصر جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله السبط الخامس والثلاثين للرسول الله ﷺ، والذي يعتبر بحق رمز الاستقلال والسيادة في بلدنا بسبب ما أوتي من الحكمة وبعد النظر في إحكام القيادة الرشيدة، التي تقي رعاياه الأوفياء كل الأخطار، وتكفل لهم كل الضروريات والحاجيات والتحسينات والكماليات.

والسر في كون العرش العلوي المجيد هو دائما رمز الاستقرار والسيادة، ورمز القيادة الرشيدة لهذا البلد الأمين، وخاصة في عهد جلالة الملك الحسن الثاني المنصور بالله يرجع إلى شيئين أساسيين هما :

أ ـ البيعة.

ب ـ تطور النظام الملكي الديموقراطي الدستوري.

فبالنسبة لمسألة البيعة، يلاحظ أن كلا من الراعي والرعية ملتزمان ومتمسكان بتعاليم الشرع الإسلامي في أمر البيعة.

بخصوص ما للراعي من حق الطاعة والولاء والوفاء على رعيته، وما للرعية من حق الدفاع على مصالحها الدينية والدنيوية من طرف الراعي.

أما بالنسبة للأساس الثاني الخاص بتطور النظام الملكي المغربي تمشيا مع الأنظمة الديموقراطية الحديثة، فالكل يعلم أن الملكية المغربية الحديثة تهتم بالجوهر الذي هو الشعب ومصلحة الأمة، أكثر مما تهتم بالشكل أو الاسم، وهذا ما يقره الإسلام الذي لم يهتم باسم النظام بقدر ما يهتم بأسس العدل والشورى والاحترام المتبادل بين الحاكم والمحكومين.

وفي هذين الأساسين (البيعة ـ الملكية العادلة) يكمن السر في كون العرش المغربي رمز الاستقرار والسيادة.

ويمكن إجمال مظاهر هذا الاستقرار ونتائج هذه السيادة وفوائد القيادة الحسنية الرشيدة في الأمور التالية الواقعية المعاشة :

**أولا ـ الاستقرار الديموقراطي :**

إن الملكية في المغرب عامة وفي عهد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله خاصة، لم تكن قط ملكية مطلقة، بل كانت دائما ملكية مقيدة بالشرع والقانون والعدل والشورى.

إلى أن تطورت بشكل معاصر أكثر في عهد الحسن الثاني الزاهر الذي أقر الدستور في البلاد، حتى يتسنى للمواطنين المشاركة لممارسة حقهم الديموقراطي النيابي التشريعي.

**ثانيا ـ الاستقرار الاجتماعي :**

وفي هذا المجال الخاص بالاستقرار الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية يحس المواطن المغربي أنه يتمتع بكل حقوقه الاجتماعية نتيجة ما أنشيء في عهد جلالته من مؤسسات تعليمية، ونتيجة ما أدخل على مناهج التعليم من تغييرات وتعديلات حتى أصبحت العملية التعليمية مسألة إجبارية.

كما أصبح المواطن المغربي يشعر بممارسته لحقه في ميدان الصحة والعلاج والوقاية، نتيجة ما يبذل من جهود متواصلة في هذا الصدد من بناء للمصحات والمستشفيات التي تغطي كامل تراب المملكة، ونتيجة تخريج الأطر الكافية لهذا القطاع الصحي.

ونفس الشيء يلاحظ في مجال القضاء وتقريب الإدارة من المواطن، مع الاهتمام المتواصل بقطاع الشباب والشغل، وحق التوظيف ومراعاة أصول الدين والمذهب، وتنشئة الأسرة المغربية على أسس الأصالة والتقاليد والأعراف النبيلة، الشيء الذي جعل المواطن يلمس بحق نوعا من الاستقرار الاجتماعي في جو يسوده الأمن في هذا العهد الحسني الزاهر.

### ثالثا ـ الاستقرار الاقتصادي ومحاولة الاكتفاء الذاتي في عهد جلالة الملك الحسن الثاني المؤيد بالله :

إن الجهود التي تبذل من أجل الازدهار الاقتصادي، هي جهود جبارة لا يمكن الإحاطة بها في هذا العرض، لذا فإنني سأكتفي فقط بذكر خطوطها العريضة التي يتضح منها أن المغرب في عهد جلالة الملك أعزه الله عازم على تحقيق الاكتفاء الذاتي ولو جزئيا، ما دام أن الاكتفاء الذاتي الكلي أمر يصعب تحقيقه حتى بالنسبة للدول المتقدمة.

إلا أن طموحات أمير المومنين كعادته في جميع المجالات، هي طموحات جعلت كل مستحيل ممكنا، إذا خلصت النيات وتوطدت العزائم.

ففي المجال الفلاحي يلاحظ أن سياسة مليون هكتار أخذت تعطي ثمارها بفضل سياسة بناء السدود وسياسة قانون الاستثمار، وتأسيس التعاونيات الفلاحية، والتشجيع على الزراعة الصناعية، وما يدخل في هذا المجال من تسويق وترويج وتخطيط.

وفي الميدان الصناعي هناك جهود من أجل تطوير الصناعة التقليدية، مع الاهتمام المتزايد بالصناعة الثقيلة، ويبدو هذا جليا في العناية المولوية الكبرى بالتعليم التقني والمهني والتكنولوجي بجميع شعبه وفروعه، من أجل ازدهار هذا القطاع لكي يصبح المغرب ورشة صناعية ... الدول المصنعة الكبرى.

أما في المجال التجاري فهناك اهتمام خاص من جلالته يتعلق بالتسويق والتصدير والتجارة الداخلية والخارجية، سواء منها ما يخص دول حوض المتوسط، أو ما يخص السوق الأوربية المشتركة أو ما يخص الأسواق الخارجية الأخرى في أمريكا وغيرها.

### رابعا ـ قضية وحدتنا الترابية في السياسة الحسنية الرشيدة :

إن الجهود الجبارة التي بذلها أمير المومنين في كل المجالات المذكورة لم تنسه قط تلك القضية الوطنية الجوهرية الخاصة باستكمال وحدتنا الترابية، واسترجاع الجيوب المغربية التي ما تزال مستعمرة.

### خامسا ـ جهود جلالته في توحيد الصف العربي والإسلامي :

إن ما يحصل في المغرب من لقاءات ومؤتمرات على الصعيدين العربي والإسلامي خير دليل على أن الشغل الشاغل لجلالته هو تنقية الأجواء بين الإخوة الأشقاء من أجل المزيد من الاتحاد وجمع الشمل مع نبذ الخلافات والنزاعات الهامشية التافهة التي تخدم أولا وأخيرا العدو الصهيوني.

### سادسا ـ مكانة المغرب وسياسته في الوزن الدولي في عهد جلالته :

بفضل القيادة السياسية الدولية الرشيدة والحكيمة التي عرف بها جلالته حفظه الله يلاحظ الجميع أن للمغرب مكانة دولية، وخاصة لدى الدول العظمى ويظهر هذا في مقعد المغرب البارز في هيئة الأمم المتحدة والوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية، مما يجعل المغرب بحق يتمتع بسيادة محترمة عالمية في عهد جلالته أدام الله عزه ونصره بدوام ولاء رعاياه وتعلقهم بأهداب عرشه المنيف.

# عرش وطد الخلود وشعب صان العهود

الأستاذ المهدي القاسمي

يقول الله تعالى :

﴿وذكر فإن الذكر تنفع المومنين﴾.

والذكريات من طبيعة البشر بها يتعظ العقلاء ليروا ما فعله السابقون سحابة حياتهم، وبذلك تتقوى الصلة بمن مضى ويزداد حب الإنسان لنبعه الذي استخلف على أديم الأرض فأحسن الاستخلاف وأبرأ ساحته من الإسفاف، وليحكم الحاضرون على أنفسهم من خلال المقارنة مع ما كان عليه الحماة من جهاد متواصل، وما أدوه من رسالة إنسانية، وليشمروا وهم فوق أرضية صلبة لأداء الواجب الكامل بصدور منشرحة وألباب متفتحة.

وإن الشعب المغربي الكريم أعطى للذكريات ما لم توفره أمة من الأمم على وجه الغبراء لهذا السار، فأعياده الدينية والوطنية يهفو إليها ويشتاق، بقلب مفعم بكل ما تحمله الأفئدة الواعية لمغربها الذي تطمئن إليه عند مكرهها ومنشطها، والمغرب له وفر زاخر لا يباريه أحد في هذا الركاب، لأن الخالق عز وجل حباه بأردية من التوفيق والعناية المتوالية المتواصلة عبر الحقب، منذ أن شع على أديمه نور الإسلام، وإن احتفال وفرح هذا الشعب المترف فكرا وعطاء وحضارة بذكرى عيد العرش المجيد، عيد ذكرى جلوس أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه الكرام تلك الذكرى التي تصادف السنة السادسة والعشرين لتربع تاج الملوك على أشرف عرش عرفه الزمان والمكان والإنسان، فأنعم بذكرى تعيد لنا شريط الذكريات الطويل الذي تتملى بصورها الباهية الزاهية في أثوابها المتبخترة ومواكبها المهابة المجللة، ذكرى نسقي منها عطر الفكر الذي لا يتسنه معينه ولا يتغير سلسبيله، ذكرى شعب بعرش سخر من تقلبات الدهر ساعة طوفانه العاتي على كل ما فوق الكون من جبال وآكام، ذكرى الانتصارات اللانهائية الجبارة المعطاءة والتي تجسد لنا أمجاد هذه الدولة الشريفة العلوية وتأسيها ﴿**كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها**﴾.

لقد تأسست هذه الدولة وسط خضم من الإمارات المتناثرة في ربوع المغرب، فأعطت الثمار والظل والرائحة الطيبة الزكية، فكيف قيل لهذه الإمارات بأسرها : كفى، فما كان لها إلا أن قدمت بيعتها وولاءها للدولة العلوية الشريفة التي قامت في هذه الأرض المباركة الطيبة مع أن

أرباب هذه الإمارات ليسوا من المفسدين وإنما تجشموا رايات الجهاد والدفاع عن حوزة الوطن والإسلام، والجواب يكون عدة مرات بالتأكيد حتى يسمعه الصم البكم الذين لا يعقلون، إنها حكاية شعب غني لا يرضى بالثرى وإنما بالثريا مقاما ومكنا فاختار، فكيف لا وهو شعب لا ينخدع،ألزم نفسه بأن يبوئها ليس المكان والإنسان المتوسط أو المستحسن وإنما ينعم عليها بالأحسن، فانتصر وجاهد وبايع الدولة العلوية الشريفة التي جمع الله فيها ما لم يجمع في غيرها ﴿**وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾، ﴿**يهدي الله لنوره من يشاء**﴾، ﴿**ويضرب الله الأمثال للناس**﴾.

وهذا ديدانه وفكره وسلوكه.

إنها قصة شعب يعجم عيدان العوارض، ولا يندفع متسرعا في الحكم بطيش، وتأكيدا للعظمة ما نلمسه في إدراكه لجميع المذاهب من : حرورية وقدرية، وجهمية، ومرجئة، ورافضة، وجبرية، وحنبلية، وحنفية، وشافعية، ولكن هذا الشعب قد اختار كما اختار، فقد اختار أن يكون مالكيا في مذهبيته، وجنيديا في طريقته، وأشعريا في عقيدته، ثم اختار أن يكون علويا في دولته، وبذلك حاز المجد من أطرافه، ﴿**فمن يعمل من الصالحات وهو مومن، فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون**﴾، ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾، فأغدق الله تعالى على هذه الأمة جزاء معتقدها ومقابل قيامها وجهادها، فاستحقت عنده الحسنى والزيادة فكساها حلة بعد حلة، وأسبغ عليها نعمة تلو نعمة، فقادها الأبطال الذين لا يغمزون ولا تأخذهم في الله لومة لائم.. فمن المولى الرشيد إلى المولى إسماعيل القوي العتيد إلى سيدي محمد بن عبد الله المتودد، ناهيك من سيدنا الحسن الأول وحفيده أبي النهضة الأولى وموقظ الأمة من سباتها ورمسها محمد الخامس فقيد العروبة والإسلام الذي ضرب أروع الأمثلة في الصبر والجهاد حتى أعلى في العالمين شأن البلاد والعباد.

فقد كتب الله له العزة في الحياة والوفاة لأنه عزز جانب الأمة وأكرمها بتنشئة وتربية وتهييء وتدريب تاج الملوك وحجة جده سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، إنه : جلالة الملك الحسن الثاني الذي أحسن الله به إلى هذه الأمة فتحسنت به أحوالها، ورفع هذا الملك رأسها، وأمن خوفها، وبدد كل صعابها، فعمر وشيد وأحكم وسدد.. إن المغرب حين يشيد بهذه الذكرى التي تصادف السنة السادسة والعشرين لجلوس أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه المنعمين محتفلا بهذه الذكرى ليكون معتزا أيما اعتزاز، بما خلده هذا الملك في جميع الواجهات، مبنى ومعنى، فهناك الواجهة الثقافية التي ينعكس عليها علو ما وصل إليه هذا المغرب من أوج العلم والعرفان، وآلاف الأفواج من المثقفين والعلماء في كل الفنون والعلوم التي تجعل هذا الوطن في مصاف الأمم الراقية التي تنشد الحضارة بجامعاتها ومن أبوابها وبأنجع وسائلها، والتي هي من أكبر الازدهار والعيش الرغيد، وأكبر دليل على الديموقراطية وأركانها ووسائلها الحقة، ولا يعزب عن الأذهان المجال الاقتصادي الذي سار فيه جلالة الملك الحسن الثاني موجها وداعيا وملهما برأيه السديد قائلا : (إننا لا نفقر الغني ولا نهمل الضعيف بل نساعد الكل ونأخذ بيد الجميع).

وبهذا جاء الإسلام ولم يكذب أهله ولم يخرجهم إلى فكر متاهة من السراب أو دعاية خراب، كأولائك الذين ليس لهم قوام، ولم يثبتوا على حال، فتارة ينادون بالاشتراكية الخادعة القاتلة الجائعة، ومرة أخرى ينادون بالشعارات الصناعية الهرائية الديماغوجية، وطورا يتزعمون الإصلاحات الزراعية الطائشة التي لا أساس لها من العقلانية.

أما قافلة المغرب بقيادة هذا الملك الحكيم المغوار فقد ذهبت على بركة الله في بناء السدود التقوية على كل نهر، وبين كل أكمة، ليصبح الوطن بحول الله كله جنة خضراء ناطقة، ولا سيما إذا رفع الله حجره وأزال من بلادنا جفافه.

إن اللسان والقلم يجم من اللحظة الأولى حين يقف أمام جدران هذا البنيان الشامخ الذي يطاول أعنة السماوات،

ولا يقف عند حد من الحدود احتياطا وشمولا وإدراكا واستدراكا، فعالمية هذا الملك الموفق المستظل تحت لواء قوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾. جلية في الآفاق بارزة يظهرها تأسيس الأكاديمية المغربية التي تضم رجالا من كل القارات، إنها فكرة شمس تضيء للعالم دياجيره، وتعرفه بقيمته، وسلم حياة القسط لتسعد البشرية وتحيى حياة الإيخاء والتآزر والتآلف بدل التطاحن والبغي والاعتداء والطغيان.

إن فكرة الأكاديمية فكرة حضارة ووئام وسلام من أكبر إمام، هو جلالة الملك الحسن الثاني الذي جاور قلبه كل القلوب، فقدم للأمة المغربية أنجع علاجها، ووحد صفوفها ومحق كل خلافها، إن المغرب ليشمخ بهذا الطبيب الذي أسس في مملكته الشريفة المجالس العلمية التي تؤدي رسالتها على تقوى من الله ورضوان، مستنيرة بالتوجيهات السامية لجلالته، لأنه هو الساهر الأمين على حماية الدين والدنيا، وحماية العقيدة والمذهب المالكي الذي ظل موحدا لقوة المغاربة عبر مسار التاريخ، والذي يرجع الفضل إليه في القضاء على الخلافات ونشر نار المذهبية في المغرب.

والمذهب المالكي سني، والمذهب السني كما يقول جلالة الملك الحسن الثاني هو الإسلام الحقيقي، كما أن المذهب المالكي له تاريخه الطويل مع المغاربة منذ صدر الإسلام الأول، فهو عهدة في عنق المغاربة يعملون به في ديارهم ولا يبغون به بديلا، فكانت حمايته أمانة في يد جميع الملوك والدول التي تعاقبت على هذا الوطن السعيد الذي هو قلعة الإسلام ذي المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها.

وقد وفر الله لهذا الملك الحسن الثاني قبس النصر الذي انعقدت ألويته على أجداده الكرام، يقودهم على الهدى كرم الله وجهه.

فماذا يفكر العقلاء، وماذا يكتب الأدباء، وكيف ينتصر أبطال الحرب وأهل الدهاء فيما ترمز إليه المسيرة الخضراء لتحرير الصحراء في مخطط فكرها، أم في سريتها وتكتمها، وفي الإشارة إلى عالميتها وسلميتها وتجاوبها مع رائدها ومبدعها، في إقدامها عند الأمر وإحجامها، وإيقافها، وامتثالها عند الأمر والنهي، إن هذا سر فمن سعى تحليله حاول العبث، إنها طاقة ربانية تسامت عن التأطير والمادية حتى صعدت إلى منتهى السدرة التي وطئها الرسول عليه السلام ساعة أن ذهب ليأتي من عند الله بالنصر المبين والفتح المكين، وليس للمغرب فحسب وإنما للأمة العربية والإسلامية جمعاء، لذلك نرى هذه الدول لما ادلهم سوادها وأحاطت بها ظلمات لياليها وعباب أمواجها قيل من لها ؟ فقام سليل المصطفى فقلدوه وشاحها وألقوا عليه أمانتها وأعباءها فتحمل رسالة لجنة القدس الشريف أولى القبلتين وثالث الحرمين، إنها حظوة عظمى، إنها ربط وارتباط لا ينالها كل من حضر، وإنما اختير لها من هو أحق بها وأهلها، سبط الرسول المختار، إنه نهج في محله، وما زلنا والحمد لله بخير ما دامت الأمة الإسلامية لها هذا الشعور، والإحساس حتى وفقها الله لوضع الأشياء في محلها، وإعطاء الألوية إلى صاحبها... ﴿**ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾.

فهنيئا لقائد المسيرة المظفرة جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله بعيد عرشه المجيد عيد النماء والازدهار، عيد المجد والانبعاث، عيد توحيد التراب الوطني، عيد الخير والبركات.

وهنيئا للشعب المغربي بهذا العرش العلوي المجيد الذي يقوده من نصر إلى نصر.

حفظ الله جلالة الملك الحسن الثاني في إيمانه ودينه، وأحاطه بعنايته وألطافه وتوفيقه، وأقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل المحبوب سيدي محمد وصنوه المولى الرشيد، وسائر الأسرة المالكة الشريفة، وجدد الله هذا العيد بتجدد الأيام صيانة للأنام.

# برور المولى سليمان بالعلم والعلماء
# وعلاقة ذلك بنسخة من تفسير الجلالين

الاستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

يعد المولى سليمان ـ تغمده الله برحمته[1] ـ من أشهر ملوك الدولة العلوية، وأقدرهم على تثبيت أصول العلم الديني في بلاد المغرب، ويرجع ذلك إلى تكوينته وتربيته، فهو قد نشأ نشأة دينية ساعدته على إنماء مواهبه، وعلى توجيهها التوجيه اللائق بها.

إنه كان مثال الحزم والطاعة منذ طفولته، تنبأ شيوخه ومربوه بمستقبله، ورأوا فيه من الاستعداد للدراسة ما جعلهم يحرصون على إفادته وتزويده بكل ما لديهم من فنون، وقد فطن والده سيدي محمد بن عبد الله لهذه الرغبة المحتدمة في نفسه، فهيأ له من الفقهاء أقدرهم علماً، وأحسنهم سلوكاً، ليكون صورة منهم، وليقتدي بأخلاقهم وأحوالهم، فلم يخب ظنه فيه، فكان مثالاً للعالم العامل بعلمه: الشيء الذي جعله حين تولي الحكم لا ينسى أصول هذه التربية، ولا يحيد عن أبعادها الخلقية، فكان إماماً عادلاً، وصوفياً ورعاً، وعالماً منتجاً، يجمع بين التحقيق والتدقيق، لا يهمل مجالس العلم ولا يغفل عنها، ولا تلهيه مشاكل الحكم ومشاغله عن متابعة المسائل العلمية، ومواكبة الاهتمامات الفقهية والصوفية.

ولعل هذه الصفات هي التي دفعت الفقيه السيد محمد بن أحمد اكنسوس : أحد مؤرخي الدولة العلوية في كتابه الجيش العرمرم؛ أن يجعل راية المولى سليمان خضراء غالبة باعتبار كون الخضرة رمزاً للخير والصلاح.

وبالفعل فإن هذا الرمز كان موافقا لأخلاق المولى سليمان، فهو الإمام الصالح الذي كان يحرص أتم الحرص على تنزيه العقيدة من الشوائب، وعلى تقويم سلوك الأفراد والجماعات، وعلى تشجيع الأخوة الإسلامية، وتقوية الروابط بين المسلمين في مختلف الأصقاع، وكان لا يألو جهداً في تنشيط الحركة العلمية وذلك بما يبذله من الإعانات المتواصلة للمدرسين والفقهاء والأدباء، كل على قدر مستواه، خصوصاً منهم من اشتهر بقوة الفهم وحدة الذكاء.

وقد اتفق على نعته بهذه الأوصاف جميع المؤرخين الذين أرخوا له، سواء في عصره كالزياني وأكنسوس السابق الذكر، أو غير عصره من الذين جاءوا من بعد ذلك كالناصري وابن زيدان وغيرهما.

---

1) بويع للسلطان المولى سليمان بن محمد بن عبد الله يوم السبت سابع عشر رجب عام 1206 هـ موافق 11 يبراير 1792م وتوفي في رابع عشر ربيع الأول عام 1238 هـ موافق 29 نونبر عام 1822م.

ومما ذاع في سيرته أنه كان يقترح على بعض العلماء والفقهاء أن يؤلفوا في الحديث والفقه والقراءات، وأنه كان يعنى بمختصر الإمام خليل وبشروحه، خصوصاً منها تلك الشروح التي أباح والده رحمه الله للفقهاء أن يدرسوه بها، وهي شرح برهام الكبير، والمواق، والحطاب، والشيخ علي الأجهوري، والخرشي الكبير، وقد بلغ به الإعجاب بهذا الشرح حداً دفعه إلى أن يضيف إليه حاشية، يوجد الجزء الأول منها بالخزانة الحسنية تحت رقم 1323[2].

ومن المعلوم أن مختصر خليل كان من بين الكتب التي لا مناص لمن يتعاطى الفقه والقضاء في المغرب من حفظها، وفهمها، واستظهار أحكامها، وتحديد رموزها، وقد خصصت حصة يومية بجامع القرويين لسرده واستظهار بعض أجزائه، ويتقاضى الذين يسردونها أجراً على عملهم ومكافأة على حفظهم. ولم يكن المراد من هذا الاستظهار مجرد الحفظ الببغائي، وإنما كان الهدف من ذلك تيسير الفرصة لذيوعه وشيوعه والاستفادة من ذوي المواهب الذين يقدرون على شرحه وضبط قواعده وإرجاع أحكامه إلى أصولها من الكتاب والسنة ومصادر الاجتهاد.

وقد حاول الشيخ خليل أثناء وضع مختصره هذا أن يربط بعض الأقوال بمن صدرت عنهم، وأن يضيفها إلى أصحابها، ووضع لذلك رموزاً في أول كتابه لتصبح واضحة متى أشار إليها، ويمكننا أن نوجز بعض تلك الرموز فيما يأتي :

**أولاً** - إذا استعمل ضميراً غائباً مؤنثاً فالقصد منه كتاب المدونة لسحنون.

**ثانياً** - إذا استعمل مادة التأويل فالغرض منها اختلاف شراح المدونة في فهمها.

**ثالثاً** - إذا استعمل مادة الاختيار فذلك إشارة إلى اللخمي.

**رابعاً** - إذا استعمل مادة الترجيح فالمراد بها ربط الكلام بابن يونس.

**خامساً** - إذا استعمل مادة الظهور فالمراد بها ابن رشد.

**سادساً** - إذا استعمل مادة القول فالمراد بها الإمام المازري.

**سابعاً** - إذا استعمل كلمة خلاف فالمراد بها الاختلاف في التشهير.

**ثامناً** - إذا لم يطلع المؤلف على أرجحية مخصوصة فإنه يقول «وفي ذلك قولان أو أكثر».

**تاسعاً** - إذا وقع الاستظهار أو الاستحسان من غير السابقين فإنه يستعمل لفظة صححه أو استحسنه.

**عاشراً** - إذا كان الغرض هو الإشعار بتردد المتأخرين في نقل حكم من الأحكام أو في الإشعار بأن المتقدمين لم يرد عنهم نص في الموضوع فإنه يستعمل كلمة تردد.

وهكذا نلاحظ أن هذه الإشارات التي أوضحها الشيخ خليل رحمه الله في مختصره كانت تهدف إلى إعطاء نظرة كاملة على الصورة التأليفية لهذا الكتاب، وتوضح أنه لم يؤلف لوضع الأحكام وللإشارة إليها مجردة إشارات غير منسوبة لقائليها، وإنما كان الغرض هو تعويد المتعلم على الحكم من جهة، وعلى عدم إهمال القائلين به من جهة أخرى.

وقد علم الفقهاء أن المولى سليمان كان حريصاً على نشر هذا المختصر والاحتفاء به، فأذاعوه بين طلبتهم وطالباتهم،

ومن الأخبار الطريفة في هذا الموضوع، الدالة على عناية المغاربة في هذه الحقبة بهذا الكتاب، أن ختماً له

2) وصف هذا الجزء المرحوم عبد القادر الصحراوي في بحث له عن المولى سليمان بمجلة دعوة الحق بالعدد الرابع من السنة العاشرة مارس 1967.

وقع في مجلسين في وقت واحد، ذلك أن الشيخ المختار ابن أبي بكر الكنتي وزوجته السيدة الفاضلة عائشة بنت المختار بن الأمين الأزرق المتوفاة سنة 1224 هـ قد احتفل كل منهما في حلقته المخصصة له بختم هذا الكتاب، فقد كان هذا الزوجان العالمان يحرصان على إعداد دروسهما معاً، وعلى تلقين ما يعدان لطلبتهما، كل في مجلس حافل خاص به. هو للطلبة الذكور، وهي للطلبة الإناث، وقد ألف ولدهما كتاباً في ذكر فضائلهما سماه : «الطريفة والتالدة، في مناقب الشيخ الوالد والوالدة» توجد منه نسخة بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم 2294 ك.

وعلى كل حال فإن هذا النشاط العلمي في عهد المولى سليمان لم ينحصر في ميدان الفقه فقط، بل توجه أيضاً إلى علم التفسير وعلم القراءات وعلم الحديث، ونظرة في كتب التاريخ توضح لنا مدى اعتنائه بهذه العلوم، ومدى تقديره للعلماء الذين كانوا بها مهتمين، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر بعض شيوخه الذين أغنوا الخزانة المغربية بمؤلفاتهم القيمة، مثل شيخ الجماعة سيدي التاودي ابن سودة، والفقيه أبي محمد عبد القادر ابن شقرون، والعالم المقرئ السيد محمد بن عبد السلام الفاسي.

ومن محاسن أخلاق السلطان المولى سليمان، أنه كان باراً بشيوخه بروراً لا يعرف قيمته إلا من وهبه الله تلك الروح الطيبة المشرقة التي تقدر العلم وتعرف مزية الاعتناء بأهله. وسنكتفي ببعض مظاهر البرور بهؤلاء الشيوخ الذين تقدمت أسماؤهم، فهو الذي بني ضريح سيدي التاودي رحمه الله، وهو الذي عاد شيخه ابن شقرون أثناء مرضه، وحضر جنازته حين وفاته، وشارك بيده في حشره داخل قبره بالضريح الإدريسي[3] وهو الذي ألف احتفاء بشيخه السيد محمد بن عبد السلام الفاسي كتابه القيم : «عناية أولي المجد، بذكر آل الفاسي ابن الجد» وهو كتاب عميق المضمون، حسن الأسلوب دقيق الوصف، تحدث فيه عن أصول الأسرة الفاسية، وعن أعلامهم بالأندلس كأبي القاسم ابن الجد، وعن رحلتهم إلى عدوة المغرب، وعن جهادهم في مواصلة البحث العلمي، وفي مقاومة الاحتلال الأجنبي، إلى أن وصل إلى ترجمة شيخه محمد بن عبد السلام، فاحتفى بذكره وتقديره، وتحدث عن مراحل تكوينه العلمي وعن هجرته إلى بعض المدن والقرى المغربية ليتمكن من القراءات القرآنية تمكنا يحميه من الخطأ، حتى إذا اطمأن إلى استيعاب القرآن بقراءاته، وعلم أنه قادر على تبليغه وتعليمه، رجع إلى مدينة فاس، فملأ مجالسها ذكراً وعلماً، وقدم لطلبته ما يتوخونه من أنواع المعارف، وقد ذكر المولى سليمان في كتابه هذا أن شيخه هذا كان يتردد عليه أصناف أربعة من المتعلمين[4].

- **الصنف الأول** : أخذ عنه قراءة القرآن بالروايات إفراداً وجمعاً، مع تحقيق أحكامها في مجالس الدرس.

- **الصنف الثاني** : أخذ عنه قراءة القرآن كذلك، لكن لا مع تحقيق الأحكام، بل لمجرد المدارسة والاستماع فقط.

**الصنف الثالث** : أخذ عنه ما سوى القراءة وأحكامها من فنون العلم فقط.

**الصنف الرابع** : أخذ عنه كلا من القراءة بأحكامها وغير ذلك من سائر فنون العلم.

وقد كان المولى سليمان من هذا النوع الأخير، ولهذا كان بأستاذه معجباً، وبما أخذ عنه مفتخراً، وبترداد اسمه في المحافل لاهجاً؛ قال :

«وإني والحمد لله من هذا القبيل، فقد قرأت عليه ختمات شتى من كتاب الله، برواية ورش عن نافع قراءة تثبت وتجويد، واستفدت من علومه بالمذاكرة في غالب الفنون ما وجدت بركة الانتفاع به في ديني ودنياي، وسمعت من حكمه ومواعظه ووصاياه ونصائحه ما تستأثر به القلوب القاتمة، وتنقاد له النفوس الأبية، جعلنا الله ممن عمل بما علم، فنجا في الدار الآخرة وسلم...»[5].

---

3) الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة تأليف الشريف سيدي عبد الرحمن ابن زيدان رحمه الله ص 72.

4) عناية أولي المجد ص 74.
5) نفس المصدر ص 76.

ثم قال :

«وكان لشيخنا محمد ابنه محمد سميه مات في حياته عن ابنه محمد العربي وهو الآن في قيد الحياة يقرأ القرآن ويبادي في أمهات العلم أصلحه الله».[6]

ومحمد العربي هذا هو الحفيد الوحيد الذي خلفه الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي بعد موته، وكانت عادة المولى سليمان ألا يهمل أبر العلماء، وأن يتتبع أحوالهم وتربيتهم، وأن يجدد الإحسان إليهم، وفكر في الوسيلة الإحسانية التي يمكنه أن يساعد بها هذا الحفيد الذي هو الرابطة الباقية بينه وبين شيخه، فارتأى أن أحسن ما يمكن أن يقدم إليه هو مخلفات جده من الكتب، عساها أن تكون مفتاح خير عليه، وأن تدفعه إلى مواصلة العلم ومتابعة الدراسة؛ ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ وكيف العمل مع ورثة الهالك ؟ وما مصير هذه الكتب إذا مات هذا الولد، قبل أن يستفيد منها، أو قبل أن يكون له عقب يستفيد منها ؟

إن المولى سليمان فكر في هذه الاحتمالات كلها، وكيف لا يفكر وهو العالم الورع العدل الذي يخشى الظلم ويخاف من عواقبه ؟

وبعد تفكيره توصل إلى الحل التالي :

**أولاً -** إرضاء الورثة بشراء الكتب التي خلفها الهالك رحمه الله.

**ثانياً -** تحبيس هذه الكتب على الولد المعني بالأمر، وعلى أعقاب أولاده، ليصبح لهم حق الاستفادة منها دون الحق في تفويتها ببيع أو هبة أو بأي وسيلة من وسائل التفويت.

**ثالثاً -** إرجاع هذه الكتب إلى خزانة القرويين متى انقرض عقب الإبن المذكور.[7]

إن هذا الموقف من المولى سليمان ليحمل في طياته بعدا حضارياً عميقاً لا يمكن حصر قيمته ولا تعداد فضائل منفعته.

إنه تفكير عملي في حماية العلم وفي حفظ وسائله؛ ذلك أن الكتب لم تعد في رأي المولى سليمان بضاعة تساوي غيرها من الموروثات المادية، بل إنها عنصر فعال في تهذيب الفكر وتقويم الأخلاق وتقوية الملكات، ولهذا فإنها ينبغي أن يحتاط لها الاحتياط الكافي لئلا تضيع فائدتها، فلا يترك المجال لمن يملكها أن يتصرف فيها كيف شاء، إذ يجب الاعتناء بها والحرص على وضعها في يد من ينتفع بها.

ولم يتيسر لنا أن نعرف عدد هذه الكتب ولا أسماءها ولا موضوعاتها العامة، وهل هي كل الكتب التي كانت بالخزانة، أو إنما كان ذلك مقصوراً على المؤلفات التي ألفها بنفسه، أو المنسوخات التي نسخها بيده.

شيء واحد يمكننا أن نتيقن منه هو أن من بين هذه الكتب تفسير ذي الجلالين مكتوباً بخط الفقيه الفاسي، وقد زينت هوامشه بذكر القراءات المختلفة، مع رموز تشير إلى أصحابها، بالإضافة إلى بعض التعليقات الموجزة المنسوبة إلى بعض المفسرين والمحدثين والفقهاء، من بينهم ابن جزي، والبخاري، وابن عطية، والبيضاوي، والزمخشري، والعارف الفاسي، والشافعي، وإمام الحرمين، وغيرهم، وكان أحياناً يكتفي بالإشارة إلى بعض حواشيهم، أو كتبهم، دون أن ينقل شيئاً، إنما يقول : «انظر كذا أو كذا».

وقد كتب على الورقة الأولى من هذا الكتاب في زاويته العليا من جهة اليمين.

«الحمد لله هذا الكتاب من منن الله على عبده الفقيه محمد بن عبد السلام الفاسي لطف الله به آمين، كتبه بيده الفانية».

---

6) نفس المصدر صفحة 85.

7) جاء في مقال للمرحوم الأستاذ علال الفاسي الذي نشر بدعوة الحق العدد الرابع من السنة الحادية عشرة فبراير 1968 أن المولى سليمان ذكر أن بعض هذه الكتب إذا انقرض عقب شيخه يرجع إلى الزاوية الفاسية وبعضها يرجع إلى القرويين، ولم يذكر المرجع الذي اعتمد عليه في ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

# قال الشيخ الإمام العالم العلامة جلال الدين شيخ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي رحمه الله تعالى ورضي عنه

الحمد لله حمدا موافيا لنعمه مكافئا لمزيده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وجنوده
هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين في تكملة تفسير القرآن الكريم الذي ألفه الإمام العلامة
المحقق جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي رحمه الله وتتميم ما فاته وهو من أول سورة البقرة إلى آخر
الإسراء بتتمة على نمطه من ذكر ما يفهم به كلام الله تعالى والاعتماد على أرجح الأقوال وإعراب ما يحتاج
إليه وتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة على وجه لطيف وتعبير وجيز وترك التطويل بذكر
أقوال غير مرضية وأعاريب محلها كتب العربية والله أسأل النفع به في الدنيا وأحسن الجزاء عليه
في العقبى بمنه وكرمه سورة البقرة مدنية مائتان وست أو سبع
وثمانون آية بسم الله الرحمن الرحيم الم الله أعلم بمراده بذلك ذلك أي هذا الكتاب الذي يقرؤه
محمد لا ريب شك فيه أنه من عند الله وجملة النفي خبر مبتدؤه ذلك والإشارة به للتعظيم هدى
خبر ثان أي هاد للمتقين الصائرين إلى التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي لاتقائهم بذلك
النار الذين يؤمنون يصدقون بالغيب بما غاب عنهم من البعث والجنة والنار ويقيمون
الصلاة أي يأتون بها بحقوقها ومما رزقناهم أعطيناهم ينفقون في طاعة الله والذين يؤمنون
بما أنزل إليك أي القرآن وما أنزل من قبلك أي التوراة والإنجيل وغيرهما وبالآخرة هم يوقنون
يعلمون أولئك الموصوفون بما ذكر على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون الفائزون
بالجنة الناجون من النار إن الذين كفروا كأبي جهل وأبي لهب ونحوهما سواء عليهم أأنذرتهم
بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ألفا وتسهيلها وإدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه
أم لم تنذرهم لا يؤمنون لعلم الله منهم ذلك فلا تطمع في إيمانهم والإنذار إعلام مع تخويف
ختم الله على قلوبهم طبع عليها واستوثق فلا يدخلها خير وعلى سمعهم أي مواضعه فلا
ينتفعون بما يسمعونه من الحق وعلى أبصارهم غشاوة غطاء فلا يبصرون الحق ولهم عذاب
عظيم قوي دائم ونزل في المنافقين ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر أي يوم
القيامة لأنه آخر الأيام وما هم بمؤمنين روعي فيه معنى من وفي ضمير يقول لفظها

بأعلى الصفحة تملك محمد بن عبد السلام الناصري كله
وتحته وقفية تحبيس المولى سليمان للكتاب
على أعقاب هذا العالم الجليل

ثم توجد بنفس الورقة وثيقة التحبيس، وقد حذفت بعض كلماتها، نظراً للقطع الذي وقع بطرف الورقة أثناء تسفير الكتاب وترميمه، تقول الوثيقة :

بعد ما اشترى مولانا الإمام المظفر الهمام أبو الربيع سليمان العلوي الهاشمي أيّد الله نصره، وخلد في الصالحات ذكره، من ورثة الفقيه الأجل الأستاذ المبجل المرحوم سيدي محمد بن عبد السلام الفاسي جميع هذا الكتاب المسمى بالجلالين المكتوب هذا على أول ورقة منه ونقل... في علم شهيديه أشهد نصره الله... أنه حبسه على أعقاب المذكور للإبن الشاب الأنجب سيدي محمد العربي وأولاد أولاده ما تناسلوا وامتدت فروعهم، فإن انقرضوا صار حبساً على خزانة مسجد القرويين، عمره الله بذكره، تحبيساً مؤبداً، ووقفاً مخلداً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، قاصداً بذلك ما عند الله، عرف قدره شهد عليه بأكمله وعرفه أواخر رمضان المعظم عام أربعة عشر ومائتين وألف».

إن هذه الوثيقة تعد من أهم الوثائق الدالة على عمق الرؤية السليمانية في توجيه الثقافة المغربية، وإن ارتباطها بهذا الكتاب بالذات لمما يؤكد مدى العناية التي كانت للمغاربة بهذا التفسير الدقيق الموجز، الذي يعد من أقرب التفاسير منالاً، وأوضحها معنى، رغم إيجازه واختصاره، ولقد حاول الجلال السيوطي أثناء التمهيد لإضافاته أن يبين الخطة التي سار عليها والتي تعد في الواقع المنهاج الذي كان يسير عليه الجلال المحلي أيضاً، وهي تتلخص في النقط التالية :

**أولاً** - في الاقتصار على ذكر ما يفهم منه كتاب الله.

**ثانياً** - في الاقتصار على إعراب ما يحتاج إليه فقط دون غيره.

**ثالثاً** - في الاعتماد على أرجح الأقوال.

**رابعاً** - في التنبيه على القراءات المشهورة على وجه لطيف وتعبير وجيز.

**خامساً** - في ترك التطويل بذكر قواعد غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية.

ولكن رغم هذا المنهاج المحدد فإن بعض القراء لتفسير الجلالين لاحظوا وجوب التوسع في بعض الجزئيات ووجوب التعقيب على بعض الاختيارات، فكثرت الحواشي لهذا الكتاب وتعددت الهوامش عليه.

ونسخة الفاسي هذه، وإن لم تدخل في مجال الحواشي الكبار، فهي لم تخل من بعض التعليقات القليلة حسب ما سبقت الإشارة إليه، فهي تمتاز بما ياتي :

**أولاً** - بتحديد أنواع القراءات والرمز لقائلها، وهو عمل داخل في اختصاص الناسخ، ويعتبر عملاً جيداً في بابه.

**ثانياً** - بوجود بعض التعليقات، إلا أن بعضها كتب بيد الناسخ، وبعضها أضيف إلى النسخة بعد ذلك بخط غيره.

**ثالثاً** - الاكتفاء بالإشارة إلى بعض الحواشي دون أن ينقل منها شيء، وهذا أمر يساعد قارئها ويرشده ويدفعه إلى التوسع متى احتاج إلى ذلك.

ولعل من البرور العلمي أن نصف للقراء هذه النسخة، وأن ننقل بعض هوامشها للتعرف على بعض الاهتمامات التي كانت للمغاربة آنذاك.

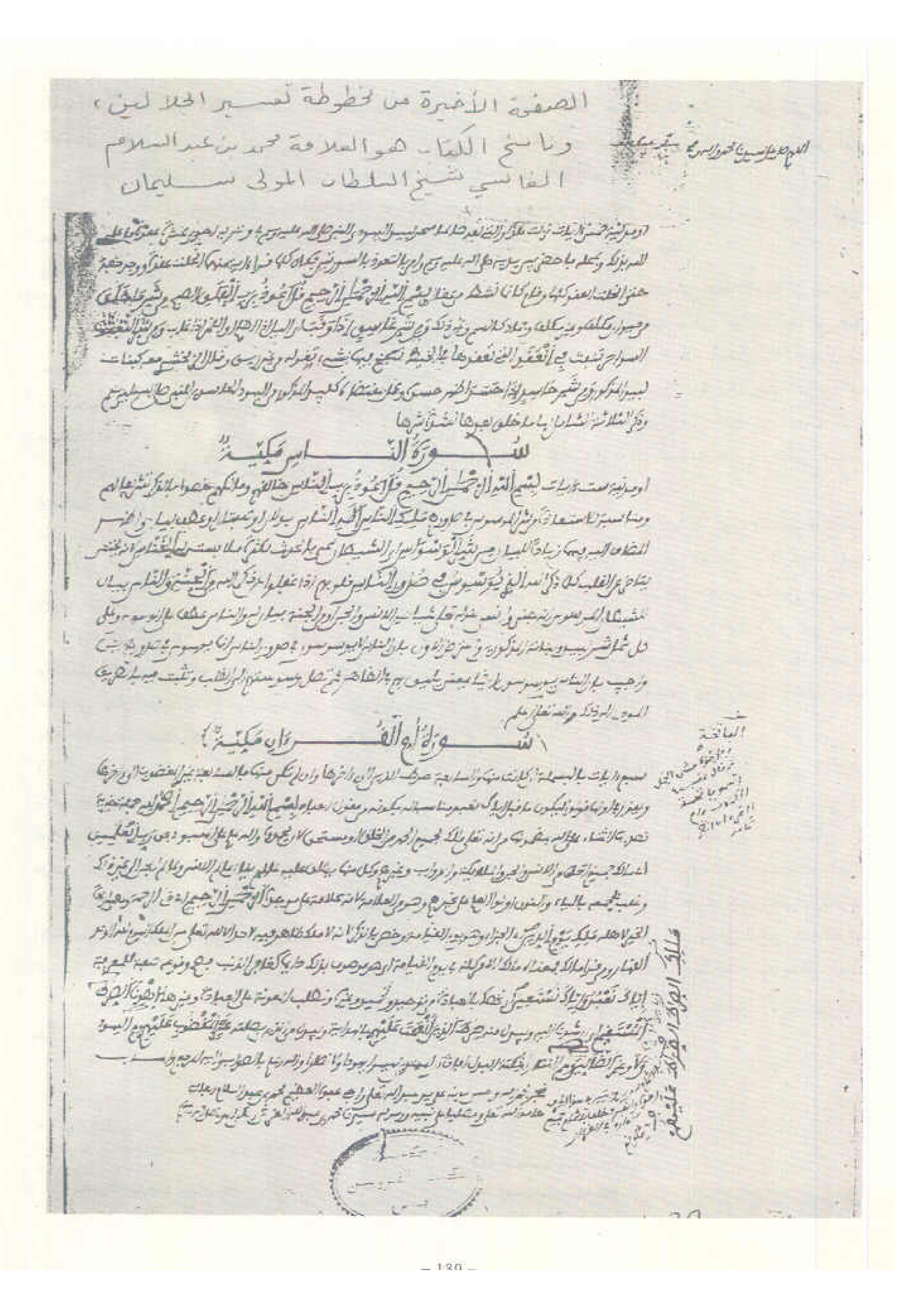
فهي مسجلة بخزانة القرويين تحت رقم 17، ومقاسها 22 × 32، وصفحاتها تبلغ 384 صفحة، وخطها واضح جيد، وأوراقها دقيقة الصنع، وهي خالية من تاريخ النسخ، وقد ختمت بقول الناسخ :

«نجز بحمد الله وحسن عونه على يد عبد الله راجي عفوه العظيم محمد بن عبد السلام الفاسي حامدا الله تعالى ومصلياً على نبيه ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله القرشي المكي المدني ﷺ».

وقد أضيفت إليها بعض الفوائد بالأوراق التي تكون عادة زائدة على صلب الكتاب.

فمن تعليقاتها الموجودة بالهوامش ما ياتي :

**أولاً** - قال المعلق بعد تفسير قوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من**



الصفحة الأخيرة من مخطوطة تفسير الجلالين،
وناسخ الكتاب هو العلامة محمد بن عبد السلام
الفاسي شيخ السلطان المولى سليمان

سورة الناس مكية

سورة أم القرآن مكية

**الثمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون...﴾**[8].

ونسب ذلك إلى ابن عطية ما يأتي :[9] هذه الآية تقضي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا فقد أخذ بطرق من جعل لله نداً، عصمنا الله بفضله، وقصر آمالنا عليه.

**ثانياً** - قال الله تعالى : **﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، وكان الله على كل شيء مقيتا...﴾**[10]

ويقول المحلي في تفسيرها : (من يشفع) بين الناس (شفاعة حسنة) موافقة للشرع (يكن له نصيب) من الأجر (منها) بسببها.

(ومن يشفع شفاعة سيئة) مخالفة له (يكن له كفل) نصيب من الوزر.

ويقول المعلق :[11] النصيب الحصة من الشيء، والكفل الضعف من الأجر والإثم، والضعف قال الأزهري أصله في كلام العرب المثل، ثم استعمل في المثل وما زيد عليه، فيقال هذا ضعف هذا أي مثلاه وثلاثة أمثاله وأكثر، لأن الزيادة غير محصورة، فلو قال موص : «اعطوا زيداً ضعف نصيب ابني» وفضل في نصيب الابن درهم، أعطي الموصى له درهمين، أو قال : «ضعفي نصيبه» أعطي ثلاثة دراهم، على هذا جرى عرف الناس، انظر المصباح.

**ثالثاً** - قال الله تعالى : **﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾**[12] وفسر المحلي هاته الآية بقوله (هل جزاء الإحسان) بالطاعة (إلا الإحسان) بالنعيم.

وتعرض الناسخ في الهامش إلى ذكر معاني «هل» فقال : «هل» تجيء على أربعة أوجه :

الأول بمعنى «قد»، كقوله تعالى : **﴿هل أتى﴾**.

والثاني بمعنى الأمر كقول الله تعالى **﴿فهل أنتم منتهون﴾** أي انتهوا.

والثالث بمعنى الاستفهام، كقوله تعالى : **﴿فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا﴾**.

والرابع : ما الجحد، كما في هذه الآية، أي ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب، كما في هذه الآية، أي ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب، ثم قال : هل تدرون ما قال ربكم، قالوا الله ورسوله أعلم، قال : يقول هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي... (انظر روح البيان).

**رابعاً** - لما كتب الناسخ سورة الممتحنة شكلها بفتح الحاء وكسرها، فجاء في الهامش نقلاً عن حاشية العارف ما يأتي :[14] قال ابن حجر : المشهور في هذه التسمية بفتح الحاء، وقد تكسر، فعلى الأولى هي صفة المرأة التي نزلت السورة بسببها، والمشهور أيضاً أنها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، ومن كسرها جعلها صفة للسورة كما قيل لبراءة الفاضحة الخ.

وأما الفوائد العارضة فمما جاء فيها نقلاً عن الإتقان قوله : «أخرج البيهقي من حديث ابن عمر مرفوعاً : من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة، ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات، والمراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد الإعراب المصطلح عليه عند النحاة، وهو يقابل اللحن، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة، ولا ثواب فيها. صح منه بلفظه.

ومما جاء فيها قوله : وفي الخبر : لا يعذب الله صدراً حفظ القرآن ولا قلباً وعاه.

---

8) سورة البقرة (21 - 22).
9) تفسير ذي الجلالين نسخة القرويين رقم 17 س 4.
10) سورة النساء 85.
11) المخطوطة المتحدث عنها س 85.
12) سورة الرحمن الآية الستون 60.
13) المخطوطة صفحة 334.
14) المخطوطة صفحة 342.

ومما جاء فيها قول الشاعر :

تعلم فليس المرء يـولـــد عـــالـمـــا
وليس أخـو جهـل كمن هـو عـــالم

وإن كبير القـــوم لا علم عنـــده
صغير إذا التفت عليـــه المحـــافـل

وإن صغير القـــوم والعلم عنـــده
كبير إذا ردت إليـــه المســـائـل

ومنها أيضاً ما نظمه بعضهم في القبائل التي نـزل القرآن بلغاتها، فقال :

وأحرفهـــا في الـــذكر تنبي بـــأنهـــا
لغـــات لقـــوم سبعـــة هكـــذا ورد

قريش تميم ضبـــة وكنـــانـــة
وبـــاقيهم قيس هـــذيـل بنـو أســد

ومنها أيضاً ما قاله ابن عباس في تفسيره على قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا** ﴾ «أي فقهوهم في الدين وأدبوهم».

فمن خلال هذه الهوامش وهذه الفوائد نرى أن الاهتمامات كانت موجهة في الغالب إلى الحث على الأخلاق الحميدة، وإلى تربية النفوس تربية قانعة شاكرة مؤهلة في الله كل مظان المغفرة والرحمة، زيادة على استغلال بعض القواعد اللغوية أو ذكر بعض الجزئيات المتصلة بأنواع القراءات وما يترتب عنها من تنوع المعاني واختلاف التأويل.

وهكذا نلاحظ أن هذه النسخة التي وصلت إلى خزانة القرويين بفضل عناية هذا السلطان بالعلم وببروره بشيوخه تعد من النسخ الفريدة في دقة معانيها وسلامة محتواها وقيمة ما أضيف إليها من الفوائد والتعليقات، رحم الله كاتبها ومحبسها وقارئها، وتولانا جميعاً برحمته، إنه سميع الدعاء.

**من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله**

و[illegible] الله تعالى قد امتن على أمتنا الإسلامية بأزكى تراث روحي وحضاري عرفته البشرية [illegible] ذلك إلا لنكون أمناء عليه، حماة له من الضياع والنسيان، وما ذلك إلا لنتكون [illegible] والعامة مرآة ساطعة له في كل حين. وما ذلك إلا لنعمل على تقديمه غضا [illegible] لكل المتشوقين إليه، والراغبين في الاطلاع عليه، من أبناء الأمم الأخرى.

## جهاد الدولة العلوية في حماية الثغور:

# سيدي محمد بن عبد الله وتعبئة الطاقات لاسترجاع مليلة

الأستاذ حسن البكيكي

شاهد مغربنا الحديث سلسلة من حركات الجهاد على واجهات الثغور المغربية المحتلة، أتت ثمارها بالنسبة لعدد منها، بينما ظلت المدينتان سبتة ومليلة والصخرتان بادس والنكور رهينة الأسر الإسباني، على الرغم من حالات الحصار الدائم الذي عرفته منذ الاستقرار الأجنبي بها. وسيشهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر، على عهد سيدي محمد بن عبد الله، محاولة جريئة هي الأولى من نوعها بالنسبة لمليلة.

يعود ظهور فكرة استرجاع الثغور المحتلة بالنسبة لسيدي محمد، إلى فترة مساهمته في حكم البلاد، كخليفة لأبيه على مراكش (1158 هـ - 1171 هـ). ويمكن أن نتأكد من أنه كان آنذاك بصدد تحضير المشروع في ذهنه بدا لنا هذا من خلال زيارته لحدود سبتة على عهد أبيه[1]، ومن الأخذ في ترتيب جملة من التنظيمات الداخلية، وافتتاح سياسة العلاقات الخارجية مع الدول الأوربية[2]، الموازية لما رصده لمشروعه.

لم تكن أمثلة الجهاد بعيدة عنه. كان عليه أن يحذو حذو جده المولى إسماعيل الذي وفق في تخليص عدد من المدن المغربية من الأسر الأجنبي[3]، وضرب الحصار على مدينة سبتة[4]. لقد كان هذا المثال الأخير حافلا بالتجربة الحربية مع الإسبان، مما حمله على نهج سياسة التروي في إرساء قواعد مشروع استرجاع المراكز التي تحتلها إسبانيا بسواحلنا. ولم يقف في وجهه ما انعقد بين المغاربة والإسبان من الصلح[5]، وعلى العكس من ذلك، أصبح من الواجب تصحيح مفهوم الاتفاق، بعد أن تأكد تناقضه مع الآمال الوطنية.

لم يكن سيدي محمد يخفى عليه ضخامة المشروع الوطني المنتظر، وقد مكنته تجربة استرجاع الجديدة بكثير من الأمل، لكنها جعلته في نفس الوقت يدرك الفرق الموجود في الإمكانات الحربية بين الإسبان والبرتغال من جهة، وأرغمته التجربة من جهة أخرى على أن يولي لتحصينات الثغور ما تستحقه من الاعتبار، دون أن ينسى الالتفات إلى

---

1) حسبما جاء على لسان السلطان في رسالة للغزال : 22 ربيع الأول 1187 هـ. ملف 4312 - من A.H.N. Estado

2) يدخل في هذا الإطار الاتفاقيات المبرمة بين المغرب والدانمرك والسويد وإنجلترا وفرنسا وإسبانيا في آخر المطاف سنة 1767م.

3) إلى غاية 1106 هـ (1694م). كان قد تم تحرير كل من المعمورة وطنجة، والعرائش وأصيلا.

4) استغرق الحصار من 1106 هـ إلى 1140 هـ. على أشده لتخف وطأته على الإسبان بعد ذلك.

5) صلح فاتح محرم 1181 هـ (28 ماي 1767م).

ما تحت تصرفه من أسلحة الحصار البري، وأن يرتاب في فعالية الأساليب الحربية العتيقة. هذا هو ما يفسر الحركة الدائبة التي عرفتها البلاد خلال الفترة المتراوحة بين استرجاع الجديدة (1768) والإعلان عن حصار مليلة (1774). فما هي الأسس التي انبنى عليها مشروع سيدي محمد لاسترجاع الثغور المغربية ؟.

### سياسة التفتح على الخارج

تبين الدراسة الشاملة لعهد سيدي محمد، خلال الفترة الممتدة بين 1767 و1774 أن باب العلاقات الخارجية الذي افتتحه تجاه أوربا، كان معدلا بإحكام نحو زاوية دقيقة لاستقبال الواردات الأوربية من مختلف أنواع الأسلحة والذخائر الحربية. كان هذا وعدا وطنيا، تم الاتفاق عليه منذ أن أفلح السلطان في إقناع العلماء لإصدار فتوى خاصة بإدخال المكس في التنظيم الضريبي، وأخرى لترخيص تسويق الحبوب إلى الدول المسيحية. ومن المعلوم أن الترخيص لم يتم في كلتا الحالتين، إلا بشرط السعي لتعزيز جانب الدولة الدفاعي ضد الأوربيين[6] سواء أولئك الذين يحتلون أجزاء من سواحلنا، أو أولئك الذين يتربصون بالبلاد الدوائر. ولم يكن هذا خافيا على القنصل الفرنسي آنذاك ببلادنا «لويس شينيي» (Louis Chénier) حين لاحظ: «..ليس هناك أدنى ريب من أنه (سيدي محمد) لم يقبل على عقد الاتفاقيات مع الدول الأوربية لسوى الحصول على الأسلحة الضرورية لمشروعه»[7].

وتساعد وثائق الأرشيف التاريخي الإسباني[8] على إعطاء فكرة عن موضوع شراء الأسلحة وبما يكفي من التفاصيل خلال سنوات التأهب لحصار مليلة، نتيجة الاهتمام البالغ الذي أبداه الجهاز الإخباري الإسباني والأوربي، المنبث في المدن الأطلسية الهامة[9]. وتظهر تلك المراسلات اليومية أن إنجلترا، التي لم تكن ترى أي إحراج لها لعودة سبتة إلى المغرب هي التي قدمت أكبر قدر من تلك الأسلحة، سواء على القناة الرسمية أو على يد الخواص، لقاء الحبوب المغربية المطلوبة من جبل طارق، لتأتي السويد وهولندة وجنوة في المرتبات الموالية.

تدفقت الأسلحة الأوربية على الموانئ المغربية الأطلسية، قدرت سنة 1770م. بنحو 12 مدفعا و50 من المهارس وحوالي 25.000 قذيفة، بينما بلغ تقدير «شيني» مما توصل به المغرب خلال ثلاث سنوات إلى 48 مهرسا و100 مدفع ونحو 15.000 قذيفة. ويمكن ملاحظة أن الصويرة والعرائش وسلا، كانت في مقدمة الموانئ المستقبلة خلال سنة 1770. وفي السنة الموالية انضافت إليها طنجة ثم فضالة بعد ذلك[10].

ويمكن لنا أن نتتبع توزيع تلك الأسلحة، إذ أنها كانت توجه نحو المدن الرئيسية بالمملكة، والشمالية منها خاصة. وحسب تقدير القنصل الفرنسي المستقر آنذاك بسلا أن الثلث من السلاح المستورد كان مخصصا لمشروع استرجاع المراكز الإسبانية. وكانت هذه الحصة تنقل إلى مكناس وفاس وتازة وتطوان[11].

وتجاوز جلب الأسلحة إلى استدعاء التقنيين الأجانب، قصد إجراء تدريب المغاربة على استعمال أنواع السلاح الجديد. وقد ظلت المدفعية تحت تصرف

---

6) إشارة إلى استشارة سيدي محمد للفقهاء سنة 1766 (1100 هـ) : حسبما ذكره أبو القاسم الزياني في البستان والضعيف الرباطي ولويس شينيي : الكتاب الثالث ص 471 من Recherches hésloriques.

7) Louis Chénier في P. Grillon-Correspondance du Consul p. 167, t 1, 1970

8) Archivo Historico National, Estado (A.H.N)

9) القنص الإسباني بالعرائش، الفرنسي بسلا، الإنجليزي بتطوان، ولهؤلاء إخباريون بمكناس ومراكش والصويرة، علاوة على ما لدى حكام الثغور من العيون.

10) درس موضوع استيراد الأسلحة تحسبا لمشروع استرجاع مليلة الأستاذ «رامون لوريد وديات» تحت عنوان :
- El armaments y la ásistencia militar europea en el Asidio Marroqui de Melilla (1774-1775), Revista de Historia Mélitar, 1972.

11) Louis Chenier في ...Correspondances... du Consul. الجزء الأول ص 201. رسالة سلا 20 يوليوز 1771م.

المسيحيين العاملين في الجيش المغربي. وغدت مراكش مركز التداريب والمناورات، ثم انضافت إليهما سلا فالعرائش. وفي المدينة الأخيرة وجد أكثر من 1000 فارس وراجل، كانوا يتدربون على الرماية بالبنادق والمطاعنة على الطريقة الأوربية. وخصصت الفترة الصباحية من يوم الجمعة للرماية، بينما أفردت الفترة المسائية لاستعمال المدفعية، تحت إشراف نحو 200 مسيحي، ينتمون إلى مختلف الجنسيات الأوربية، رئيسهم من أصل برتغالي[12].

ولما كان المولى اليزيد شديد الشغف بالمدفعية، نراه قد تكفل باستدعاء التقنيين من جبل طارق، ومن أولئك ثلاثة كلفوا بمكناس لتدريب 60 شابا مغربيا. ومن هؤلاء أختير خمسة عشر لاستكمال التكوين بجبل طارق، كانوا في ماي 1771 قد عادوا إلى وطنهم.

ولما كان بيت المال المغربي غير قادر على تحمل تكاليف استيراد الأسلحة، فإن سيدي محمد فكر في استغلال قرب السوق الإسبانية. وتأتى له ما أراده بعد اقناع الفقهاء لاستصدار فتوى تسويق الحبوب المغربية. وبعد أن تم عقد اتفاق 1767، أصبحت إسبانيا على رأس قائمة الزبناء الأوربيين. ومنذ ذلك دخل الذهب الإسباني في مشروع استيراد الأسلحة[13].

وعلى سبيل التأكد من أهمية تلك المبيعات، التي تكلفت بتصديرها مدن الصويرة وفضالة وطنجة وتطوان ما بين 1771 و1773، أكتفي بالإشارة إلى أن ما تم تصديره في السنة الأخيرة فاق 100.000 قنطار في عملية واحدة. وفي فضالة وحدها بلغت حمولة القمح المسوق في فبراير 1774 نحو 500 قنطار، قدر «لويس شينيي» ربح المغرب في هذه الصفقة بنحو 200.000 ليرة[14]. وترددت السفن الاسبانية على ميناء طنجة لحمل الالاف من رؤوس الأبقار، بينما صدر المغرب من تطوان الصوف والدواجن والدقيق والزيتون واللحوم والقطاني، ويمكن إجمال المبيعات المغربية بما بلغته قيمة المشتريات الإسبانية من مختلف المنتوجات ما بين 1767 و1774، حين قدرت بنحو 132.000 قنطارا سنويا، وهذا من طنجة وتطوان والعرائش فقط.

ولما كان المغرب قد وضع في حسابه استخلاص أكبر الفوائد النقدية من السوق الإسبانية، سعى بنجاح لاستغلال تهافت الإسبان على المنتوجات الفلاحية المغربية لتضييق قيمة الواردات، قدرت بنحو 5.000 «بسوس فورتس» (Pesos fuertes)، والنتيجة أن الميزان التجاري المغربي سجل فائضا مهما، مكن بيت المال من الوفاء بالتزاماته المتولدة عن استيراد الأسلحة[15].

وتسجل المصادر التفات سيدي محمد إلى البحرية المغربية في إطار التفتح على العالم الأوربي وتقوية أسس مشروع استرجاع الثغور المحتلة. لا ريب أن السلطان لاحظ حين استطلاعه لتحصينات مراكز الوجود الإسباني، أن افتقار المغرب إلى الدعم البحري، يشكل لديه أكبر عرقلة. ولا بد أن الفكرة عادت إلى تصوره مرة أخرى سنة 1770، حينما وقف أمام أسوار مليلة، مما دفعه إلى المضي في تطوير البحرية، مسايرة لعملية استيراد الأسلحة.

لا يعني هذا أن سيدي محمد كان يطمح في تأسيس بحرية عصرية يقف بها في وجه الدول الأوربية. فهذا مما لم يكن في طاقة البلاد، وبالتالي فإنه لم يعقد النية على إشراك السفن المغربية في حصار بحري للمراكز الإسبانية. لقد كان الهدف المرسوم في ذهن سيدي محمد أن يكون الأسطول سندا لقوة الهجوم البرية، ويتم هذا الدور بإشرافه على عملية نقل السلاح إلى أقرب الموانئ. ومن هناك جاءت فكرة الاهتمام بإصلاح ميناء مرتيل، وتأسيس ورش لصناعة المدافع بتطوان[16].

---

12) أنباء وصلت إلى الحكومة الإسبانية من جبل طارق : 29 يونيو 1770. ملف 4311، A.H.N.

13) Intercambios comerciales Hispano Marroqui Ramon Lourido Diaz en el siglo 18 (cuadernos de la Biblioteca Española de tetuan n° 8 (1973) ص 38 وما بعدها.

14) Correspondance du Consul في Louis Chenier... الجزء 1 ص 111، رسالة مثلا : 23 يونيو 1773.

15) المرجع المشار إليه في الهامش 13.

16) نفس المرجع السابق.

ومن ضمن تحسبات السلطان أيضا، مجابهة مرتقبة للخطر البحري. ففي ظروف حصار مليلة وتركيز القوى البرية في الشمال الشرقي، تصبح المدن الساحلية من المضيق إلى أكادير عرضة لحصار بحري إسباني، وكان في نية الإسبان شيء من ذلك[17]. وستكون من مهام الأسطول المغربي السهر على سلامة تلك المدن.

ويمكن أخذ فكرة عن أهمية البحرية المغربية وتحركاتها في نطاق الدور الذي أنيطت به، بالاطلاع على وضعيتها سنة 1773 من خلال يوميات «شينيي»[18] ومراسلات القنصلية الإسبانية بالعرائش. ومن المصدرين نسجل الملاحظات التالية :

- هناك أربعة مراسي نشيطة في التجارة الخارجية خلال السنوات السابقة لإعلان حصار مليلة، هي على التوالي : سلا والعرائش وطنجة وتطوان. وقبل 12 أبريل السنة ظهرت سرعة تحرك السفن المغربية بين تلك المدن.

- اهتمت قطع الأسطول بنقل المدافع والذخائر الحربية إلى تطوان من نقطة انطلاقها بسلا. وسجلت بين المدينتين خمس جولات للعربي المستيري الرباطي وLazary (الأزهري ؟) والرايس لحلو والهاشمي المستيري والخياط. ومن العرائش كلف الرايس إسماعيل التركي وأحمد المستغانمي وعبد الكريم الركون بنفس المهمة.

- كانت هذه التحركات هي التي ساعدت سيدي محمد على الإيحاء للإسبان، ضمن ما يسراه من خطته الديبلوماسية، أن المراد من تلك المناورات هو حصار ثغر سبتة[19].

## استطلاع تحصينات مليلة

إذا كان اعتقادنا يميل إلى إقرار أن تدبير خطة حصار مليلة كان قد تم ترتيبه سنة 1768،إثر استرجاع الجديدة، فإن تحركات سيدي محمد في اتجاه الشمال الشرقي أكدت لنا ذلك بمجرد ما علمنا بزيارته لقبيلة قلعية، بغاية إلقاء نظرة أخيرة على تحصينات المدينة.

لم تكن الوضعية الدفاعية التي كانت تتمتع بها الحصون الإسبانية خافية عن سيدي محمد فقد ساقه حب الاستطلاع إلى اختبارها ومعاينة مواطن القوة والضعف فيها. ولم يكن هذا أمام سبتة فقط بل إن مليلة نالت حظها من تلك الزيارات خلال السنوات 1759 و1765 و1766[20]. والظاهر أن تلك الجولات لم تكن لتحمل إليه الاطمئنان، لما شابها من نفور سكان إقليم «كرط»[21] وقلعية بصفة خاصة، وهي التي عجزت عن الوفاء بالتزاماتها المخزنية، إلى درجة أن الأمر اكتسى نوعا من الخطورة سنة 1768، دل عليه نجاة المولى عليّ من بطش السكان[22]. وكان من المنتظر أن يقود السلطان ضد الإقليم حملة تأديبية، لولا انصرافه إلى حصار الجديدة. وستتاح له الفرصة سنة 1770.

غير أن الوضع سيختلف تماما عما كان ينتظره الإسبان ويقدرونه من عواقب الحملة. ففي 15 أكتوبر كان سيدي محمد قد توغل بالفعل داخل أراضي الريف ووصل إلى المزمة، التي كان قد حل بها مولاي عليّ معسكرا أمام صخرة النكور. ونعلم بعد ذلك أن السلطان تقدم شرقا في اتجاه مليلة ووصل إليها في آخر أكتوبر السنة.

---

17) رسالة 28 يوليوز 1773 تذكر أن الإسبان سيهاجمون مراكش في حالة إقدام المغرب على حصار سبتة. ملف 4312 ,A. H. N. Estado.

18) Journal du Consulat Général de France au Maroc (1767-1785) الدار البيضاء. 1943

19) Correspondances... T. I. p. 166 في Louis Chénier.

20) زيارة 1766 كانت خاصة بمليلة، أشارت إليها رسالة حاكم المدينة : 7 أبريل ملف 267 من
Archivo Géneral de Simancas. Guerra Moderna.

21) أطلق آنذاك على ما يقابل جغرافيا إقليم الناظور الحالي.

22) رسالة القنصل الإسباني إلى رئيس الحكومة : 16 يونيه 1768. ملف 4311، تذكر أن مولاي علي كان قد جرد على المنطقة حركة قوامها 8.000 جندي، لكن السكان أبادوا جيشه إثر وقوعه في كمين.

والجديد أن نظرة سيدي محمد كانت قد تغيرت تغيرا ملحوظا. فالمعركة الدامية المرتقبة، كانت قد تحولت إلى مجرد مناورة عسكرية عادية، لم تتجاوز التهديد والتظاهر بالقوة، مما حير الإسبان الذين كانوا يتابعون خطوات هذا الزحف وينقلون أخباره ويتكهنون له بالنتائج الوخيمة، لكنهم لم يدركوا المقاصد الجديدة التي ساقت سيدي محمد إلى قلعية. وبالنسبة إلينا نرى أن الزيارة كانت ترمي في أساسها إلى استرجاع ثقة السكان وإعادة الاطمئنان إليهم، وحملهم على التعاون، استعدادا لتنفيذ مشروع الحصار.

اكتفى السلطان بالوقوف أمام أسوار المدينة، وعمد إلى فتح محادثة ودية مع حاكمها، استبعادا لكل ما قد توحي به الزيارة من الشكوك[23]. كان هذا ظرفا مناسبا لمعاينة التحصينات بما يكفي من الاهتمام. ونستطيع أن نضيف، كنتيجة لما أطلعتنا عليه الوثائق الإسبانية، وما استنتجناه من التمعن في خطة الحصار، أن سيدي محمد لم يغادر المكان إلا بعد وضع أسس جملة من الإجراءات التمهيدية تتلخص في اختيار قائد جديد للحدود، منتم إلى الأسرة القيطونية التي ساهمت في حركة الجهاد منذ فجر الدولة العلوية[24]، ونعني به عمر بن عمر بن محمد بن مسعود القيطوني. صاحب خطة هدم الأبراج[25].

ويدخل ضمن تلك الترتيبات ما لوحظ من تأليف فيالق ريفية قصد إدماجها في صفوف الجيش المغربي، ميزتها الأساسية تأهيلها بأساليب حصار المدن. ويظهر هذا من الأمر السلطاني الذي تلقاه وليّ العهد المولى عليّ لجمع فيلق محلي يتألف من 500 جندي، ربما كان المشرف عليه هو القائد «سيدي بطيب» (Boty)[26].

## البحث عن توحيد الجهود

كان نظر سيدي محمد أبعد من هذا كله، لم يصعب علينا تصور أن عزمه على حصار مليله هو الذي ساقه إلى البحث عن قيادة موحدة بين المغرب والإيالة التركية الجزائرية ضد الوجود الإسباني لحصار مليلة ووهران في وقت واحد. هذا هو ما أوضحته الوثائق القليلة التي توفر عليها ملف العلاقات المغربية الجزائرية، على عهد سيدي محمد بن عبد الله[27]، وعبرت عنه رسائل أحمد الغزال الموجهة للإسبان سنة 1773، وأكدته وثيقة إعلان الحصار المغربي[28].

لا شك أن التقارب الجغرافي بين المدينتين وتشابه ظروفهما الناتجة عن التمسك الأجنبي بهما، هي التي دفعت سيدي محمد إلى البحث عن أرضية يتم على أساسها بحث الحلول المشتركة. تتميما لما عقده من الاتفاق مع داي الجزائر محمد بن عثمان سنة 1766[29]، ولما سعى إليه من إيجاد وفاق بين الجزائر والإسبان في نطاق التصالح المغربي[30].

والواقع أننا لا نعرف سوى الشيء القليل عن اللقاء المغربي الجزائري في أوائل نوفمبر 1770. ولكننا متأكدون من وقوع اللقاء من خلال رسالة «صمويل سمبل» الموجهة إلى رئيس الحكومة الإسبانية[31] ومن القنصل الإسباني[32]، والتمسنا التطلع إلى معرفة موضوع المحادثات من بعض الرسائل المخزنية[33] سواء تلك التي صدرت قبل الحصار أو بعده. ومما أذاعه «لويس شينيي»[34].

---

23) رسالة حاكم مليلة إلى رئيس الحكومة : 8 نونبر 1770. ملف 4311 A. H. N.

24) أنظر ما نشرناه في دعوة الحق، عدد 258 – 1986 ص 28. عن الأسرة القيطونية.

25) المرجع في الهامش السابق.

26) استناداً الى ما ذكره شاهد عيان للحصار Francisco de Miranda: في يوميات الحصار (قلعية ومشكل الوجود الإسباني بمليلة، ص 301)

27) خص الأستاذ Ramon Lourido Diaz دراسة للعلاقات المغربية التركية على عهد سيدي محمد تحت عنوان Relacoones del lalaoui Sidi Mohamed conel imperio turco (Cuadernos de la Biblioteca española de Tetúan. 23 4 - 1981

28) رسالة إعلان الحصار المغربي بتاريخ 15 رجب 1188هـ.

29) حسب رسالة «خيرون» من مكناس : 12 مارس 1766. ملف 4344. A. H. N. Estado

30) اتفاق 28 ماي 1767.

31) المزمة : 18 أكتوبر 1770. ملف 4311 A. H. N. Estado

32) العرائش 18 نونبر 1770.

33) رسالة الغزال : 24 ربيع الأول 1187 ـ 4312 A.H.N.

34) Correspondance T. 1 p. 357 –

والنتيجة التي توصلنا إليها تبين أن الطرفين المغربي والجزائري كانا على وفاق يقتضي أن يقوم الجانبان بالإشتراك في حصار كل من مليلة ووهران في وقت واحد. كان على سيدي محمد أن يساهم بالمساعدة البحرية ضد وهران، وهو أمر لن يقف في وجهه الاتفاق المبرم مع الإسبان، بينما يصبح من واجب الجزائريين أن يمدوا بالإمدادات البرية لأن السلطان كان قد خطط سياسة الهدنة البحرية مع الإسبان. ومن توحيد تلك الجهود يصل المتحالفان إلى تشتيت القوى الحربية الإسبانية، مما سيتحقق معه الإستيلاء على المدينتين[34]. سيظل هذا الاتفاق قائما ما بين نوفمبر 1770 وبداية صيف 1774، ونعلم بعد ذلك أنه سار في اتجاه مغاير أدى به إلى نتيجة مخالفة ستعرف حدتها منذ اليوم الأول من الحصار المغربي.

## جهود سيدي محمد الديبلوماسية

لم تكن المحاولات المبذولة على الصورة التي كانت تتم بها خلال سنة 1770 والسنتين الموالتين كافية في نظر سيدي محمد، بل كان عليه أن يكثف جهوده على الصعيد الديبلوماسي، أملا في توفير الجو المناسب لاستكمال خطة التزود بالأسلحة. ونعتقد أن ما كان يسعى إليه أيضا أن يوفق في الحيلولة دون تفطن الإسبان إلى الغاية الحقيقية من خطته، واتخاذهم التدابير العسكرية لصالح تحصين مليلة.

ففي بداية 1773 كانت الاستعدادات الجارية لاسترجاع المراكز المحتلة أمرا جليا شهد بها العديد من الدلائل الناطقة، عبر عنها الشعور الوطني في عدد من المناسبات : بالمدن الساحلية التي كانت باب دخول الأسلحة الباعثة عن تساؤلات الأجانب وبالمدن الداخلية الكبرى التي كانت محور السياسة المغربية.

نقل «لويس شينيي» إلينا أصداء تلك الشائعات المعبرة عن التدابير الهادفة إلى فرض الحصار على سبتة منذ يوليوز 1770، أي في الوقت الذي كانت فيه جيوش المولى عليّ مرابطة أمام صخرة النكور. وأنذاك استبعد القنصل الفرنسي أوجه الصدق لتلك الشائعات، لكونه لم يلاحظ ما يدل على ذلك بوضوح من خلال تحركات الجيوش ونقل العتاد الحربي[36]. وعادت تلك الشائعات إلى الظهور مرة أخرى في شتمبر السنة، حينما بدأ سيدي محمد رحلته التي ساقته إلى أسوار مليلة والحدود الجزائرية. ومنذ ذلك الحين جرت العادة أن يتناول الناس بالحديث نفس الموضوع كلما شاهدوا وصول سفينة محملة بالأسلحة ودخولها إلى إحدى المراسي المغربية. وقد لاحظ «شينيي» تصاعد قلق الإسبان من جراء ما أثارته تلك الشائعات من التخوفات، فقال : «إن الإسبان يظنون، من فرط قلقهم الشديد، أن كل الطرق تؤدي إلى سبتة»[37].

واستطاع سيدي محمد، في هذا الظرف الذي لم يكن فيه استيراد الأسلحة قد بلغ حدا من الريب ما بين 1770 و1771 أن يطمئن شكوك الإسبان بالقدر الكافي من التأكيدات المتكررة المؤيدة لاستمرار الصداقة والصلح المنعقد بين البلدين. بيد أنه أضحى من العسير على سيدي محمد، مع بداية 1772، أن يعول على الحد من الشائعات ومن تأثيرها على الحكومة الإسبانية.

ففي الوقت الذي لمس فيه السلطان عزم الكورطي على معرفة حقيقة ما تتناقله الألسن من أفواه الدوائر الرسمية، أعد مشروعه الديبلوماسي ببساطة ودقة في آن واحد. لقد كان السعي لتأكيد تلك الشائعات صلب الخطة الديبلوماسية. ويعني هذا توجيه أنظار الإسبان إلى مجرد أنه من المحتمل أن يقدم المغاربة على حصار سبتة.

---

35) Louis Chénier في Correspondance. T. 1. p. 307.

36) المرجع السابق، رسالة القنصل : 18 يوليوز 1770. ج 1 ص 166.

37) المرجع السابق، ص 169 و 264.

لتوضيح هذه الخطة، التي يتخذ منها الإسبان خدعة بارعة نستنطق ستة من المراسلات مغربية وإسبانية، أولاها رسالة أحمد الغزال إلى السلطان[38] يخبره فيها بما صرح به للقنصل الإسباني بالعرائش، في شأن ما يشاع عن سبتة. تستعيد الرسالة ضغط الجماعة المعارضة لنتائج الصلح. وبعد أن أخبر الغزال برفض السلطان للمساعدة الإنجليزية المعروضة عليه في شأن حصار سبتة، وأطلع القنصل على الرد السلطاني لمزاعم علماء الجزائر المناوئين للصلح، نصل إلى الجملة التي هي محل النقاش :

«فإن وجد سيدي إبقاء ما كان على ما كان بوجه شرعي فذاك، وإن تعذر التدبير فحينئذ يأمر سيدي قنصوهم بمكاتبة سلطانه، وأن أمد المهادنة في البر بعد نقضها أربعة أو ستة أشهر، وبعدها يعلمون أن سيدي متوجه إلى سبتة لحصارها في البر دون البحر، حيث ليس للشرع فيه حديث.. هذا إن لم يكن من عزمه الحرب في البحر والبر معا»[39].

يظهر أن موضوع الزيارة لم يحط بالسرية التامة كما أراد له الغزال. فهذا القنصل الفرنسي يبعث بالخبر إلى حكومة بلده في أقل من أسبوع :

«تستمر الإشاعات القائلة بالمضي في الاستعدادات الخاصة بحصار سبتة. وعلمت أن الكاتب الغزال، الذي حل بالعرائش قادما من مكناس، حث السير نحو منزل القنصل الإسباني، حاملا رسالة سيده، يكلفه بها إبلاغ الحكومة أنه إذا لم يتم جلاء الإسبان عن سبتة خلال ثلاثة أشهر، فإنه سيضطر إلى الزحف نحوها لحصارها[40].

هذه هي الرسالة التي وصفها «ڤيسنتي رودريكث كادو»[41] بكونها وصفة ديبلوماسية مخادعة فريدة من نوعها، لم تخطر على بال أحد. ففي نظره أن سيدي محمد حينما لجأ إلى التصريح السري في شأن سبتة، كان القصد لديه أن يخبر الحكومة الإسبانية عن تردده ما إذا كان سيحاصر المدينة أم لا. وفي اعتقاد الكاتب الإسباني أن السلطان سيدي محمد قد أحكم نسيج خدعته الديبلوماسية حين جعل حل عقدة سبتة بيد كارلوس الثالث. فعلى هذا الأخير يتوقف الأمر، وهو الذي سيقرر ما إذا كان سيهاجمه العاهل المغربي أم لا. وفي انتظار الرد على هذا السؤال، الذي لن يكون له رد من الطرف الإسباني، يكمن حسن حبك الخدعة المغربية. وتبعا لذلك فإن السلطان قد وفق في تضليل الساسة الإسبان توفيقا تاما.

لقد أخطأ «كادو» حينما انساق فهمه لتأثير عبارات هامشية، وغاب عنه الهدف المتوخى من رسالة الغزال المعلنة للخبر. والواقع أن الأستاذ «رامون لوريدو ديات» توصل إلى فهم حقيقة الهدف السلطاني[42]، ذلك أن سيدي محمد حينما تفطن إلى أن إخفاء النوايا الحقيقية من استيراد الكمية الهائلة من السلاح، قرر العمل لتأكيد صحة الشائعات الرائجة عن حصار سبتة. وفي هذا دون غيره، تظهر الحنكة السياسية المغربية، تجلت في تحويل اتجاه شكوك الإسبان عن حصار مغربي لمليلة، بتركيز تلك الشكوك حول سبتة. وكانت لتلك الاستراتيجية الديبلوماسية نتائجها الإيجابية على الحكومة الإسبانية. وستبين السنتان التاليتان مصداق تلك النتيجة.

وتناولت نفس الموضوع رسالة أخرى حررها أحمد الغزال على لسان سيدي محمد بعث بها إلى رئيس الحكومة الإسبانية، مؤكدا ما سبق أن صرح به للقنصل، واستهلها بقوله : «ها أنا نحدثكم بحقيقة الأمر الذي يحدثون به

---

38) لم نعثر بالأرشيف التاريخي الإسباني سوى على ترجمة إسبانية لرسالة الغزال، وكان القنصل قد بعث الأصل العربي مع نفس المراسلة. الترجمة بتاريخ 23 ماي 1773. ملف 4312.

39) المصدر السابق.

40) رسالته :28 ماي 1773.- Correspondance. T. 1. p. 310

41) Vicente Rodriguez في Vicente Rodriguez Casado Madrid - 1946.
Casado – Politica Marroqui de Carlos III -

42) Ramon Lourido Diaze B. Abdellah Cuazdernos del Islam - (1972) 2
El Sultánato de Sidi Mohamed في p. 96

الناس في شأن سبتة، خوفا أن يصلكم الخبر معوجا ويقع في نفوسكم...»[43].

هاتان هما الرسالتان اللتان أكدتا للإسبان رسميا عودة الشعور الوطني إلى الاستيقاظ من جديد، وصدق عزيمة المغرب على بذل كل الجهود لاسترجاع ما تبقى من الثغور المحتلة. والواقع أنه ما كان لأحد أن يستدل على تفكير المغرب في حصار مليلة قبل التفكير في سبتة، باعتبارها أهم المراكز المحتلة التي ظلت أنظار المغرب متشوقة لاسترجاعها، وبقيت تحت مراقبة الجيش المغربي طيلة الحكم الإسماعيلي وليس بغريب أن يعيد سيدي محمد تجربة جده المولى اسماعيل في ظروف عسكرية أكثر ملاءمة.

وكان هناك ما ساعد من جانب الإسبان على استكمال خطة سيدي محمد ذلك أن تشبثهم بالمدينة كان كبيرا، ولم تواز أهميتها سوى مدينة وهران. أما مليلة فقد كان هناك رأي للتخلي عنها لصالح سبتة، استجد البحث فيه سنة 1773[44]. ولما كانت رسائل السلطان تشير صراحة إلى تأكيد الإشاعات المحيطة بسبتة، فإن الشك لم يخامر ذهن الإسبان في صدق نية المغاربة.

انشغل بال الإسبان منذ أن علموا بالقرار المغربي، بالحصول على المزيد من التأكيدات والبحث عن الوسيلة التي يقنعون بها السلطان للتراجع عن قراره، استنادا إلى الصلح المنعقد بين الطرفين. نعلم هذا من المراسلات المتبادلة بين أحمد الغزال ورئيس الحكومة الإسبانية خلال صيف وخريف 1773. ففي شهر يوليوز توصلت القنصلية بالرد الحكومي على رسالة الغزال[45]. ويبدو أن اللهجة التي كتبت بها لم ترق الغزال حين اطلع على محتواها في مكان وصولها، فاقتفى أثرها مسرعا إلى مراكش ليلطف العبارات التي كتبت بها[46].

وإذا كنا نجهل مضمون النص الأصلي الذي كتبت به الحكومة إلى سيدي محمد مباشرة، فإننا نجد بعض أصدائه في مراسلتين للغزال وثالثة لرئيس الحكومة الإسبانية. فحينما وقر في ذهن الإسبان أن السلطان نقض الصلح أو أهم بنقضه، أجابوا «بكلام غير مناسب أن يذكر بين الأحباب، من غير سبب منا ولا منكم، كما أن السلطان لم يسمع عنه في جانبكم عيب، ولا ظهر إلا ما فيه مراعة لكم وما يؤذن بالعهد وحفظه، ولم يصلكم عنه كتب يوجب أن يكون جوابه بما أجبتم به من غير علم بشيء...»[47].

وحمل إلينا جواب رئيس الحكومة الإسبانية للغزال توضيحا أكثر مما نبحث عنه من مضمون الرسالة المفقودة: «إن الملك لم يجد بدا من الالتجاء إلى استعمال تلك اللهجة وقد علم أن سيدك ينوي حصار حصن من حصونه، إذا لم يفلح في إسكات المستائين من عقد الصلح، وأن جلالته الكاثوليكي يلح في التوصل بالجواب عما إذا كان سيدك قد توصل إلى إرضاء المستائين بغير وسيلة حصار سبتة، فبدون ذلك لا يرى أي معنى لوجود صلح دائم»[48].

ويعود إلحاح الحكومة على الغزال هذه المرة إلى عدم توصلها بالجواب الشافي عن رسالة سابقة، تسأل فيها: «إذا غلب الشرع (على السلطان) فيما يقوله العلماء في أمر سبتة، هل يجيب إليها؟ وهل عنده باب آخر مع الرعية في أمر سبتة؟»[49]، باعتبار أن الغزال اكتفى في جوابه: «أن

---

43) رسالته إلى رئيس الحكومة: 22 ربيع الأول 1187 هـ. (14 يونيو 1773 م.) ملف A. H. N. Estado 4312

44) إشارة إلى التقرير الذي قدمه «أيلمر» (Aylmer) 16 غشت 1773 (قلعية، 1 ص 373)

45) يظهر أن لا وجود لهذه الرسالة بالأرشيف التاريخي الإسباني بمدريد، استفدنا جزءا من مضمونها من رسائل الغزال.

46) كتب الغزال: «فمن فضل الله أمدني سيدي بقبض البراءة، وقال لي اعرف ما فيها، ولم يطلع عليها أحد غيري، فقلت له إن الوزير سمع ما يدل على نقض المهادنة، وهو يسأل عنا في خاطر مولانا» (رسالة الغزال الى رئيس الحكومة: 10 جمادى الأولى 1187 هـ (30 يوليوز 1773)، ملف A. H. N. Estado. 4312

47) نفس المصدر السابق.

48) رسالة رئيس الحكومة إلى الغزال: 14 نونبر 1773. ملف A. H. N. 4318

49) النص العربي للترجمة مأخوذ من رسالة الغزال التالية.

سيدنا أجاب العلماء بما فيه رد عليهم، ولم تبق إلا المهادنة والصلح كما كان أولا»[50].

وإذا كانت مسألة سبتة هي التي عبقت الجو السياسي بين المغرب وإسبانيا في الظاهر بين 1767 و1774، فإن مليلة التي كان يعد لها كل شيء في الخفاء التام، لم تظهر خلال هذه المدة في المراسلات سوى مرتين : الأولى حينما أحال «اليباردو» (Pardo) جملة من الشكايات على الوزارة تخص اعتداءات مجاهدي قلعية على الحامية الإسبانية[51]، والثانية حينما أجاب الغزال عن موضوع الشكايات. وإذا كانت الشكايات الإسبانية من الأمور المألوفة لدينا، فإن الذي يهمنا هو جواب الغزال عنها. الجواب تأكيد آخر عن سياسة سيدي محمد الرامية إلى إبعاد كل ما من شأنه أن يشعر برغبة المغاربة في استرجاع مليلة كمرحلة أولى، وحتى قصر الجواب يوحي بذلك :

«ومليلة لا فائدة في الكلام عليها في هذا الوقت، وهذا ما ظهر لي، والذي نعرفه صوابا إنما نقول أن يفعله القونصو، والذي ليس فيه صواب نرده»[52].

هكذا ففي سنة 1773 لم يكن الوقت قد حان بعد للفصل النهائي في تلك القضية، وكان من الحكمة والصواب تقديم الجواب الأخير في السنة التالية. وفي انتظار تلك اللحظة الحاسمة، التي سيصبح فيها ثغر مليلة قضية وطنية أساسية، سيتمكن سيدي محمد من وضع الترتيبات الأخيرة لمشروع الحصار، هذا مما لم يكن مناسبا قبل شتمبر 1774، وهو الموعد الذي تسلم فيه كارلوس الثالث إعلان الحصار المغربي،[53] لاسترجاع الثغور المغربية دون أن يحدد الإعلان الثغر الذي ستركز فيه العمليات الحربية. فمتى تم الإفصاح عن اختيار مليلة ؟.

تدل القرائن المتوفرة لدينا أن حصار مليلة لم يعلم به الإسبان خلال المدة الفاصلة بين إعلان الحرب وبداية الحصار إلا في آخر اللحظات، التي لا يمكن أن تقول إنها يوم ظهور الجيش المغربي أمام أسوار المدينة في 9 ديسمبر 1774. فهذا بعيد الاحتمال لما لا حظناه من الاستعدادات التي قابلت بها الحامية الهجوم المغربي الأول.

هناك رسالة وحيدة يظهر أنها لم تحظ بالتقدير الكافي من طرف الساسة الإسبان، ربما لأن صعقة إعلان الحرب على الحصون برمتها غطت الخبر الذي حملته، أو أن عدم تأكيد الخبر لنفسه بمراسلات أخرى، أدى إلى تناسيه وإهماله بعد ذلك. الرسالة موجهة من تطوان بعث بها نائب القنصل الإسباني بتاريخ 20 شتمبر، أي أنها حررت بعد ختم السلطان لرسالة إعلان الحرب بيوم واحد فقط[54]، وتقول الرسالة :

«أعلن العاهل المغربي لرجاله جهارا أن كل شيء كان معدا لحصار مليلة، وأن النبأ يوافق الأمر السلطاني الذي بعث به لابن الوليد (Ibn OUALID) الكائن آنذاك بسلا، يأذن له فيه بالزحف نحو مكناس. ومن المؤكد أن السلطان سيتوجه نحو فاس، الواقعة على الطريق السالك إلى ذلك الحصن. أضف إلى ذلك ما لوحظ من خروج قرصان سلا برفقة أحد الرياس إلى نفس المدينة»[55].

الخبر واضح المعنى ومدعم بنظرة فاحصة للظروف المحيطة به مما تشهد به المراسلات الصادرة عقب خبر إعلان الحرب على الحصون الإسبانية، لكن أثره كان قصيرا في أذهان رجال الحكومة لأسباب نجهلها. ولم تتوصل الحكومة بإنذار آخر يفيد نفس المعنى إلا في نوفمبر

50) رسالة الغزال : 20 شعبان 1187 هـ (7 نونبر 1773) ملف A. 4312 H. N.

51) رسالة «الباردو» إلى رئيس الحكومة : 2 ماي 1773 (18 صفر 1187) ملف A. H. N. 4312

52) رسالة الغزال : أوائل ربيع الأول 1187 هـ. (24 ماي 1773. ملف A. H. N. 4312

53) رسالة إعلان الحرب بتاريخ 15 رجب 1188 هـ. (19 شتنبر 1774). لم نتمكن من العثور على النص العربي بالأرشيف التاريخي الوطني، وقد أدرجت الرسالة مترجمة إلى الإسبانية بـ Historia de las campañas de Marruecois. T. 1. p. 482

54) ملف رقم A. H. N.Estudo 4312 الرسالة بتاريخ 20 شتنبر 1774.

55) المصدر السابق.

السنة، أي قبل موعد الحصار بشهر واحد، جاءها من القنصل الإسباني بباريس، يشير فيه على حكومة بلده أن تكون على حذر من احتمال توجه السلطان بجيوشه نحو مليلة أو النكور، ليتخذ منهما قاعدة التهديد بالنسبة لباقي الحصون[56].

وتبين المراسلات الإسبانية أن المنطقة الوسطى من المغرب من سلا إلى تازة كانت جذوة متقدة من فرط الحماس الوطني، في وقت كان سيدي محمد يحشد قواته بمكناس، ومولاي عبد السلام منشغل بجمع الجيوش من سلا والرباط (رباط أكدال)[57]، بينما تكلف باشا دكالة محمد بن أحمد بنقل المواد الغذائية، وتوجت هذه التحركات بانعقاد اجتماع حربي يوم 5 أكتوبر 1774.

من المؤكد أن حصار مليلة استمر في طي الكتمان، لا يعلم به سوى أقرب المقربين إلى السلطان، ولم يظهر أن شيئا منه قد وصل إلى آذان الإسبان إلا ما سبقت الإشارة إليه. وحتى نائب القنصل الإسباني السابق الذكر نجده بعد خمسة عشر يوما من تصريحه الأول، يرسل أخبارا متضاربة عن الهدف من الاستعدادات الهائلة المعدة للزحف نحو : وهران مرة ونحو الجزائر مرة أخرى. ولم يفته أن يعلن في الأخير «أن ليس هناك تأكيد لما يروج في هذه البلاد..»[58].

ونستطيع الآن أن نتأكد من أن الإعلان عن حصار مليلة بدأ يعرف الانتشار خارج دائرة السلطان، حينما صرح لصهره الرحماني عامل الرباط بنية التوجه نحو مليلة، وبه علمنا رسميا في أواخر نوفمبر بخطة سيدي محمد، وهو بمدينة تازة :

«أرحل عن تازة قاصدا مليلة. وفي العاشر من هذا الشهر أكون بدون ريب حللت بها.. لنسترد جميع حقوقنا من إسبانيا»[59].

بالفعل حل سيدي محمد بقلعية وعسكر أمام المدينة بساحة سيدي محمد المجاهد، بقرقة «إزمنين» في التاسع من دجنبر الذي يوافقه 5 من شوال حسبما أعلنت عنه المصادر الإسبانية وأكده الضعيف الرباطي[60].

---

56) رسالة القنصل : 12 نونبر 1774 Histyoria general de España - Danvila y Collaso ص 181 من الجزء الرابع.

57) تاريخ الضعيف الرباطي، مخطوط بالخزانة الحسنية ص 178. كان سيدي محمد قد أحدث «أكدال الرباط» قبل ذلك في إطار الاستعداد لشروع الثغور المحتلة جمع به نحو 5.000 أسرة من عبيد البخاري.

58) رسالة القنصل: 5 أكتوبر 1774، ملف 4312 A. H. N. Estado

59) Ramon Lourido Diaz في Relaciones del Alaoui Sidi Mohamed con el Imperio Turco. (B.E.T. - 1981 - 23 -24)

60) الضعيف الرباطي في تاريخه، ص 178، مخطوط. نعرف الخبر من شاهد عيان للحصار وهو Francisco de Miranda، ص 1 من Diario del ataque y defensa de la Plaza de Melilla.

من أعلام العلماء على عهد المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن والمولى الحسن الأول:

# محمد الأمين الشنجيطي

الأستاذ حسن جلاب

تقديم :

عرف المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر نشاطا علميا متميزا، أذكى جذوته السلطانان المولى محمد بن عبد الرحمن، والمولى الحسن الأول بجهودهما المشهورة في تشجيع العلماء وحثهم على الابتكار والإبداع في كافة مجالات المعرفة. واتجهت همتهما إلى التفتح على العلوم والمعارف الحديثة. فكانا يجهزان البعثات الطلابية ويعدانها للتزود بما كانت تزخر به الدول الأوربية من صناعات وعلوم، ليبقى المغرب كما كان بلد حضارة وتقدم. ولإعداد المغاربة لاستقبال القرن العشرين أحسن استقبال.

وقد نبغ عدد من العلماء والأدباء خلال هذا العصر من مختلف مدن المغرب ومناطقه : أمثال محمد أكنسوس المراكشي، وأحمد بن المواز، وأبو العباس أحمد بن الحاج، ومحمد المدني كنون، وعبد السلام بن محمد العلمي الطبيب الفلكي، وأحمد بن خالد الناصري المؤرخ...

وقد برز من علماء الصحراء وأدبائها : مترجمنا، الذي تخصص له هذه المقالة.

## التعريف به :

هو محمد بن عبد الله الحجاجي الجعفري الصحراوي، أصله من شنجيط. قدم في شبابه إلى مراكش وقضى بها زهاء أربعين سنة، فاستقر بدرب مولاي عبد القادر الجيلاني بحي ضباشي.[1] وقد حدد سنة أربع وخمسين ومائتين وألف تاريخا لذلك في كتابه «مقدمة الارتجال»، في حين ذكر صاحب الإعلام أنه قدمها بإشارة من شيخه سيدي قدور العلمي سنة ست وخمسين ومائتين وألف.[2]

1) الإعلام 21/7، هناك عالم آخر من شنجيط هو أحمد بن الأمين الشنجيطي صاحب «الوسيط».

2) الإعلام 28/7.

وكان له ابن اسمه عبد الوهاب ظهرت نجابته، وتوفي في محرم من سنة واحد وتسعين ومائتين وألف بمكناس، فرثاه بقصيدة مطلعها :

جفني همى بعقيق الدمع باكيه
على الغريب الذي غابت بواكيه

قيل في وصف الأعين الصحراوي : (صفته أسمر، كث اللحية، ضعيف الجسم ربعة للطول، معتدل الأعضاء، حسن الثياب، ذو هيبة).[3]

أخذ عن عمر بن المكي الشرقاوي البوجعدي الذي أجازه إجازة عامة سنة تسع وخمسين ومائتين وألف. وعن محمد بن عبد الودود الحاجي، الذي رثاه بعد وفاته بقصيدة منها :

قل لمن غاب عنه سير سناها
لذكاء يبيد فهم البليد
لا يشين البديع غض بليد
ليس يدري بديع شعر لبيد

تصدر للتدريس بمدينة مراكش (وكان له ولوع بالأدب، واطلاع على التاريخ، وشغف باللغة).[4]

وكانت له وجاهة عند السلاطين والولاة. فقد كانت لسيدي محمد بن عبد الرحمن محبة كبيرة فيه مذ كان وليا للعهد. وقربه أثناء حكمه، وكان يصله بالعطايا الوافرة. وكذا الشأن مع ابنه المولى الحسن الذي أجازه على كتابه «مقدمة الارتجال» بذهب كثير.

كما كانت له علاقة حميمة بالوزراء : العربي بن المختار الجامعي، وعلي المسفيوي، وموسى بن أحمد.

وتبدو مكانته فيما لقيه من ترحيب وإجلال خلال رحلاته الطويلة عبر بعض المدن المغربية، فقد كان ولاتها وقوادها يتلقونه بحفاوة بالغة، ويستدعون العلماء والصوفية لمجالسته : فقد نزل بالرباط عند القائد عبد السلام السويسي، ولقي عنده العلامة محمد دينيا، والمكي ابن عمرو الرباطي وغيرهما.

واجتاز إلى سلا لزيارة ضريح أحمد بن عاشر ونزل عند الفقيه العربي بن سعيد.

وفي دكالة حل بدار القائد محمد بن الكامل، ولقي بها العلامة الصوفي عمر بن سودة سنة أربع وثمانين ومائتين ألف.

ونزل بفاس عند صديقه الفقيه الأديب عبد الله بن أحمد باشا المدينة، وكانت مناسبة للتردد على مجالس العلم بالقرويين والتذاكر مع علمائها، من أمثال إدريس بن عبد الهادي العلوي، ‍والكامل الأمراني، وصالح التادلي، ومحمد وعبد الملك العلويين، والعلامة محمد كَنون، وأحمد بن سودة، وابن عمه محمد بن عبد الواحد، وجعفر الكتاني، وعبد الله بن إدريس البكراوي، والخطيب علال الفاسي، والفقيه الكاتب محمد الصنهاجي، والفقيه محمد السباعي، والأديب الكاتب عبد الواحد بن المواز.

وفي مكناس اعتنى به الفقيه محمد بن العربي الجامعي، والمقدم الجيلاني الرحالي، والفقيه المختار بن عبد الله بن أحمد. وتلاقى مع قاضي المدينة فضول بن عزوز، وزار شيخه سيدي عبد القادر العلمي الشاعر.

وطاف على أضرحة أولياء المدينة.[5]

وكانت طريقته ـ كأغلب الصحراويين ـ مختارية، إلا أنه بعد حلوله بمراكش أخذ يلازم الزاوية القادرية بضباشي.

وكان له إيمان راسخ بالأولياء، ومحبة فيهم، واعتقاد ببركتهم وزهد عام في الدنيا، يتجلى ذلك :

- في ولعه بزيارتهم خلال رحلته الطويلة.
- ولجوئه إلى أضرحة مدينة مراكش (وخاصة ضريح الإمام الجزولي) عندما يلم به أي خطب.
- كثرة ما يرويه من أخبار الصوفية، وقطب الزمان...
- انعكس هذا الاهتمام على آثاره : فقد كان أغلب شعره في مدح الرسول وكانت مؤلفاته في الطريقة الصوفية، وزيارة الأولياء.

---

3) الاعلام 22/7.
4) الاعلام 21/7.
5) انظر تفاصيل الزيارة في الاعلام 26/7 ـ 28.

توفي محمد الأمين الصحراوي سنة ست وتسعين ومائتين وألف، ودفن برباط عبد القادر الجيلاني بضباشي.[6]

**شعره :**

يضم كتابه «المجد الطارف والتالد» أغلب شعره، ويمكن تقسيمه إلى صنفين :

**الصنف الأول**، قصائد في مدح السلطانين الجليلين وأفراد أسرتهما الكريمة والتنويه بأعمالهما وجهودهما في خدمة الوطن، ونشر العلم والثقافة، ومدح وزراء وخدام دولتيهما، أهمها :

- أرجوزته في نسب العلويين، استهلها بالحديث عن المولى الحسن، :

إمامنا الحسن الأسنى الأحمدي
نجل الإمام سيدي محمد
نجل الإمام عابد الرحمان.
نجل هشام العفو والأمان
نجل الإمام سيدي محمد
هو ابن عبد الله الأعلى الأمجد
هو ابن إسماعيل نجل المهتدى
محمد نجل علي المؤدد
نجد محمد وذا نجل علي
زين الشمائل الشريف الأمثل
أبوه يوسف أبو هذا المنيف
مولانا الأشهر علي الشريف
نجل الإمام حسن بن الأسما
محمد بن الحسن السما
بالقادم ابن دعي بلقاسم
نجل محمد بن ذي المكارم
الحسن المبجل الأواه
نجل الشريف الندب عبد الله
ابن أبي محمد بن عرفة
من لم تزل أوصافه معرفة
نجل الشريف الحسن بن الحسن
نجل أبي بكر بن نجل الحسن
وهو علي والحسن بن أحمد
هو ابن اسماعيل ذي العرف الندي
أبوه قاسم بن شامي المنية
محمد من نفس زكية
هو ابن عبد الله نجل الحسن
من بالمثنا شاع بين الزمن
نجل الشريف الحسن السبط الإمام
نجل علي زين الأئمة العظام
زوج البتول فاطم الزهراء
بنت الرسول نور كل راء
صلى عليه ربنا وسلما
وءاله وكل من له انتما[7]

قصيدته في مدح محمد بن عبد الرحمن خمس فيها قصيدة مطلعها :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به
ولا تكون له في الأرض آثار

بعدما أشار عليه السلطان بذلك بواسطة الوزير موسى، منها :

يا طلعة البدر حسنا في كواكبه
وطالع السعد في نادي مواكبه
بسط البسيطة وهب من مواهبه
تجري ركائبها مجرى سحائبه
يجود جودا له بالبذل إكثار
**إمامنا العلوي** في مراتبه
قد فاق للمشترى الدري وكاتبه

6) السعادة الأبدية لابن المؤقت المراكشي 100/1 ـ 101. طبعة فاسية. وفي الإعلام أن وفاته كانت سنة 1295 هـ 28/7.

7) المجد الطارف والتالد 39 ـ 40. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط 588 ك.

نصر من اللــــه في لــوا كتــــائبــــه
وأصبــح الفتــح بعضـــا من مراكبـــه
سيف من الله للعداة بتار
أحيـــا بـــألــن بتيـــان عجـــائبــــه
مثـــاثراً كـــان منهـــا للرجـــاء بــــه
كمـــــال حـــن فيثني عن غرائبــــه
لـــــان شكر يبقي ذكر صـــاحبـــه
فكيف يدريه نظام ونثار
نعم الهـــاشمي الفتى مـــدي رغـــائبــه
كفّـــاه قـــد كفتـــا فضلا لراغبـــه
وشفتـــا شفتي راجي أطـــــايبــــه
وبـــالـوفـــا وفتـــا ومن مـــذاهبـــه
حيا وحلم وإغضاء وإيثار
أثـــاره شهـــدت على منـــاصبـــه
وقـــد أضـــاء الـورى أضـوا محـــاربـــه
وأنشـــدتنـــا الأمـــالي من منـــاقبـــه
(ليس الفتى بفتى لا يستضـــــاء بـــــه
ولا تكون له في الأرض آثار[8]
وممـا جـاء في قصيـدة لـه رثى بهـا السلطـان المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن :
حيّت ضريحـــــك نسمـــة الرحمـــان
وسقى ثراه سحـــــائب الرضـــوان
يـــا روضـــة فيـــك الإمـــام محمـــد
فتحت لـــــك الجنـــــة من رضـــوان
بشرى ضمت لميت الرضـــــــوان من
بحيـــــاتـــــه عـــــاش في رضــوان
إلى أن يقول :
يـوم الخميس اـــــا ومـــــا يـوم الخميـ
ـس تـنـزلـزت لمصـــابــــه الثقــلان
وانهـــد ركن الـــدين بعـــد مـؤيـــد
دين النبي بسيف وسنـــــــــــــان

وحيت لـــه الجنـــات من اتنـــائنـــا
خيرا بشكر النثر والقصـــــــــدان[9]
ونظم سنة **ثلاث وتسعين ومائتين وألف** قصيدة في تهنئة مولاي عثمان بقدوم أخيه مولاي الحسن بقصيدة أعجبته غاية الإعجاب، منها :
زارت بطلعتهـــا الحسنـــاء وسننـــا
بـــامـــة بنضيـــد الـــدر اسنـــانـــا
كـــأنمـــا الشمس شيء من محـــاسنهـــا
والبـــدر تحسبـــه رقـــا لهـــا كـــانـــا
بـــاللــه يـــاطلعـــة الإشراق هـل قمرا
قـــد كنت أو كنت قـــد خلقت إنـــانـــا
مـولانـــا سيـــدنـــا عثمـــان نخبـــة أبـ
ـنـاء الهـاشمي أسنى النـــاس رجحـــانـــا
يهنيـــك شهر صيـــامـــك وعيـــدكم
مبـــارك حـزت من مـولاك رضـوانـــا
نعم ويهنيـــك إن جـــاء البشير بمـــا
قرت بـــه العين من قـــدوم مـولانـــا
أيـــده اللـــه قـــد لا حت بشـــائره
في بـــط وجهـــك لـــلأنـــام إعـلانـــا
ذاك الشريف الـــذي أوطـــان مغربنـــا
غـــدت بـــه لغريب الـــدار أوطـــانـــا
تـــاج الـــلاطين من عرب ومن عجم
أخـوك من خـــاره اللـــه سلطـــانـــا
**الحسن الاسم والأفعـــال سيـــدنـــا**
من في سياسته قد فـاق سـاسـانـا.[10]
ولـه في وصف دار الـوزير مـوسى بن أحمـد بروض الزيتون من مراكش :
يـــا دار مـولانـــا الـــوزير الأنفس
تفـــديـــه من بـؤس جميـع الأنفس
يهنيـــك يـــا دار الحجـــابـــة سـؤدد
من ســـاكنـــك الفـــاضلين الروس

8) الإعلام 7/25 ـ 26.
9) المجد الطارف والتالد 446 ـ 448.
10) المجد الطارف والتاليد 412 ـ 413.

دار لمجـــــد أسست ومكـــــــارم
وفخـــــار عـز بــــالإلـــــه مـؤسـس
أصبحت زهراء الريـــــاض بروضــــة الـ
ــــزيتــــون أو كـــــالشمس بين الخنس

ذيَّلَها بمدح الوزير والتنويه بأخلاقه وشيمه :

ذاك المبجـــل سيـــــدي مـــوسى أبي
عمران من بعنـــــايـــــة المـــولى كـي
نــــدب يــــواسي في الإلـــــه عبيـــــده
وقــــد ائتسي بــــأبيـــــه قبـل فـلا يـي
حركـــاتـــه في اللــــه مــع سكنــــاتـــــه
بمحـــــــاسن أحسن بهـــــــا من ملبس
هين الشمـــــائــــل لين الطبيعـــــــة
فكـــــأنمـــــا أخـلاقــــه من سنــــدس
بتــــواضـــع وبشــــــاشـــــــة، بتبسم
وطـلاقــة الـوجــه الـوجيــه لجلس[11]

وكان ميالا إلى ارتجال الشعر، ومعارضة القصائد، وتخميسها، فقد سبقت الإشارة إلى تخميس بيت (ليس الفتى بفتى لا يستضاء به...) في مدحه للسلطان، وقد عرض عليه محمد الشاهد الفاسي وهما بدار الكاتب الوزير على المسفيوي بمراكش أن يخمس بيتين من قصيدة سينية، فأجابه على الفور قائلا :

إني قــــد ضقت ذرعـــــا بيــــــذي
أو حـــــود ذي لـــــــان أحــــوذي
فــــأنـــــادي بــــأولى العرف الشـــذي
(يـــــابني الـزهراء والنـــور الــــذي
ظن موسى أنه نار قبس)
قسمـــــا بـــــاللــــــه من نــــاداكم
أهـــــل بيت عظمت أنـــــــداكم
وبنـــــــــار أحرقت أعـــــــــداكم
(لا أوالي الــــــدهر من عـــــــادكم
إنه آخر سطر من عبس)[12]

وإلى جانب هذا الميل، إلى الارتجال، كان له ولع بالصنعة، والاحتفال بالألفاظ فقد نظم قصيدتين طويلتين في لزوم ما لا يلزم.

أولاهما في المدح النبوي ذيلها بمدح السلطان المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن.

والثانية في ختم البخاري[13]

وله في هذا الاتجاه أبيات في مدح حاضرة فاس أولها :

قـد حـاز فـاس مـزايـا الخير سـاكنـه
حتى الأحـــابيش منهم وزرزايــــــه[14]
فـــزر أهـــــاليـــــه حتى زرازرهم
وإن رمت اسم زرازي فـــزد زايــــــه

...وقد عرضها على طلبة فاس ومكناس فعجزوا عن إضافة أبيات لها وإجازتها (من جهة هذا اللزوم في القافية، إذ ليس له مثال من كلام العرب).[15]

- **الصنف الثاني :** قصائد في المدح النبوي والتوسل بأولياء المشرق والمغرب، فقد تضافرت أسباب وشروط جعلت الأدب العلوي يطبع بهذا الطابع الديني التوسلي.

فمن مطولاته في مدح الرسول والتوسل به، قصيدة في حوالي مائة وأربعين بيتا، نظمها سنة تسع وثمانين ومائتين وألف، منها :

قـد بـان مـذ بـان أعمـــامي وأخــوالي
عني تقلب أعمـــــــالي وأحــــــوالي

---

11) القصيدة في 29 بيتا في المجد الطارف والتالد 402 ـ 403.

12) يقصد آخر سطر من أبيات سورة عبس، أي قوله تعالى : ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾. الإعلام 24/7.

13) المجد الطارف والتالد 418 ـ 422.

14) علق الأستاذ عبد الوهاب بمنصور على الشطر بقوله : المراد بالأحابيش العبيد السود، أما زرزاية مفرد زرازي فهم حمالون خصوصيون ينتمون إلى قبيلة اولاد سيدي عيسى بجهة ملوية. يكونون بالأسواق التجاوية يحملون في النهار بضائع التجار ويخدمون الناس ويحرسون الأسواق في الليل. وهم مشهورون بالأمانة والاستقامة. (هامش رقم 1 من الإعلام 27/7).

15) الإعلام 27/7.

أبيت ليلي مسهّد الجفون وقد
نبى بي الوطن النائي عن أهالي
ولم أذق لذة الكرى من الكرب الـ
تي يذيب بها بلبالها بالي
إلى أن يقول :
هو المخلص في دنيا وآخرة
من العذاب ومن ذنب وبلبال
المصطفى قبضة الرحمن وصفوته
في كل حضرة اطلاق وتمثال
المصطفى السدرة التي هي لا
هوت الجمال وناسوت الإيصال
واستعرض بعد ذلك المعجزات والأوصاف والشمائل النبوية... وختمها بالتوسل :
فاذكر عبيدكم **الأمين** بين يدي
مولاي يمحو لآثامي وأثقالي
أقول يا سيد الأرسال أنت لها
فما سواك لها يا خير إرسال
يارب هب لي شكر المصطفى كرما
مأتم الفعل من برور أقوال[16]
- وقال عند قبر الرسول قصيدة مطلعها :
أهاج الهوى طيف الخريدة للنهى
فبات النهى مثل المزرج إذ دهى
مما قاله منها في مدح الرسول :
ألا يا رسول الله يا خير من أتى
نواله راج فوق وجناء يمتهى
ويا خير من قيلت عليه قصائد
ويا خير من أعطى الجزيل لمده
أتيتك من بعد لنيل مآربي
قطعت لها الإسهاب ف يكل مهمه
عساي أنال الفوز طه بمدحكم
وأنظر يوم الحشر في وجهك البهي[17]

- ومن أطول قصائده وأحسنها القصيدة المنفرجية «التي تقع في زهاء ثلاثين وأربعمائة بيت، قال بأنه كان يجد لقراءتها بركة، فأهدى نسخة منها للسلطان أولها :
صل يا رب على نور الهدى
كاشف الكرب ومفتاح الفرج
وسلام فاح بالمسك على
قبر مسك ضمه سامي الأرج
قف على ربع حمى الحي وعج
أيها البرق المجازي وانعرج[18]
الخ...
- وقال في الفرح بالمولد النبوي مطولة نكتفي بذكر مطلعها :
أهلا وسهلا بشهر سيد الرسل
روح الوجود وعن العالم الأزل[19]
ومن تخميساته المبتكرة في مدح الرسول :
بشرى بطالع السرور
بشرى بسيد البدور
بشرى أتى شهر البرور
فتوح خيره درور
بالنفحات الهمل
يا مولد أبرزها
دين الإله وازدها
وسرنا به ازدها
بسوده لما دها
في فضله والفضل[20]
- ومن لزومياته في ختم صحيح البخاري، المذيلة بمدح المولى محمد بن عبد الرحمن :
حذا حاذي حديث من حذام
فدمعي مرسل قد سح دامي
فيا حاذي أدر بين الندامى
حديثهم الذي عندي مدام

16) المجد الطارف والتالد 456 ـ 462.
17) تزيد على مائة بيت، المجد الطارف والتالد 451 ـ 452.
18) أورد منها في المجد الطارف 38 بيتا، 453، 455.
19) في 230 بيتا، المجد الطارف 468 وما بعدها.
20) المجد الطارف والتالد 322 ـ 323.

قال منها في مدح المولى محمد :

شريف من شريف من شريف
تسلسل مجده العالي التمام

إمامته مكملة شروطا
بشرع نبينا وعلى التمام

ليهنيك اختتامك للبخاري
بشهر الصوم يا حسن اختتام[21]

ومن غرر لزومياته، قصيدة في مدح الرسول، استهلها بالغزل وذيلها بمدح السلطان المذكور، منها :

ركائب الشوق للحجاز أجراها
أناشد الركب باسم الله مجراها

والركب قد يممت نجدا ركائبه
تنهل صغرى دموعه وكبراها

فباب طيبة دار المصطفى العربي
خير البرية أولاها وأخراها

هو النبي الحجازي الذي افتخرت
بجاهه مضر الحمرا وحمراها

فخر النبيئين تاج المرسلين ومن
بالزهد لم يرض بيضاها وصفراها

هو الإمام أمير المؤمنين لنا
رحما من الله قد عمت بشراها

تاج السلاطين في الإسلام أجدرهم
طرا بأمداح قصدان وأطراها

ضاء المساجد في قرى وفي مدن
تزهو وتزهر بالقرآن قراها

جارى لأسلافه الأشراف في سير
شريفة ناف خيره حين جاراها[22]

والى جانب الأمداح النبوية للأمين الصحراوي قصائد في مدح الأولياء، من المشرق والمغرب. فقد قال في التوسل بالشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية :

لذ بالمغيث من الزمان الفان
بالغوث في علم وفي عرفان

العارف القطب ابن طه أحمد
الطاهر العلامة الرباني

الركن الأعظم عند كل عظيمة
وملمة من عالم الحدثان

فاذا رمتك من الحوادث نكبة
شاب الرضيع بشرها الفتان

فكل الأمور إلى الإله وأهله
واحمد له بالهيكل الصمد ان

شيخ الهدى من للجهالة قد جلى
مولانا عبد القادر الجيلاني

وقد وصله عليها السلطان المولى عبد الرحمن، والقائد عبد الله الحيحي صلة سنية.[23]

- وله في مدح المولى إدريس تاج مدينة فاس قصيدتان، مما جاء في الأولى :

مولانا إدريس من للغرب مفتاح
ومن لكل فتوح الخير فتاح

مولانا إدريس من لاحت بشائره
ببره، والورى ببره باحوا[24]

ومما ورد في الثانية :

زر قبر نور بنور الله محروس
وروضة من رياض القدس مغروس

زره وحط به الأوزار تفز بما
أملته فالامداد مبجوس[25]

- وكانت له محبة خاصة برجالات مراكش كما أسلفنا، يزورهم كثيرا ولا سيما الجزولي والغزواني منهم،

---

21) في 66 بيتا، المجد الطارف والتالد 421 ـ 424.
22) المجد الطارف والتالد 418 ـ 421.
23) المجد الطارف والتالد 258 ـ 262، وهي في 84 بيتا.
24) في 43 بيتا، المجد الطارف والتالد 385 ـ 387.
25) في 55 بيتا، المجد الطارف والتالد 391 ـ 392.

وله فيهم قصيدة طويلة تشتمل على حوالي ثمانين بيتا، مطلعها :

كرامات أهل الله في المسند الثبت

عن الله والرسل الكرام على البت[26]

بهذه القصائد والمعارضات الشعرية يُعدّ محمد الأمين الصحراوي الشنجيطي أحد شعراء القرن التاسع عشر من أمثال محمد بن إدريس، وابنه ادريس بن محمد العمراوي، وأكنسوس... وغيرهم من رواد النهضة الشعرية الحديثة. إلا أن شاعرنا لقي من الإهمال والنسيان ما جعل الباحثين والكتاب يغفلون ذكره، ويهضمون حقه.[27]

وقد كان من أهدف هذه المقالة التعريف به ووضعه في مكانه المناسب، على أن نعود في فرصة مقبلة إلى تحليل شعره الغزير ودراسته على انفراد. وقد سمحنا لنفسنا بالإكثار من الأمثلة وإطالتها ما دام هذا الشعر ينشر - في أغلبه - **لأول مرة.**

**مؤلفاته :**

ذكر له صاحب «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»[28] **المؤلفات** التالية :

- المنهج المختار، والكوثر المدرار، في مناقب الشيخ وأشباحه الأبرار.

وهو في التعريف بالشيخ المختار الكنتي، شيخ الطريقة المختارية الكنتية.

- مقدمة الارتجال في مشاهير سبعة رجال، كان بمثابة مقدمة لكتاب الارتجال.

- الارتجال في مناقب ومشاهير سبعة رجال، ومن اشتهر في مراكش أو دخلها من مشاهير صلحاء الرجال.

- المجد الطارف والتالد على أسئلة الناصري سيدي احمد بن خالد.

رد فيه على أسئلة بعث بها إليها المؤرخ المذكور في رسالة تحت عنوان :

(رسالة في تحقيق أمر سبعة رجال دفناء مراكش).[29]

- ونسب له محمد بن محمد المؤقت المراكشي كتابا تحت عنوان :

تأليف في ضجيعي أبي العباس السبتي.[30]

والملاحظ أن كل مؤلفاته تدور حول موضوع التصوف ومناقب الأولياء، وهو الموضوع الذي استأثر باهتمام الشعراء والكتاب والمؤلفين على السواء في هذا العصر.

ووصلنا تأليفان فقط من مؤلفات الصحراوي، هما :

**1 - مقدمة الارتجال، في مشاهير سبعة رجال :**[31]

عزم محمد الأمين الصحراوي على تأليف كتاب في مناقب سبعة رجال مراكش والتعريف بمن اشتهر فيها أو دخلها من مشاهير صلحاء الرجال. إلا أن الظروف لم تسعفه، فاكتفى بكتابة مقدمة الكتاب، ويوجد ضمن مخطوطات الخزانة الحسنية بالرباط.[32]

يقع في أزيد من ثمانين ومائتي صفحة. ألفه سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف. وكان ذلك بطلب من أحد أصدقائه (قد طلب مني من لا يسعني إلا مساعدته لا مخالفته... مجموعا في وفيات رجال هذه الحضرة المراكشية... فامتثلت أمره).

---

26) المجد الطارف والتالد 195 - 199.

27) لم يذكره محمد الأخضر في كتابه الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، طبعة دار الرشاد، الدار البيضاء 1977.

28) انظر الجزء الأول صفحات 31/224/225/273، والجزء الثاني ص 363.

29) انظر الاستقصا 28/1 - 29.

30) السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية 101/1.

31) سبعة رجال مراكش هم حسب ترتيب الزيارة :

- يوسف بن علي الصنهاجي المتوفى سنة 593 هـ.
- القاضي عياض المتوفى سنة 544 هـ.
- أبو العباس السبتي الخزرجي المتوفى سنة 601 هـ.
- محمد بن سليمان الجزولي المتوفى سنة 870 هـ.
- عبد العزيز بن عبد الحق التباع الحرار المتوفى سنة 914 هـ.
- عبد الله بن عجال الغزواني المتوفى سنة 935 هـ.
- عبد الرحمن السهيلي المتوفى سنة 581 هـ.

32) رقم 194، يقع في 282 صفحة.

ويبدو من العنوان الذي وضعه لمؤلفه، أنه لم يكن ينوي الاكتفاء بذكر سبعة رجال، وإنما التعريف بكل من دخلها من الأعلام (...سواء كان مقامهم فيها أو في غيرها).[33]

وهذا مطمح كبير يتطلب تنفيذه المجلدات. ولعل هذا ما يفسر طول مقدماته.

وقد تمكن عباس بن إبراهيم المراكشي من تنفيذ بعض هذا المشروع فيما بعد في كتابه : الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام.

وقال المؤلف عن مقدمات كتابه (وقد قدمت أمام المقصود مقدمات تتضمن فوائد لا غنى عنها : في فضل العلم وأهله، وبعض ما فتح الله عليّ من فتوته... وختمت المقدمات بمقدمة هي خاتمة مسك المقدمات في نسب سيد البشر وبعض سيرته وخلفائه ومن دخل المغرب من الصحابة... وبدأت قبل شروعي في تراجم الأولياء بتاج مفرق أولياء المغرب المولى إدريس).

وهذه المقدمات هي :

- الأولى، في بيان معنى التاريخ.
- الثانية، في السبب الباعث على التأليف.
- الثالثة، في ذكر الآيات والأخبار والآثار والأشعار الواردة في فضل العلم والتعليم.

والمقدمة الثانية هي أهم المقدمات لأنها تلقي الأضواء على حياة المؤلف، وعلاقته بالسلطانين المولى محمد وابنه المولى الحسن وبوزرائهما وعلماء دولتهما. وجولاته داخل المغرب، واتصاله برجالاته، ورحلته إلى الحج عبر مصر، واتصاله بعلماء المشرق مما لا يوجد في غير هذا الكتاب.

أما البواعث على التأليف في هذا الموضوع، فهي :

1 - ما كان يسمعه منذ صغره عن بعض أفراد أسرته من ذكر لسبعة رجال مراكش وأخبارهم، فاهتم في كبره بموضوعهم.

2 - الإكثار من ذكر الصالحين وأهل الخير ورواية طرف من أحوالهم.

3 - أن ينتفع به أفراد الأمة المحمدية.

4 - التفكر والاعتبار بأحوال السلف الصالح، واتفاقهم على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

5 - في فضل التواليف والكتب، وذكر طرف من فوائدها.

كتب هذه المقدمات في حوالي السنة. ذلك أنه ذكر سنة ثلاثة وتسعين ومائتين وألف في بداية الفصل الأول منها، وعرض على الناس في مستهل سنة أربع وتسعين ومائتين وألف.

وكان الناصري من العلماء الذين قرظوا الكتاب. وطرح أسئلة على المؤلف حول سبعة رجال، طلب منه الإجابة عنها في مؤلفه «الارتجال» أو تخصيص مؤلف لذلك. ففضل الأمين الصحراوي الاقتراح الثاني، وخصص كتابه «المجد الطارف والتالد» للجواب.

ويبدو أن ما كان يعتزم قوله في الارتجال، قد ورد في «المجد الطارف»، فأصبح إتمامه من النوافل. هذا مع العلم أن الزمن الفاصل بين الفراغ من تأليف «المجد الطارف» ووفاة الصحراوي كان قصيرا، ولا يكفي لتنفيذ مشروع كالذي وضعه المؤلف، والذي سينجزه عباس بن إبراهيم المراكشي في عدة عقود.

قدم الصحراوي هذا الكتاب **للمولى الحسن الأول** فأجازه عليه بذهب كثير، وزعه المؤلف على الفقراء والمحتاجين لما اشتهر به من زهد في الدنيا، وإعراض عن متاعها. وقرظه من علماء العصر :

- عبد الرحمن الشرقي.
- القاضي محمد الدخي الأزموري.
- والمؤرخ أحمد بن خالد الناصري.

33) الارتجال ص 100.

### 2 ـ المجد الطارف والتالد على أسئلة الناصري أحمد بن خالد.[34]

ألفه كما هو واضح من العنوان في الرد على أسئلة المؤرخ أحمد بن خالد الناصري التي وجهها إليه بعد اطلاعه على مقدمة الارتجال. وقد أشار المؤلف إلى ذلك في مقدمة الكتاب، فقال :

(قد طلب منا محبنا الأخ في الله تعالى المؤرخ المشارك أبو العباس سيدي أحمد بن خالد الناصري السلوي، أن نطلعه على بعض ما ألفناه من مقدمة كتاب الارتجال... وحين اطلع عليه... كتب على هامش المقدمة ما نصه : «الحمد لله... أسعد الله بمنه أوقات حبنا وسيدنا الفقيه العلامة المشارك المتقن أبي عبد الله سيدي محمد الأمين... هذا وإني قد وقفت على مابعث به سيادتكم من مقدمنا وإني قد وقفت على مابعث به سيادتكم من مقدمة كتاب الارتجال، فسرحت النظر في رياضه، وأنهلت الفكر في حياضه، واقتطفت زهره، والتقطت دره...).

وكان الجواب مؤرخا في الواحد والعشرين من محرم عام أربعة وتسعين ومائتين وألف.

قال الأمين الصحراوي : (...وبعد ذلك بمدة بعث لنا بكتاب آخر، مع أسئلة قيدها، تتضمن بعض ما نحن بصدده من التعريف بمشاهير سبعة رجال... فلبيت دعوته بالإسعاف، لما رأيت فيه من كمال الإنصاف).[35]

**أما نص الأسئلة فهو :** (...هذا وموجبه تجديد العهد لكم والسؤال عن سني أحوالكم... ثم الالتماس من كرمكم السامي، وبحر علمكم الطامي، أن تنظروا في كلام اتفق لي جمعه من غير قصد، أول صدره ملخص من «الكواكب السيارة»[36]، وعجزه سنح به الفكر العقيم، والخاطر السادر... كوجه الترتيب في زيارة الشيوخ السبعة، ووجه الاقتصار على الإشادة بهم والابتهال بجاههم، وكشان المزارات الثلاث المذكورة آخرا التي بكل منها سبعة أقبر، وأولية ذلك وسببه. ويكون الجواب مختصرا في قطعة على حدة. وما كتبت لكم بهذا إلا التماسا من برككتكم، واغترافا من مددكم. والعلم كما علمتم يحيا بالمذاكرة. ولم نجد الآن أحدا أولى بهذا الجواب منكم).

كتب هذه الأسئلة في عاشر صفر عام أربع وتسعين ومائتين وألف.

ونلاحظ ما حظي به المؤلف من احترام وتقدير صاحب كتاب الاستقصا.

**ـ جواب محمد الأمين الصحراوي :**

قال عنه في المقدمة :

(وبعد أن شرعت في الجواب، سنح لي سفر لزيارة مولانا إدريس، وزيارة **مولانا أمير المؤمنين المولى الحسن**. وحين أبْنا من سفرنا المبارك في أواخر رجب بالتاريخ المذكور، شرعنا في تكميل الجواب، والله الموفق للصواب)[38]

واستهله بقوله.

(...أما بعد، فقد وصل كتابك الباهي، وأعجبني خطابك الزاهي، فلله أيها السيد الحلاحل أبوك، فلا فض فوك، فيما سمح به فكرك السالم غير السادر...).[39]

وعبر عن حبه الكبير للأولياء، وارتياحه لقراءة أخبارهم، وأورد أحاديث نبوية في الموضوع، مشيرا إلى حسن نية السائل، ورغبته في الاطلاع على أخبار سبعة رجال وما يتعلق بزيارتهم.

ثم شرع في الجواب، وقسمه إلى ثلاثة أقسام :

**1) القصد بإطلاق اسم سبعة رجال، لهذا الإطلاق وجهان :**

---

34) مخطوط الخزانة العامة بالرباط 588 ك / في مجلد، مجدول، ملون، بخط مغربي واضح، مسطرته 20، و 10 كلمات في السطر. في 486 صفحة.

35) مقدمة المجد الطارف والتالد 1 ـ 2.

36) كتاب محمد المكي بن مريدة المرغيني في الرد على رسالة المولى سليمان حول زيارة سبعة رجال وإحياء ذكراهم.

37) المجد الطارف والتالد 3.

38) المجد الطارف والتالد 2.

39) المجد الطارف والتالد 18.

- **عام**، من مرسلات المجاز الذي هو إطلاق البعض على الكل. وبذلك فإن المقصود بسبعة رجال مجموع أولياء المدينة على وجه التفصيل.

مثل لذلك بقوله أن المراد بأن القرآن على سبعة أحرف، يقصد به الكثرة، وساق أمثلة أخرى على إفادة السبعة للكثرة.

- **خاص**، قصد الرجال السبعة على وجه التحديد بأسمائهم المعروفة.

2) **أما سبب ترتيب الزيارة**، فيقدم له المؤلف المبررات التالية :

أ) طوافهم كطواف الكعبة، يبدأ من الشرق إلى الجنوب (من أبي يعقوب إلى السهيلي).

ب) أن أهل مراكش يدفنون موتاهم بمقبرة باب أغمات، فيخرجون لزيارتهم في الجمع والمناسبات، وهم في ذلك أربعة أصناف :

- صنف يكتفي بها ويرجع للبلد.
- وصنف يزور بعدها يوسف بن علي وحده.
- وثالث يزور بعد يوسف ما تيسر من أضرحة الأولياء.
- وصنف يراعي الزيارة على وجه الترتيب والكمال.

وهذا ما يبرر البدء بباب أغمات، أو بشرق المدينة.

ج) إذا خالف الزائرا هذا الترتيب حدث له تعب بالرجوع القهقرى، أما إذا سار عليه فإنه ينتقل من محطة إلى أخرى بيسر إلى أن يختمه.

أما عكس الترتيب بالبدء من السهيلي إلى يوسف، فلا ينبغي ـ في اعتقاد المؤلف ـ اتباعا للسلف، والخير في الاتباع. خصوصا وأنه يجب مراعاة تقليد طواف الكعبة من الشرق إلى الغرب. أما في حالة العكس فسيتم الطواف من الغرب إلى الشرق.

وأما عن أول مخترع للزيارة فيقول المؤلف.

(الله تعالى أعلم بذلك، ما وقفنا على شيء منه، ولو كان طلبة مغربنا يعتنون بإحياء مآثر علمائهم وبلدانهم كما هو داب أهل المشرق والأندلس، لكان ذلك مدونا وتتلقاه العامة والخاصة..)[40].

ويقدم تاريخا تقريبا وهو صدر القرن العاشر أي بعد وفاة الغزواني آخرهم زمنيا.

وسبب تخصيصهم بهذا الاسم بهذا الاسم وبالزيارة دون غيرهم، أنهم كانوا كالأطواد والأركان في البلد واحداً بعد واحد، وزيارتهم بهذا الترتيب يندرج فيها أغلب أولياء المدينة.[41]

3) **وعن المزارات الثلاث التي تحمل نفس الإسم**، والوارد ذكرها في «الكواكب السيارة» (موجودة بحومتي : الموقف، والزاوية العباسية) لم يجد جوابا شافياً، فعلق على الموضوع بقوله :

(ما رأينا من تعرض لها ولا لرجالها إلا قول العامة. ولكن كم من مزارة في هذه البلاد وغيرها تزار ولا قبور فيه، وإنما كانت فيها أنفاس أهل الله في الحياة، فكانت محلا لتعبداتهم، أو رئيت فيها روحانية ولي، فحصلت بركته).[42]

وأعطى أمثلة لذلك بخلوة الكتبية، وخلوة أبي العباس السبتي في جبل جيليز وغيرها.

وخلال الإجابة على أسئلة الناصري، يقدم المؤلف معلومات عن سبعة رجال وتراجمهم بتفصيل. ومختارات من صلواتهم وأدعيتهم. إلا أن عدم اطلاعه على كتب مهمة في الموضوع مثل : «درر الحجال» خلف ثغرات كبيرة في إجاباته. وبدت اجتهادات اليفرني في كتابه المذكور مقنعة وشاملة، في حين يكتفي محمد الأمين الصحراوي بتوجيه اللوم للقدماء الذين لم يعنوا بتدوين أخبار الأسلاف في اعتقاده، إلا أنه مع ذلك يعتبر من أهم مصادر محمد الغالي بن المكي الأندلسي في كتابه «بادرة الاستعجال»، وعباس بن إبراهيم المراكشي في كتابه «إظهار الكمال».

40) المجد الطارف والتالد 27.
41) المجد الطارف والتالد 173.
42) المجد الطارف والتالد 200.

لقد كان حظ سبعة رجال مراكش من الكتاب ـ الذي يشتمل على زهاء خمسمائة صفحة ـ ضئيلا. لأن منهج المؤلف يعتمد ـ كما هو شأن أغلب كتب التراجم والطبقات ـ على الاستطراد وجمع المعلومات والفوائد، بغض النظر عن علاقتها بالموضوع :

ـ فمن ترتيب الزيارة استطرد إلى الحديث عن الكعبة والطواف حولها وأركانها.

ـ وعندما بلغ مقابر الأشراف من مدار الزيارة، استطرد إلى الحديث عن **العلويين وتاريخهم وملوك دولتهم، وحكم المولى الحسن**، ونظم أرجوزة في الموضوع.

ـ رسائل الشوق إلى المدينة، وحكم زيارة القبر النبوي، وأقوال العلماء في ذلك، وكيفية زيارة السلف له، وما يقال في المناسبة من أدعية وتوسلات.

ثم الحديث عن المفاضلة بين مكة والمدينة، ورسم الروضة، والتعريف بها ووصفها في رسالة مستقلة عنونها بـ **(الدرة المنيفة، والمقالة الطريفة، في صفة الحجرة والروضة الشريفة).**

ـ ومن ابن العريف وابن برجان، استطرد إلى الحديث عن علم أسرار الحروف، وما كتبه ابن خلدون في الموضوع. ونظرية هذا الأخير في العصبية والملك، وساق نماذج عملية مثل لها بدولة الأدارسة بالمغرب، فلخص تاريخهم وذكر ملوكهم.

ـ ومن الحديث عن سبعة رجال، تحول إلى الحديث عن القراءات السبع، وجمع القرآن والتعريف بمشاهير القراء...

وكان يدرك ذلك تمام الإدراك، بإعلانه عن الرجوع إلى الموضوع (رجع إلى تمام الكلام عن الغزواني... ولنرجع إلى ما كنا بصدده في ترتيب الزيارة... رجع وعود وانعطاف إلى سؤال الأخ / حفظه الله /...).[43]

ومن مظاهر الاستطراد لديه، ولعه بالتراجم والتواريخ، فقد عرف بأغلب الأولياء المذكورين في مدار الطواف، وذكر مؤلفاتهم ونماذج من شعرهم أو كلامهم أو أدعيتهم. وعرف كذلك بمؤلفي المصادر التي اعتمدها في مؤلفه مثل ابن الزيات التادلي صاحب التشوف، ومحمد المهدي الفاسي صاحب الممتع، واليوسي صاحب المحاضرات، والقادري صاحب النشر... وغيرهم من العلماء الذين تتكرر أسماؤهم، أو يعرض آراءهم أو ينقل عنهم.

ولعله تعمد ذلك اعتبارا لملاحظاته السابقة عن إهمال المغاربة للتعريف برجالاتهم، وتسجيل أخبارهم. فأسهم بهذه الاستطرادات في معالجة هذا النقص، وسد تلك الثغرات.

وبالرغم من ضآلة المعلومات المقدمة عن سبعة رجال مراكش، وميل المؤلف إلى الاستطراد، فإن كتاب «المجد الطارف والتالد» لا يخلو من قيمة :

أ ـ يقدم نماذج لبعض القضايا التي كانت تشغل بال عامة الناس في هذا العصر، والمثقفين منهم خاصة، فالمؤلف كان من موظفي المخزن، ومن أبرز شعراء العصر وفقهائه. والمائل تقلب بدوره في عدة وظائف مخزنية، وكان عالما فقيها مؤرخا، يعد كتابه «الاستقصا» أشهر كتب تاريخ المغرب على الإطلاق.

فبعد فتور التحمس للحركة الوهابية، وأمام عزلة المغرب، وارتفاع الضغط الأجنبي عليه، كان الرجوع إلى الأولياء، والتوسل إليهم سبيلا من سبل العزاء وطلب الفرج والحماية والعون.

2 ـ شاهد على عقلية صنف من الطبقة المستنيرة كانت تومن بالكرامات وتوظف المنامات والرؤى والروايات الأسطورية، وتعتبرها مصادر في التاريخ والكتابة. وما أكثر هذا النوع في كتاب «المجد الطارف والتالد».[44]

3 ـ في الكتاب معلومات مهمة عن حياة المؤلف ورحلاته وعلاقته برجالات عصره من مختلف الطبقات والمستويات. وعن الوظائف التي تقلدها والمهام التي نيطت به في بعض المدن المغربية، وخاصة مدن : مراكش والرباط ومكناس وفاس.

43) ورد ذلك على التوالي في الصفحات 66 ـ 57 ـ 173...

44) المجد الطارف والتالد 203 و 250.

4 ـ ويشير الصحراوي إلى بعض الموضوعات التي سيتعرض لها بتفصيل في كتابه «الارتجال».

وإذا كانت الظروف لم تسمح له بإتمامه، فإنه عرفنا على الأقل بخطته وبعض موضوعاته.

ويبدو أن كتابة «المجد الطارف» كانت وراء زهده في إتمام تأليف الكتاب الذي كتب مقدمته. ذلك لأنه سيضطر إلى تكرار نفسه وترديد هذه المعلومات القليلة التي جمعها عن سبعة رجال.

5 ـ ويؤرخ الكتاب لجانب من حكم المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن، والمولى الحسن. ويقدم أهم الأحداث، وأسماء الوزراء وكتاب موظفي المخزن، وبعض منجزاتهم وما قيل فيهم من شعر...

وتأتي أهمية هذه الأخبار من موقع المؤلف منها، فقد عاشها وساهم في صنع كثير منها. ويعد بذلك شاهد عيان لا مجرد ناقل أو راو لها.

6 ـ والكتاب ديوان شعر خاص بالمؤلف وببعض معاصريه. فعلى غرار ما ورد في مقدمة «الارتجال» يسجل ما قاله من أشعار في المدح والتوسل. وقد بلغت القصائد التي نظمها تسع عشرة قصيدة، يقع بعضها في أزيد من مائتي بيت.

بناء على هذه الميزات الأخيرة، يمكن اعتبار «المجد الطارف والتالد» من المؤلفات الجديرة بالدرس والتنويه، والتي يمكن الاستفادة مما تحويه حول فترة الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلاد) بالمغرب.

## خاتمة :

وهكذا فإن الأمين الصحراوي وجه من الوجوه البارزة في الثقافة المغربية في فترة من أزهى فترات **الدولة العلوية المجيدة** عسى أن نكون قد وجهنا إليه العناية، وأنصفناه بهذه المقالة المختصرة من الزمان الذي أسدل عليه ستار النسيان والإهمال... وما أكثر من هم بحاجة إلى ذلك من علمائنا وأدبائنا من مختلف مناطق المغرب العظيم.

## المصادر والمراجع


- عباس بن ابراهيم المراكشي.
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج 7.
المطبعة الملكية 1977.

- عبد السلام بن سودة المري.
2 ـ دليل مؤرخ المغرب الأقصى.
طبعة 2، دار الكتاب، الدار البيضاء 1960.

- محمد الأخضر.
3 ـ الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية
طبعة دار الرشاد الدار البيضاء، 1977.

- محمد الأمين الشنجيطي الصحراوي.
4 ـ المجد الطارف والتالد على أسئلة الناصري سيدي أحمد بن خالد.
مخطوط الخزانة العامة بالرباط 588 ك.

- محمد الأمين الشنجيطي الصحراوي.
5 ـ مقدمة الارتجال.
مخطوط الخزانة الحسنية رقم 194.

- محمد المكي بن مريدة السرغيني.
6 ـ الكواكب السيارة في البحث والحث على الزيارة.
مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 479 ك.

# في مضمون العمل الإنمائي بالمغرب الحسني

الأستاذ المهدي البرجالي

التهافت الاستعماري ـ خلال القرون الأخيرة ـ في اتجاه بسط النفوذ على البلدان الإفريقية والآسيوية وغيرها واستطاعة الدول المستعمرة تحقيق أهدافها في هذا النطاق ـ لم يكن ـ في محصلته الأخيرة إلا نتيجة حتمية لحالة التفاوت الشاسع بين المهاجمين (بالكسر) والمهاجمين (بالفتح) في مستويات القوة والمقدرة والإمكانات المادية والتنظيمية وما يرتبط بالأمر، ويتداخل فيه من عوامل مبعثها حالة التطور الفكري والعلمي والتقنولوجي عند احد الطرفين، وحالة الاحتقان والتقوقع، على مستويات شتى لدى الطرف الآخر.

لقد استمدت قصة الاستعمار بذورها الأولية ـ إذا جاز أن ينظر إلى الأمر بهذا التبسيط الشديد للأشياء من واقع التحول العالمي الذي تركزت ـ بموجبه ـ بدأ من مطالع العصور الحديثة ـ ديناميكية التطور في الغرب وفقاً لمفاهيم علمية جديدة متطورة ومبدعة لا مقارنة بينها، وبين جملة المفاهيم التي سارت عليها وتيرة الحياة الفكرية والعلمية في المناطق الأخرى من العالم، الأمر الذي نجم ـ فيما نجم عنه ـ عدد من الإفرازات التي تكيفت بها وجهة التاريخ العالمي الحديث، واتخذت بها كثير من وقائعه، أشكالاً معينة؛ ومن ذلك :

1) تصور القوى الاستعمارية، أن المجال مفتوح أمامها، لإقامة نظام عالمي على مقاس منظورها الخاص، المستمد من فكرة تفوقها الساحق على غيرها من مناطق المعمور، وكفاءتها لترجمة هذا التفوق الحضاري، إلى تفوق عملي، منظور في السيطرة على مقاليد أمم القارات الأخرى ومقدراتها بشراً وأرضاً وموارد، ووضعها موضع القاصر، الموصى عليه، أو امتلاكها امتلاكاً شمولياً مستديماً.

2) شعور هذه القوى بسعة ميدان المناورة أمامها في سياق تحركات مغامرة من هذا القبيل، حيث الذرائع عديدة ومتنوعة (استكشاف العالم، تبادل مصالح تجارية مع سكان محليين الخ..) لاتخاذ مواطئ قدم في منطقة أو أخرى من مناطق الأرض، والارتكاز فيها على منحى توسعي أو استيطاني أو نحوه، ومحاولة تحويل الخريطة العالمية في خلفية ذلك، تحويلاً، تتكرس من خلاله معادلات جغرافية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية ذات مضامين معينة.

3) تأكد هذه القوى من ضمانات الربح السريع

والأكيد، كنتيجة لسياسة التمدد والتوسع المخطط لها، معتمدة في ذلك حسابات محددة، قوامها، أنه اذا كانت قدرات المستعمرة تمكنه من ممارسةالغزووالاستيلاء وفقاً لما يريد، فإن الأسلاب والغنائم ومواطئ القدم التي تتأتى له من ذلك، قمينة بأن تخوله المزيد من القدرة على اكتساح مناطق أكثر، والتحكم في مقدراتها. وهكذا دواليك.

وفي مقابل هذه الملابسات التي داخلت بعض رؤى التوسع الأوربي غداة بدء انسياحاته الكبرى في أرجاء العالم، كانت هناك تصورات موازية لدى رواد هذا التوسع عن الشعوب المعرضة كهدف، لمشاريعهم الهيمنية، ومن هذه التصورات فيما يبدو :

1) عسرالحال على الشعوب هذه، حينما يتعلق الأمر بإمكانية تحول مناعتها المتمثلة في مجرد رفض مبدأ التسلط الأجنبي المفروض، إلى مقدرة ـ بوجه ما ـ على رد هذا التسلط، وفل شوكته، وإقصائه في المحط الأخير.

2) اعتماد فاعلية تأثير «الأدوات الحضارية» المتوفرة في إعشاء أبصار هذه الشعوب، وتقليص حدة مقاومتها ـ بالتالي ـ للتسلط المنصب عليها.

3) استغلال حالة العزلة الجغرافيةوالمواصلاتية التي كانت تفصل بين عدد من الشعوب التي تعرضت للهجومات الاستعمارية ـ بعضها عن بعض، والإفادة ـ بالنتيجة ـ مما كان يلزم عن تلك العزلة من ضعف، أو ربما، انعدام التعاون والتناسق بين البلدان المعرضة للغزو، وغياب أي جهد ممنهج أو تجاوب على صعيد إقليمي أو قاري، وأحياناً، حتى على مستوى البلد الواحد، لمواجهة الغُزاة، أو التصدي لهم.

☆ ☆ ☆

على هذا النسق، يرى المرء لمحات مما كان للتفاوت الحضاري ـ بالمقاييس الحديثة المتطورة ـ من مداخلات بعيدة الغور في حبك خيوط التحولات التاريخية التي أدت إلى أن قطاعاً معيناً من العالم، هو الغرب، قد توصل ـ خلال القرون الأخيرة ـ إلى «وضع اليد» على شتى القطاعات الأخرى من المعمور التي تعرف اليوم بـ «الجنوب» أو العالم الثالث؛ وذلك قبل أن يجد التاريخ سبيله في مجرى قرننا الحاضر ـ إلى إنهاء الامبراطوريات الاستعمارية التقليدية، وتشكيل الصورة الجديدة، والمتغيرة ملامحها، التي عليها النظام الدولي الراهن.

وبصرف النظر عن الجوانب المتعددة والمعقدة للصراعات الطويلة، التي أفضت إلى هذه الحال، فإن الملحوظ في نطاق أساسي ـ أن اعتداد القوى الاستعمارية بتفوقها العلمي والتقنولوجي، ورفض الشعوب للانسحاق أمام هذا التفوق، وتصميمها على مجاوزة تأثيره عليها، بمجرد احتفاظها بصمودها في مجابهته، وتقوية قدراتها في هذا الاتجاه، كل ذلك قد شكل فصولاً هامة من مجمل قصص المواجهات التي احتدمت ـ على نطاق طويل ـ بين أطراف النظام الاستعماري الغربي، وبين أهالي المناطق الكثيرة التي أرغمت على الخضوع له؛ وقد اتخذت هذه المواجهات أشكالاً مباشرة أو ضمنية عديدة؛ إلا أن محور الارتكاز فيها، ما برح يتمثل في التناقض الشامل بين المفهوم الوطني للتطوير والإنماء في البلدان الساعية آنذاك للتحرر من الربقة الأجنبية، وبين الفهوم الاستعماري بهذا الشأن؛ فقد انطلق المستعمر دوماً في تصوره لعمليات التعميروالتحديث من منظور قوامه تسخير الأرض والإنسان والموارد على اختلافها تسخيراً لا أفق له، إلا ما كان من ذلك الأفق، المتعينة سبله ومقاصده بالاعتبارات الاستعمارية المألوفة؛ وفي الاتجاه المعاكس، كان منطلق التصور الوطني لمعنى ومحتوى أية ديناميكية تطوير على مستوى فكري أو اجتماعي أو اقتصادي في حظيرة البلد الذي يسعى إلى نيل استقلاله، فهذه الديناميكية، يتعين أن تتضافر مؤثراتها على تقوية مواقع المجتمع في صراعه من أجل التحرر، وإعداده لتحمل مسؤولية تحرره.

وارتباطاً بهذا التناقض الراديكالي بين المنظور الوطني والمنظور الاستعماري، تشابكت عقد صراع طويل ذي أبعاد قيمية محددة، حول موضوع الإنماء والتطوير :

مجاله، أبعاده، ودلالاته ومترتباتـه ـ في خلال الحقب التي استغرقتهـا السيطرة الاستعمـاريـة على إفريقيـا وآسيـا وغيرهمـا، واستقطبت الاهتمـامـات الملتصقـة بهـذا الأمر، المكامن الأعمق لهذا الصراع، المكامن الواقعة في خلفيات المظاهر الحادة والبارزة التي تكتسيها صورة الصراع في العادة.

☆ ☆ ☆

وفي مضمون الرؤى المتصلة بتحديات الصراع من هذا القبيل الذي عرفتـه السـاحة العـالميـة على مـدى حقب متطاولة، خـاصـة في خلال قرنتـا الراهن، كثيراً مـا راودت الفكر الاستعمـاري التقليـدي، أوهـام وأسـاطير بخصوص موضوع التقدم والتخلف، وعلاقة ذلك بما اعتبر في منظور الاستعمـاريين كحتميـة لفرض المتقـدمين هيمنتهم على غيرهم، وكحتمية كذلك، أن يتقبل «المتخلفون»: حالة هذه الهيمنة ويتحملوها بطواعية بحكم «الانبهار» بمظاهر التقدم المتوفرة للمهيمنين، أو بحكم الحاجة إلى «منـافـع» هـذا التقدم.

وإذا كانت مثل هذه التنظيرات قد ارتبطت عنـد البعض من أوساط الاستعمار العالمي بالصيغ السلالية أو العرقيـة التي أخـذوا بهـا، فـإن الـوجهـة العـامـة للفكر الاستعماري ـ وحتى ذلك الفكر الذي لا يعتنق بالضرورة ـ المبادئ الجوهرية للنظرية العنصرية، قـد ذهبت ـ في حدها المعتدل ـ مذهبا مستوحى ـ على الأقل ـ من الظن بأن الفجوة الكبرى بين التقدم واللاتقدم، كفيلة بإبقاء الأوضاع الأمبريالية على مـا هي عليـه من عنفوان الاحتواء والتحكم، وحشر العالم المستعمر (بالفتح) طويلا في دائرة لا مخرج له منها ـ في الأمد المنظور، إلى نيل الاستقلالات التي يبتغيها؛

وقد انقضى وقت كـان فيـه مثل هذا الظن يرقى إلى مستوى التصور، تصور الاستعمار بأن مجرد تحرر بعض البلدان من سلطته، كاف لأن يجمّد حركتها تجميداً كـاملاً، ويعرضهـا للضيـاع؛ وليس من المغالاة القول بأن تصوراً كهذا، لابد إن كان له اعتبار فيما كـانت عليـه تقديرات مخططي الحرب النفسـانيـة المعلنة من قبل الاستعمار في فترة أو أخرى من فتراته ـ قبل انهيار الأمبرياليات التقليدية في النصف الثاني من هذا القرن.

على أن رهان التقدم و«التخلف» إذا كان قد استقطب جوانب أساسيـة في مجرى المواجهات بين قوى الاستعمار، وقوى التحرر، فإن هذا الرهان ـ قد اتخذ ـ أخيرا ـ بعد أن وقع البدء في التصفية الكـاملـة للنظـام الاستعمـاري ـ عقب الحرب العالميـة الثـانيـة ـ شكل تحد معلن، أصبح بموجبه على الأقطار الحديثة عهدا بالاستقلال أن تبرهن على أنها تعي إطـار ومحتـوى ومعنى التحـدي الـذي طرحتـه حـالـة الاستقلال من المنظور الحضاري.

التحـدي المتمثـل في مـواجهـة إشكـالات الإنمـاء والتطوير والتحديث، اتصالا بما تـداخل في مضمون معركة انتزاع الاستقلال من ملابسات صدامية تـدور حول المفاهيم الإنمائية والمفاهيم المناقضة لها بين المستعمرين (بالفتح) والمستعمرين (بالكسر) في عموم العالم الثـالث، وهـذا من بين أكبر الرهانـات التي حمل عبئها المغرب ـ وقد انطلق فور استرداده استقلاله ـ نحو العمل على صياغة دينـاميكيـة للاستقلال على صعيد حضاري، موصولة بديناميكية الخط النضـالي الـذي أدى إلى تحقيق هذا الاستقلال بأوجهه السياسية والديبلوماسية وغيرها.

☆☆☆

كـان سبيـل المغرب الحسني، على مـدى السنـوات الست والعشرين المـاضيـة ـ في اضطلاعه بهـذه الرهـانـات وتأمينه إيجابيـة النتـائج المنبثقة عنهـا ـ سبيلا صعباً بكل المقـاييس التي يقيم بهـا حجم العقبات المعترضـة دونـه، وضخامة المقاصد والمعطيـات، ودقة الملابسـات والظروف

التاريخية المحيطة. فمن حيث العقبات، فقد كان أعتاها في خلال منطلقات الفترة، ما اقتضاه الحال ساعتئذ من مزاوجة مكلفة جداً بين كثافة الجهد الموازي لذلك، والمتعلق بإقامة الأسس الأولى لقاعدة إنمائية حديثة ومتطورة، تؤمن للكيان المستقل، القدرات الضرورية لاستطاعته ضمان حمايته الذاتية. ومواكبة وتائر السرعة التي تتوالى من خلالها الأوجه المختلفة لحاجاته.

لقد كانت العقبات دون استيفاء شروط هذه المزاوجة، عقبات كأداء عصية في الكثير منها على التذليل؛ ومما كان من شأنه أن يضاعف من ثقل المهام المطروحة على المغرب بهذا الشأن، سعة مجال العمل من هذا القبيل، المطلوب القيام به، والصبغة الطموحة للمقاصد الحافزة له.

إن العملية التنموية، عملية بناء حضاري، تتناول بالتطوير والتأصيل والإثراء ـ ضمن منهجية متوازنة ومضبوطة ومتكاملة ـ مختلف أنساق الحياة ومعادلاتها داخل المجتمع المعني بالأمر؛ ومن ثم، مبدأ الصفة الشمولية للعملية هذه، ورحابة آفاقها، وعمق مداها فيما تتضمنه وتستوعبه.

ومن زاوية هذا الاعتبار، اعتبار التشعب الكبير من جهة ـ في مضمون وأبعاد للعملية التنموية، ومن جهة أخرى، حيويتها البالغة في بناء الأوطان، وتطوير المجتمعات، اكتسب التحدي، والتحدي المضاد بين الاستعمار والأقطار المتحررة منه، الأهمية الموضوعية والتاريخية التي له، علماً بمدى تمحور التحديات هذه، حول قضايا الإنماء بالعالم الثالث، ومبلغ ما تعكسه هذه القضايا من نجاح أو عدم نجاح الاستقلالات التي نالتها البلدان العالمثالثية.

ولقد كانت بداية الستينات حيث انطلق المغرب الحسني انطلاقته التنموية الكبرى، التي يجتني ثمارها الآن ـ ظرفاً مشحوناً بهذا القدر من الرهانات التي ما فتئت تثقل كاهل الدول الفتية آنذاك، وتعثر سيرها، إلا ما كان من هذه الدول مؤهلاً للخطو على الطريق الشاسع المنفتح أمامه، خطو الرائد المستأنس بمساره، المتثبت مما يتوخاه، المستوثق مما يريده.

☆ ☆ ☆

لقد كان للمغرب فيما له من مواصفات مثل هذه الدول ـ ركيزتان معنويتان أساسيتان، تتمثل **أولاهما** في عراقة موقعه في التاريخ، وبالتالي، ثراء تجاربه في الحياة، وتمرسه بها، وما زاوله عبر ذلك كله خلال الحقب والدهور ـ من مسؤوليات جسيمة في مجاله الإقليمي والجهوي والقاري، وعلى المستوى الدولي، وهي مسؤوليات ذات أبعاد اقتصادية وغيرها، فضلاً عما كان لها من أبعاد سياسية وديبلوماسية وعسكرية وما في حكم ذلك.

**وثاني هاتين الركيزتين** : عمق استيعاب المغرب للقيمة الجذرية التي يكتسبها الجانب الحضاري في معركته من أجل صيانة الاستقلال وإنماء رصيده. وانطلاقه في هذا السبيل ـ على ضوء ذلك، مزوداً بمقومات رؤية مستقبلية ناضجة متطورة، ومتجاوبة مع حقائق العصر، والتحولات الديناميكية التي تطبع بطابعها مساره.

هذا الارتكاز من جانبيه الرئيسين المذكورين، كان حريا بإن يخول مسيرة الإنماء والتطوير بالمغرب الحسني، قدرات إبداعية معطاء بقدر كبير، نتيجة لخصوبة أرضية العمل التي وعت إيقاعات هذه المسيرة، وملاءمة المناخ الفكري والاجتماعي للتحكم في ضوابطها ومسالكها وإغناء حصيلة ما تسفر عنه من خلاصات جيدة.

☆ ☆ ☆

لقد منيت الستراتيجية التنموية عند التطبيق في عدد من أقطار العالم الثالث، بتعثرات مختلفة، ولم يكن الأمر بالضرورة لضعف الموارد الطبيعية، أو لضآلة الطاقة البشرية أو نحو ذلك، بل لأن مثل هذه الأقطار ـ وهذا طبعاً ـ تعليل جزئي للحال ـ لم تمتلك ـ بالقدر اللازم ـ مقومات معنوية ـ من قبيل ما ذكر ـ في رؤيتها لشؤون وشجون

قضاياها ومشكلاتها التنموية، ولم تجد - بحكم ذلك - مجالاً مناسباً لاستلهام رصيد تراثي، يثري حوافزها على الطريق الإنمائي الذي تسلكه، إن لم يكن بوسعه أن يساهم في تعزيز قدراتها على التخطيط فيما تخطط له؛ وبداع من هذا، في نطاق معين، ومخصوص في اعتباراته، وبداعي العوامل الموضوعية الأخرى، المؤثرة عادة في مثل هذه الأمور، من منطلق فكري أو اجتماعي أو سياسي أو ما في مفهومه، يزداد تعقد مظاهر التعثر في الخط الإنمائي المتبع عند مثل هؤلاء، خاصة حينما تتداخل البواعث الإيديولوجية في مثل هذا الحال، متجاوزة الاعتبارات الموضوعية والعملية.

إن العملية الإنمائية - كما ذكر آنفاً - لهي تحويل شامل ودقيق في معادلاته وتوازناته؛ وهي في ضمن هذا التقدير - قاعدة تطور مجتمعي واسع الأفق، يشمل الجوانب النفسية والأخلاقية والثقافية وسواها، كما يستند في مناح معينة - على مقومات تاريخية وتراثية.

ومن هذه الزاوية في النظر إلى الأمور، يلحظ - إلى أي حد، تتداخل العوامل الفاعلة في هذا المضار بعضها في بعض ومدى تشاركها في هذا النطاق الجامع، المرتبط من جهة، باهتمامات الحياة اليومية للمجتمع، ومن جهة أخرى، بحظوظ القدرات المادية والبشرية للوطن ككل، ومدى استمرار ونمو استطاعته الحفاظ على موقع مكين له في مشتبك التفاعلات الدولية والعالمية.

ومن غير شك، فإن المنطلقات المبدئية في الموضوع الإنمائي، لذات شأن هام بدا فيما يتأتى عنه من نتائج، كالحال في كافة المواضيع المعتبرة مصيرية في حياة الشعوب.

المنطلقات السليمة، سبيل قويم للتوصل إلى تنمية سليمة، إذا كان خط السير لاستيفاء أغراض هذه التنمية، خطاً محسوباً ممنهجاً، وذا إيقاعات متوازنة متكاملة في أهدافه ومراحله.

ومن المعالم المشهودة في الإسترتيجية هذه، أصالة القناعات والاختيارات والأسس الفكرية والفلسفية لصيغة العمل الإنمائي الذي أضفى على المغرب، الطابع الخصب والمتطور، الذي له.

ومن المعالم المشهودة أيضاً، في استراتيجية الإنماء بالمغرب، توفر مدد عامر المحتوى من الأسانيد المرجعية لها، مستمدة من عمق تقاليد هذا البلد على مدى التاريخ في مضار التأسيس والتشييد الحضاري، وهي أسانيد يتغلغل مداها في أغوار عصور موغلة في القدم.

ومن هذه المعالم أيضاً، ثراء الحوافز المحركة والهادية على خط الفكر والتنظيم والعمل والإنجاز في محيط هذه الإستراتيجية، وما تعتمده من مرتكزات، وتنفتح عليه من آفاق عامة أو تفصيلية، وهي حوافز عديدة وفي نفس المستوى من الأهمية، ومن بينها :

**الحوافز النضالية** : إن مبعث هذه الحوافز لا بد أن يكون متأتياً مما تطرحه روح النضال الوطني من معان، مبناها أن قنوات العمل من أجل تحرير الوطن، والرفع من شأوه، هي قنوات متداخلة ومتشابكة فيما بينها، وليست متمايزة.

وإن من الطبيعي أن يكون وضع الأمور على هذا النحو، طالما كان الرابط بين كافة النشاطات التي تصب في هذا الاتجاه، هو السعي لتخليص الكيان الوطني من السلبيات التي يمكن - على أي مستوى كان الأمر - أن تعلق به، سواء من زاوية اقتصادية أو غيرها، والعمل على صيانة الحمى الوطني من المعوقات، أكانت متسلطة عليه بفعل وهن أو انتكاس ذاتي، أو كانت متسربة إليه من خارجه.

**الحوافز الحضارية** : وتتأصل مثل هذه الحوافز من جذرية الحس الحضاري عند المجتمع، جذرية هذا الحس،

في تناقضه المبدئي والفعلي مع التخلف، وتلقائية ردود فعله التصادمية مع الأحوال والظواهر التخلفية،ونزوعه إلى إلغائها كلما توفرت شروط مناسبة لذلك.

**الحوافز العملية :** وتنبع هذه الحوافز مما تقضي به النظرة الموضوعية إلى النواميس المتحكمة في صياغة العلاقات الدولية المعاصرة وما يندرج فيها من هموم، تتعلق بالأمن والحماية الذاتية، ومشاكل التعايش والتعاون والتبادل، وحدود وأبعاد الأفعال وردود الأفعال، ضمن النطاق الدقيق والمتشعب، المنضبطة به مصالح وحقوق هؤلاء أو أولائك، مع الوضع في الاعتبار في كل هذا، حدود الاستطاعة الموفورة لكل دولة في هذا المقام، وصلة ذلك بدرجة مقدرة التقدم وحصيلته لديها.

**الحوافز الأخلاقية :** وقوامها الحماس لبذل الجهد الإنمائي، وحسن الاستشفاف والاستبصار في استثماره، وشدة الجلد وطول النفس في تجشم أعبائه، وتتبع مراحله، واستخلاص النتائج المرتقبة منه.

☆ ☆ ☆

التنمية اعتماد ـ قبل كل شيء ـ على الإمكانات والموارد والطاقات الوطنية، وتركيزاً ـ في أساس أي شيء ـ على تسخير كل ما في حوزة الوطن وبوسعه ـ من هذه العطاءات المتاحة، واستثمار مكامن الثروات الموهوبة له، الاستثمار الحكيم الرصين، المؤدي ـ بعقلانية مشاريعه، وحصافة أساليبه، وتوازن مقاصده ـ إلى زيادة تنويع محصول البلاد من هذه الثروات، ومضاعفة سبل انتفاعها بها، وتمكينها ـ بذلك ـ من اجتياز مراحل وأشواط، ذات شأن ـ على طريق التطور الزراعي والصناعي وقطاع الإنشاءات والتجهيزات والخدمات الاجتماعية وغير ذلك كثير.

لقد سارت الديناميكية التنموية بالمغرب الحسني على هذا السبيل : تقوم مرتكزات أساسية لها ـ في مضمونه ـ على التطوير الذاتي، انطلاقاً من تطوير قابليات الإنسان، وإغناء إيجابية استعداداته، وانتقالاً من ذلك، إلى توظيف طاقات هذا الإنسان ـ وقد صقلتها، وأغنت حيويتها، فاعلية الحياة الوطنية، وتوجيه زخم نشاطه لخدمة أهداف البناء والإنماء، وتعزيز مواقع المغرب ـ عبر ذلك ـ بصفة كونه قطراً له إستراتيجية إنمائية مضبوطة وواقعية ومنتجة ومتجاوبة مع حقائق العصر، ومستجدات الحياة في محيطه.

إن طريق التقدم في العادة، طريق وعرة غير ذلول، وهي أيضاً طريق محفوفة بالإشكاليات التي تقتضي طبيعة الأشياء، فك عقدها، لكي يتيسر الانتهاء منها إلى ما يتوخى من إنجاز وإنتاج.

وعلى امتداد مسار التحديث والتطوير الحضاري التي اضطلع بها المغرب الحسني في حقبة ما بين الستينات والثمانيات، كان اقتدار هذا المسار على استقصاء ظواهر الإشكاليات وضبطها ومعالجتها ـ من بين ألمع جوانب مناقبيته ونجاعة الآفاق التي انفتحت له.

إن نطاقاً مجتمعياً مكيناً في جذوره وقواعده، منفتحاً ـ في نفس الوقت بأوسع قدر ـ على تيارات التطور والتجديد في العالم حوله، واعياً كل الوعي ماذا يعني بالنسبة إليه ـ والحال هذه ـ موقعه في التاريخ والجغرافية، وطبيعة المسؤوليات التي يطرحها ذلك عليه في غير ما مجال من مجالات حياته ـ لقمين بأن يجد من خلال خصوبة التفاعلات الفكرية والحضارية في نطاقه، صيغاً مواتية لاستيعاب أبعاد ومضامين الإشكاليات التي تفرزها خطواته على درب التأصيل والتجديد، وعقلنة التوافق والتطابق بين التوجهات المتكاملة لديه في هذا المضمار.

ومن طراز القضايا من هذا القبيل، التي تعاطى معها المغرب بالروح الإبداعية الرائدة، التي وفرت للتحولات النهوضية في محيطه، الطابع الرصين والمتوازن والثري، الذي تتسم به :

1) التوفيق بين دواعي الحفاظ على العراقة، وبين الأخذ أخذاً متبصراً وانتقائياً بأسباب الحداثة في أوجهها المجدية المتعددة.

2) التوفيق ـ من جهة ـ بين موجبات العمل على تدارك ما فوته الاستعمار على البلاد من فرص التقدم وبين ما يفرضه ـ من جهة أخرى ـ واجب ملاحقة سرعة الوتائر المعاصرة لديناميكية التقدم، وبين الضرورات المرتبطة ـ من ثالثة ـ بمواكبة التيارات المستقبلية للتقدم، واستيعاب مضامينها المطردة تطوراً.

3) التوفيق بين ما تطرحه من حيثيات واعتبارات، بواعث التفتح على الآخرين، وبين الاعتبارات المقابلة، المتعين بها، أن يكون التفتح هذا محسوباً وممنهجاً، بحيث يستفاد منه ـ أكثر ما يمكن ـ في تطعيم الرصيد الفكري والحضاري للوطن، ويستدفع منه ما لا قد يكون فيه لهذا الرصيد غناء.

4) التوفيق بين تفتحات المطامح، وبين مستلزمات التغلب على الحوائل والصعوبات المرتبطة بسياق إنجازها.

☆ ☆ ☆

الموفقية التي حالفت المغرب الحسني في تعامله مع هذه الإشكاليات وتسويته إياها، تقع في نفس النطاق الجامع، مع القدرات المرموقة التي عبر عنها. من خلال استطاعته تجاوز المنعطفات والتشعبات الإقليمية والدولية، التي كان من شأنها أن تلقي بظلال كثيفة على مجرى جهوده الإنمائية منذ المراحل الأولى لاستقلاله.

ذلك أنه على النقيض من معظم الأقطار الإفريقية والآسيوية التي وجدت نفسها ـ غداة استقلالها ـ تتعامل مع حالة استعمار من نمط واحد، فإن المغرب المستقل الذي عانى من حالات استعمارية متواقته ومتعددة الأوجه والمصادر، قد وجد أمامه تركة استعمارية على نفس الدرجة من تعدد الأشكال والمظاهر والرواسب؛ ومن ثم، كان عليه ـ في نفس الحال الذي يسلك فيه سبيل نموه الذاتي وتطوره، أن يوزع جهوده على مستويات شتى (شمال، أقصى الشمال، طرفاية، إفني، الصحراء) ملتقية جميعها في محور العناية بتيسير تماثل وتكامل أوضاع التقدم والتطور في حظيرته، من شواطئ المتوسط، إلى أقاصي الأقاليم الصحراوية المسترجعة.

وهي حالة مكلفة جداً من ازدواجية المشاغل والأعباء، فرظتها الظروف الخاصة، التي أحاطت بالتسلط الاستعماري على المغرب، وبتحرر المغرب من هذا التسلط، المتعددة أطرافه.

لقد لبث موضوع الجهد الإنمائي ـ والمغرب منغمر في خضم انشغالاته بقضية استكمال وحدته الترابية ـ يطرح نفسه باعتباره حاجة ملحة فيما تقتضيه وتوجبه.

وعلى هذا المنوال، ظل المغرب الحسني على مدى عقد الستينات وما بعده، مدعواً إلى خوض غمرات النضال في واجهتين رئيستين ومتوازيتين :

**واجهة النضال التحريري المنصب على استتمام وحدة التراب.**

**وواجهة النضال الحضاري**، الهادف إلى إشاعة مظاهر التقدم وتعميمها في النطاق الأعم للكيان الوطني، والارتفاع المتوازن المتكامل بدرجات

فاعلية هذا الكيان وقدراته، إلى المستوى المطلوب أن يبلغه.

☆ ☆ ☆

إن جسامة هذه المهمة، لا تتجلى فقط، في تعدد أوجهها، وما يطرحه الأمر من أعباء متداخلة ومتزامنة، بل تتمثل هذه الجسامة أيضاً في طبيعة المناخ الدولي الذي ما انفك يحيط بظروف هذه المهمة، وما ينعكس منه، أي من هذا المناخ، على حظوظ التعاون بين الأقطار في مجال العمل الإنمائي ونحوه.

لقد كان من الطبيعي أن يقوم بمنطقة المغرب العربي - في أعقاب جلاء القوى الاستعمارية عنها - نظام للتعاون الجماعي على الصعيد الإقليمي، تتساند في نطاقه - السياسات الإنمائية الوطنية للدول المغاربية، بعضها مع بعض، وتتفاعل - إيجابياً فيما بينها، بما من شأنه أن يؤدي بها إلى بلورة قوة اقتصادية جهوية، لها من المؤهلات ما يعزز أهدافها المشتركة، ومصالحها في مختلف مواقع الساحة الدولية؛ إلا أن قصور بعض الجهات في المنطقة، عن استيعاب مدلولات هذه الحقائق، قد كان منه أن ألقى ظلالاً سلبية حول وجهة منطقية للأمور على هذا الكيف.

وبعيداً عن سلبيات كهذه، ما برح المغرب الحسني على امتداد العقود الماضية - يوالي خطواته على درب الإنشاء والإنماء؛ والتأصيل والتحديث، لا تأثير - في شيء - مما ابتغى البعض إحداثه - عبر معاكسة الوحدة الترابية المغربية - من مؤثرات على اطراد نموه وسرعة تطوره، ولا حد لما حاول هؤلاء تحديده من مسار ارتياداته وإبداعاته : بل إن المنهج التنموي للمغرب الحسني، قد أتاح لهذا الوطن منطلقات غير منحصرة في شأن الوجه المادي لحضارته، وإنما يسر له السبيل - في أفق أوسع وأرحب - لإغناء القيمة المعنوية لهذه الحضارة؛ كما هيأ له من القدرات،ومناحي الاستطاعة، ما مكنه من شق طريقه باقتدار في المحيط الدولي وفقاً لاختياراته السياسية وصميم مبادئه، والتعاطي مع المتغيرات العالمية، من موقع الكفء، على الإلمام بحقائقها وملابساتها، المسهم - مع بقية القوى الحية ضمن المجتمع الدولي - في تقويم منعطفاتها.






# بين المولى إسماعيل وأبي علي اليوسي

الأستاذ المهدي السيني

كان التراث وما يزال نبعا فياضا تستلهم منه الشعوب أسس نهضتنا، ونبراسا تستضيء بومضاته في مدلهماتها، فتتزود بشحنات منه تساهم في دفعها إلى الأمام، متجاوزة الخطوب والعقبات...

ومما يستحق العرض والتناول في هذه الذكرى : ذلك الحوار الهادف الذي كان يدور بين السلطان المولى إسماعيل، وبين العلامة أبي علي اليوسي، وهو حوار بين سلطان أجمع المؤرخون على قوة حزمه، وعزمه، وهيبته، كما أجمعوا على جرأة العلامة اليوسي بكلمة الحق وصدعه بها غير هياب ولا وجل.

والحوار بينهما نموذج للحوار الأمثل بين القمة والقاعدة :

قمة تفتح المجال لسماع وإسماع صوت من كانوا متجذرين في القاعدة الشعبية.

وقاعدة لا تتردد في إبداء النصح دون تجاوز أو شطط، ملتزمة بقول الله تعالى : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾.[1] ووجلة مما يصيب غير المتناهين ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبيس ما كانوا يفعلون**﴾.[2]

---

1) سورة النحل : آية 125.

2) سورة المائدة : آية 80، 81.

ويخلد ذلك الحوار المثمر والتناصح الهادف : رسائل أبي علي اليوسي للسلطان المولى إسماعيل، وهي رسائل، منشور منها ثلاث :

- الرسالة الكبرى أو جواب الكتاب السلطاني.
- الرسالة التي توصف بأنها «براءة اليوسي».
- رسالة ندب الملوك للعدل.[3]

ونعرض في هذه المقالة للرسالة الكبرى التي أجاب فيها العلامة اليوسي على جملة قضايا ومسائل عرضها عليه السلطان المولى اسماعيل، طالبا منه الإجابة عنها.[4].

☆ ☆ ☆

يعرض الكتاب السلطاني قضايا ظرفية، وأخرى ما تزال وثيقة الصلة بهذا الوقت؛ لكن الذي يلفت النظر أن الدارس للرسالة الكبرى التي تتجاوز صفحاتها المئة، محروم من التصور الكامل للكتاب السلطاني، إذ أن أبا علي اليوسي يكتفي بذكر رؤوس المسائل التي يبدي وجهة نظره فيها، محللاً تارة، ومحاوراً تارة، ومبرئا نفسه مما اتهم به؛ في حين أن أموراً أخرى تضمنها الكتاب السلطاني غائبة.[5]

وعدد المسائل والقضايا التي طرحها الكتاب السلطاني على أبي علي، وأجابها الكتاب السلطاني على أبي علي، وأجاب عنها، يبلغ مجملها ثماني عشرة مسألة هي :

- قبول الحق.
- اندثار العلم.
- صحبة العلماء للملوك.
- التجافي عن سكنى الحواضر.
- القول بخلق القرآن.
- الإسلام والتوحيد.
- ما يكفي العالم من الضروريات.
- استفتاء أهل البادية.
- اتخاذ العلم مطية للدنيا.
- السلامة من الخلق.
- ادعاء الورع.
- نهب القوافل.
- إيمان البربر.
- رفض العلماء لمنصب القضاء.
- الشرعية والحكم بالشريعة.
- تبيين العلماء للحلال والحرام.
- الانتساب للتصوف.

وأجوبة أبي علي عن هذه المسائل والقضايا، منها مامِلأ صفحات عدة، لمنهجه الاستطرادي.

ومنها إجابات موجزة.

وهو في كل ذلك ذو أساليب : تتسم تارة بمنهج الفقهاء وهم يعللون الأحكام.

وتارة بمنهج المحدثين وهم ينفون تحريف الغالين وانتحال المبطلين.

وتارة بمنهج المحامين وهم يبطلون الدعاوي ويقيمون البينات.

ولا يتسع المجال للوقوف على كل الأجوبة، وإنما نكتفي باستعراض بعضها لتقريب الصورة : صورة الحوار بين القمة والقاعدة :

- 1 ـ حول الاختلاف فيما مجاله الاجتهاد أيام الافتتان بالرأي وعبّر عنه في «الكتاب السلطاني» بقبول الحق :[6]

---

3) الرسائل الثلاث وغيرها من رسائل العلامة اليوسي، الأستاذة فاطمة خليل القبلي، ط. دار الثقافة بالبيضاء 81.
ووصف الرسالة الثانية ببراءة اليوسي يحتاج إلى إعادة النظر، إذ موضوعها كموضوع الرسالة الثالثة : ندب الملوك للعدل: وهي منشورة بالاستقصا ج 7 ص 82.
ط. دار الكتاب بالبيضاء 1956.

4) ذكر اليوسي أنه أمر بذلك من لدن السلطان في موضعين ص 133، ص 232 ج 1 رسائل أبي علي اليوسي.

5) يقول اليوسي : فتكلمت على ما لابد منه، وتركتُ من الكلام أكثره لعدم الحاجة إليه، ص 232 ج 1 نفس المصدر.

6) ص 133 ج 1 نفس المصدر.

يقول أبو علي اليوسي : «الحق بالشرع يعرف، لا بالعقل، وقد حكّم قوم العقول فضلوا وأضلوا نعوذ بالله، ونعيذ سيدنا من مذاهبهم...»[7]

وعندما يختلط الحق بالباطل، أرشدنا النبي ﷺ إلى المخرج وسبيل النجاة، وهو كتاب الله تعالى، فقد سأل الصحابة : ما المخرج أيام الفتن ؟ فقال : «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿**إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد**﴾[8] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».[9]

من خلال استشهاد أبي علي واحتجاجه، يتضح أنه لا يجيز الاعتماد على العقول فيما يحدث من النوازل لأن ذلك من شأنه أن يثير الشقاق بين العباد، كل يرى الصواب معه ولا يذعن لمخالفيه، في حين أن الاحتكام إلى كتاب الله، يعصم من التشرذم والفرقة، قال تعالى : ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تاويلا**﴾.[10]

7) ص 134 ج 1 نفسه.

8) سورة الجن : آية 1، 2.

9) رواة الترمذي في فضائل القرآن من سننه : الباب الرابع عشر، ورواه الدارمي في نفس الباب من سننه، ورواه أحمد في مسنده ج 1. ص 91 نشر. م. الإسلامي قال الترمذي : رواه الحارث الأعور عن علي مرفوعاً، والحارث فيه مقال.

قلت : كذبه الشعبي في رأيه لتشيعه، كما في التقريب ج 1. ص 141، ووثقه يحيى بن معين، كما في ميزان الاعتدال ج 1. ص 141.

وقال سبحانه : ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله...**﴾.[11]

- 2 ـ حول الخوف من اندثار العلم.[12]

سرّ أبو علي بالطرح السلطاني لهذه القصية، فبين أبعادها موازنا بين المجاهدين ودارسي العلم.. قال : «جزى الله سيدنا، ومصباح وقتنا خيراً، حيث خاف هذا، وإنه والله هو أشد المصائب وأفظعها، فأي خير في الحياة بعد ذهاب العلم وأهله...»[13]

«وحيث تفطن سيدنا لهذا المعنى واهتم به، فلا بد أن نشرحه ونبين دعامته باختصار : إن طلب العلم والاشتغال بالتعليم نوع من الجهاد، بل هو الجهاد الثاني... فنبينا ﷺ حين بعثه الله، بدأ بالثاني، وكان يجاهد في دفع الجهل بالتعليم، بأقواله وأفعاله وتقاريره ولم يشتغل بجهاد العدو إلا بعد ذلك حين أذن له».[14]

ووزان أبو علي اليوسي بين المجاهدين ودارسي العلم، وأنهم أصناف ثلاثة حسب نياتهم، وقد أباح لهم الشرع الغنائم، مهما كانت نياتهم، لتقويتهم على المرابطة.

قال : «فإذا فهم هذا في المجاهدين وما يأخذون من الغنائم، فليفهم مثله في المجاهدين في العلم حرفا بحرف فالمشتغلون بالعلم تعلما وتعليما، محتاجون إلى مؤونة وكفاية، يتقوون بها على ما هم بصدده، ولابد أن يكونوا أيضا ثلاثة أصناف كما كانوا هنالك...»[15]

10) سورة النساء : آية 58.

11) سورة الشورى : آية 8.

12) ج 1. ص 137 رسائل أبي علي اليوسي.

13) ص 137 ج 1 نفس المصدر.

14) ص 139 نفس المصدر.

15) ص 140 نفسه.

ثم قال بعد ذلك : «والعطايا تطلق اللسان، وتشرح الجنان، وتشجع الجبان، وتنشط الكسلان، وتسر الغضبان، سجية مطبوعة في الإنسان على مرور الزمان».[16]

لقد أوضح أبو علي اليوسي في هذه المسألة أن العدو عدوان : عدو خارجي، وعدو داخلي، وكلاهما يتطلب المرابطة والإعداد؛ وقد يُظن أن حض اليوسي للسلطان المولى إسماعيل على الإنفاق في باب العلم كالإنفاق على الجهاد في الثغور، تشوف منه للعطايا والهبات، فليس الأمر كذلك، إذ من القضايا التي يطرحها الكتاب السلطاني ويتساءل عن تعليلها «تجافي اليوسي وتباعده عن حاضرة السلطان، وكذا ورعه عن هباته».

وبالرغم من وجاهة ترغيب أبي علي للسلطان في الإنفاق على العلم وطلابه ومدرسيه، فإن موسري العالم الإسلامي في كل العصور شرقا وغرباً كانوا يتحملون نفقات العلوم والمعارف، محتسبين متسارعين إلى الخيرات، فما كانت الميزانية العامة في الأنظمة الإسلامية تتحمل أعباء التعليم، إلا في الوقت الذي صارت المجتمعات الإسلامية هجينة في تصورها واقتصادها بعد أن ناء الاستعمار بكلكله على خيراتها مباشرة أو بصفة غير مباشرة.

● 3 ـ وحول صدع العلماء بكلمة الحق وتبليغهم لرسالة الله قال أبو علي اليوسي : «لا شك أنه يجب على أهل العلم أن يتكلموا على الحق، ويبينوا الحلال والحرام، لكن فيما يظن قبوله ولا يخشى عليه فتنة، أما مالا يقبل وتقع الفتنة به، فساقط عنهم، وقد كان يحيى بن يحيى الليثي سأل الإمام مالكاً رحمه الله عن الفتن التي تقع في الأندلس، فلم يجبه، فقال : أنا رسول من ورائي، فقال : دع عنك هذا وإني لك من الناصحين.

فهذا الإمام أمسك عما يخشى فيه الفتنة وهو في الحجاز، في حرم المدينة، فكيف بمن كان بين ذراعي وجبهة الأسد».[17] اهـ

وجهة نظر أبي علي اليوسي في هذه المسألة تراعي الظرف الزماني والمكاني، وخصوصية الراعي والرعية؛ فقد يكون الراعي ممن تفزعهم كلمة الحق، ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿**وإذا قيل له اتق الله، أخذته العزة بالإثم**﴾.[18]

وقد أفزعت كلمة الحق الحجاج، فغضب من سعيد بن جبير رحمه الله، ونال الشهادة[19] فكان معلمة في مجال الصدع بالحق.

وقد يكون الراعي تسره كلمة الحق وإن كانت مرة، فيستزيد العلماء ويرغبهم في تذكيره وتبصيره، كما كان شأن الخليفة العادل : عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.[20]

وقد يوفق الله العلماء والأمراء للتعاون على البر والتقوى، فيفتح الله على أيديهم، وتنتفع الأمة من تآزرهم كما وقع للعز ابن عبد السلام مع سلطان وقته في مصر حيث كان لذلك التآزر نتائج أذهلت أعداء الإسلام : انتصار على الصليبين بدمياط وأسر لويس التاسع، وهزيمة للتتار في عين جالوت أوقفت زحفهم وحطمت غرورهم.[21]

ومن ذلك تآزر عبد الله بن ياسين وأمراء المرابطين على صلاح المغرب وإصلاحه وتوحيده في ظلال كلمة التوحيد، فمكن الله لهم في الأرض.

---

16) ص 141 نفسه.

17) ص 226 نفسه.

18) سورة البقرة : آية 204.

19) تذكرة الحفاظ ج 1. ص 76، 77. رقم ت : 73.

20) تذكرة الحفاظ ص 119 ج 1. رقم ت : 104.

21) طبقات الشافعية للسبكي ج 5. ص 80 ـ 105 مصورة دار المعرفة بيروت.
- مرآة الجنان ج 4، حوادث سنة 648.
- حسن المحاضرة. ج 2. ص 40. ط مصر 1321 هـ.

ومن ذلك مآزرة علماء الأندلس يوسف بن تاشفين، لإعلاء كلمة الله ودحر أعدائه، فهبت ريح النصر، وكانت «الزلاقة» من المواقع الحاسمة في تاريخ الإسلام.[22]

ومن ذلك مآزرة العلماء لعبد الملك السعدي وأخيه المنصور، وتأطيرهم لكتائب المجاهدين، فكانت «وقعة وادي المخازن» التي أخزى الله فيها من اتخذوا الصليبيين أولياء من دون المومنين.[23]

**ومن ذلك التفاف كل فئات المغاربة حول أمير المومنين الحسن الثاني المعظم، إذ وفقه الله تعالى بجعل سلاح جحافل المسيرة الخضراء كتاب الله الكريم، فكانت مسيرة إيمانية.**

**﴿ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز﴾**.[24]

إن التآزر بين الأمراء والعلماء على البر والتقوى، هو نتيجة للشورى والحوار : حوار بين قمة متشوفة للنصح، وقاعدة تبادر إليه امتثالا لتوجيه الصادق المصدق ﷺ : الدين النصيحة، قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.[25]

وإن هذا الحوار والمناصحة بين السلطان المولى إسماعيل، والعلامة أبى علي اليوسي، هو تطبيق لذلك المنهج الرباني الذي شرعه الله لعباده عامة، وللراعي والرعية خاصة فقال سبحانه : **﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾**.[26]

ولقد كان المولى إسماعيل يرغب في النصيحة ويتشوف إليها، قال أبو علي اليوسي : «وكنا كثيرا ما نرى في سيدنا التشوف إلى الموعظة والنصح».[27]

إن المولى إسماعيل، وأبا علي اليوسي، وهما يتبادلان الحوار والمناصحة، صيانة للمجتمع المغربي المسلم، ودرءاً لكل مفسدة؛ كانا يستحضران الهدي النبوي الشريف : «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لهم».[28]

وإنه لحوار بين قمة مسؤولة، وقاعدة يقظة، حوار يذكر الخلف بمآثر السلف، لمواصلة المسيرة : مسيرة الإيمان، ومسيرة النماء.

---

22) الاستقصا ج 2، ص 8 ـ 10، ص 31، ط. دار الكتاب بالبيضاء.
23) ص 70 ـ 78 نفس المرجع.
24) سورة الحج : آية 38.
25) رواه مسلم في الإيمان 95 مسنداً، والبخاري في آخر الإيمان معلقاً.
26) سورة آل عمران : آية 59.
27) الاستقصا ج 7، ص 82 نفس. ط.
28) أخرجه الترمذي في الفتن 9، وأبو داود في الملاحم : 17، واللفظ للترمذي.

# فهرس العدد 263


- افتتاحية العدد : عيد العرش عيد الشعب

للدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية . . . 2

- ثلاث رسائل إصلاحية لثلاثة ملوك علويين على مدى ثلاثة قرون

للأستاذ عبد الله كنون . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . 4

- عيد العرش.أمل وعمل

للأستاذ أحمد ابن سودة، مستشار صاحب الجلالة . . . . . . . . . . . . 9

- فلسفة الرعاية والتشجيع كما يطبقها جلالة الحسن الثاني

للأستاذ الشيخ محمد المكي الناصري . . . . . . . . . . . . . . 16

- على هامش سفارة أشعاش

مشاهدات دبلوماسي مغربي في فرنسا عام 1845 ـ 1846 في عهد المولى عبد الرحمان بن هشام (القسم الأول)

للأستاذ محمد العربي الخطابي . . . . . . . . . . . . . . . . 19

- منازل الفقهاء المالكية المغاربة في ربوع الكنانة

للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) . . . . . . . . . . . . 30

- الحسن الثاني ملك الحوار

للأستاذ أحمد مجيد بنجلون . . . . . . . . . . . . . . . . . 43

- السيف والقلم في ملحمة الصحراء المغربية

للأستاذ عبد الحق المريني . . . . . . . . . . . . . . . . . 48

- من المنجزات الحسنية : دار الحديث الحسنية

للدكتور محمد فاروق النبهان . . . . . . . . . . . . . . . . . 56

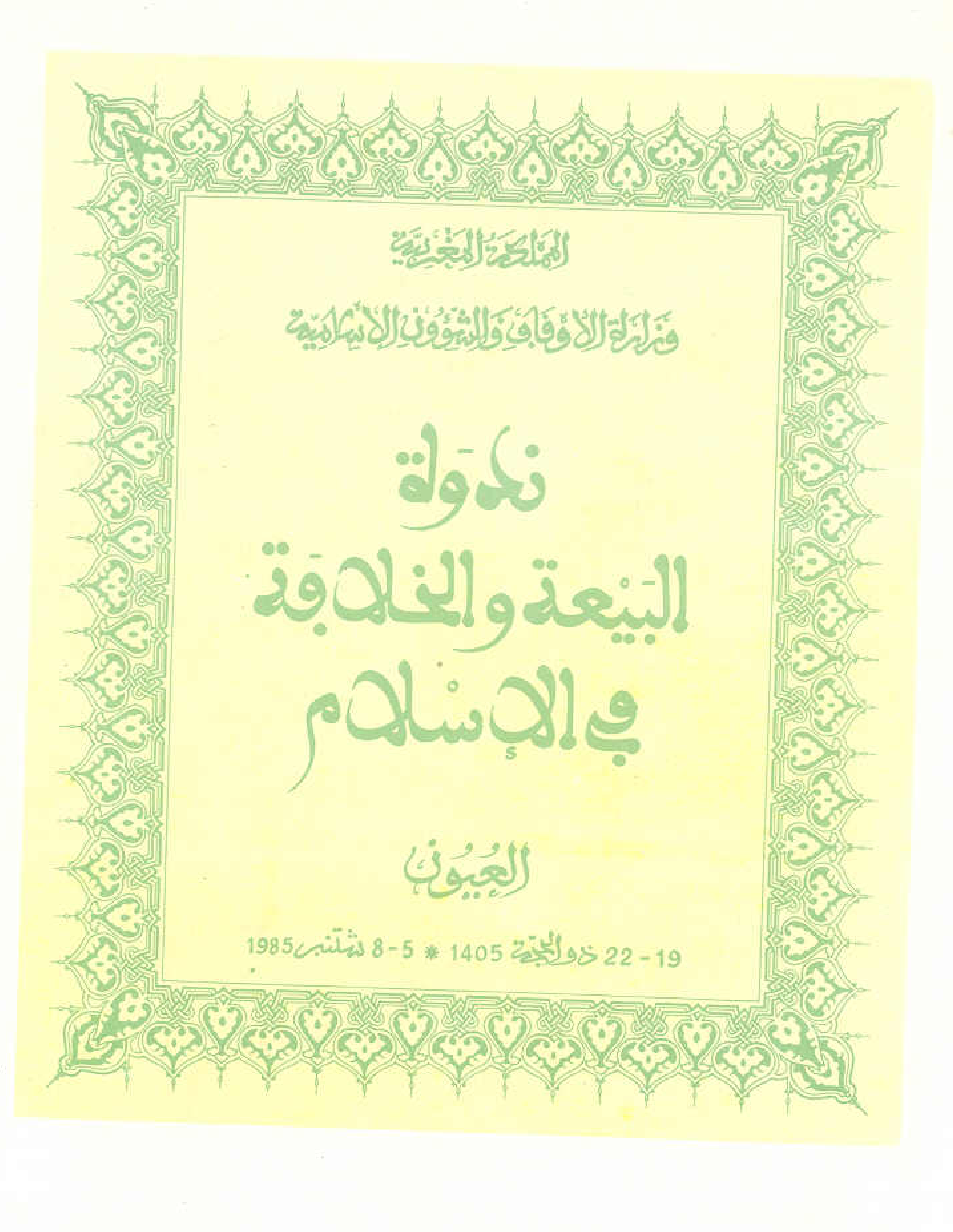
- نحو مسيرة ثقافية في ضوء الفكر الحسني

للدكتور محمد الكتاني . . . . . . . . . . . . . . . . . . 62

- الاحتفال بعيد العرش ركيزة أساسية للحفاظ على الوحدة الوطنية
للدكتور حمداتي شبيهنا ماء العينين .................... 76
- ومن خطاب الملك العالم للعلماء
للأستاذ خليفة المحفوظي .................... 83
- العرش العلوي المجيد ميثاق ديني وروحي وعقائدي
للدكتور مولاي إدريس العلوي العبدلاوي .................... 87
- ستون عاماً من التحدي
للأستاذ محمد الحاج ناصر .................... 93
- قيام الدولة العلوية على السنة ورعايتها لها
للدكتور يوسف الكتاني .................... 99
- فردوس الحسن (شعر)
للأستاذ علي الصقلي .................... 104
- الأسطورة الحية (شعر)
للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي .................... 106
- نشيد (شعر)
للأستاذ محمد الحلوي .................... 108
- التجاوب الحق (شعر)
للأستاذ عبد الواحد أخريف .................... 110
- الإمامة والمذهب (شعر)
للأستاذ المدني الحمراوي .................... 113
- هي الهمم الكبرى فقم لجلالها (شعر)
للأستاذ أحمد بن محمد البورقادي .................... 116
- بلاد الخير (شعر)
للأستاذ محمد شهاب .................... 118
- المسؤولية الإسلامية في الرسالة الملكية
للأستاذ أحمد أفزاز .................... 120
- الحسن الثاني المثل الكامل في الدفاع عن الإسلام وترسيخ قواعده
للأستاذ الشيخ ماء العينين لارباس .................... 125
- العرش العلوي رمز الاستقرار والسيادة
للأستاذ مقدم بوزيان .................... 127

- عرش وطّد الخلود وشعب صان العهود
للأستاذ المهدي القاسمي .................................... 130
- برور المولى سليمان بالعلم والعلماء وعلاقة ذلك بنسخة من تفسير الجلالين
للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ .................................... 133
- جهاد الدولة العلوية في حماية الثغور :
سيدي محمد بن عبد الله وتعبئة الطاقات لاسترجاع مليلة
للأستاذ حسن الفكيكي .................................... 142
- من أعلام العلماء على عهد المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن والمولى الحسن الأول
محمد الأمين الشنجيطي
للأستاذ حسن جلاب .................................... 152
- دلالات تاريخية وفكرية :
في مضمون العمل الإنمائي بالمغرب الحسني
للأستاذ المهدي البرجالي .................................... 165
- صفحات مشرقة من شورى السلاطين للعلماء :
بين المولى إسماعيل وأبي علي اليوسي
للأستاذ المهدي السيني .................................... 173
- فهرس العدد .................................... 178

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3


المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
ندوة
البيعة والخلافة
في الإسلام
العيون
19 - 22 ذو الحجة 1405 * 5 - 8 شتنبر 1985

## من أعداد "دعوة الحق" الممتازة، الصادرة بمناسبة

